

أرواح من زجاج

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826



Books - ببليومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/



أرواح من زجاجة

رواية

محمود فلاح المحاميد



لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر مقدّمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.



書誌事項

❖ الكتاب: أرواح من زجاج

❖ المؤلف: محمود فلاح المحادين

❖ نوع العمل: رواية

❖ الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة

❖ الناشر: ببليومانيا للنشر والتوزيع - مصر

❖ رقم الإيداع : 6771 / 2019

❖ الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-95-1

❖ تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببليومانيا

❖ تدقيق: ببليومانيا

❖ الغلاف: رسمة الطفلة مي المحادين - فريق تصميمات ببليومانيا

❖ المدير العام: جمال سليمان

❖ العنوان: 27 شارع جمال الدين دويدار من عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

38 شارع عمر المختار - الأميرية - القاهرة

❖ تليفاكس: 0020226061014

❖ محمول: 00201208868826 - 00201065534541 - 00201210826415

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: <https://www.facebook.com/bibliomania.eg/>

❖ الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى

مسؤولية على دار ببليومانيا للنشر والتوزيع



+201065534541
+201208868826



fb.com/BooksBibliomania



fb.com/Bibliomania.eg



fb.com/BooksBibliomania

ببليومانيا Books

fb.com/groups/BibliomaniaBooks



@BibliomaniaEg

الإهداء

إلى أمي... أول من اشترى لي قلماً

إلى أبي... أول من علمني كيف أمسكه

إلى محمود... أول من آمن بأني استحقه

إلى بيان... أول من لون حروفه

إلى مَي... أول من تجرأ على كسره...

إلى أغيد... أول من سيرته من بعدي...

قبل أن أنسى : إلى كل العاجزين عن الكتابة لأسباب تعنيهم وحدهم...

محمود فلاح المحادين

الأردن-الكرك

2018/8/16

المقدمة

كم حاولتُ القفز عن كتابة مقدمة، خاصة أنني أكتبها بعد انتهائي من سرد أحداث الرواية، لأنني لستُ خبيراً في كتابة أسطر كما قيل لي أن بعض القراء قد يقرروا بناء على قوتها الاستمرار في قراءة ما يليها، أعترف لك عزيزي القارئ أنني لا أعرف ماذا يُكتب في المقدمة، فلولا مساعدة بعض الأصدقاء لما عرفت أين يجب أن يوضع فهرس المحتويات! كل ما أردته من كتابة هذه الرواية هو وصف بعض المشاعر الإنسانية التي قد يمارسها أي شخص بسيط ليس له أحلام مستحيلة أو ممكنة التحقيق... أثناء الكتابة كان البعض ينصحي بإضافة سطر هنا أو عبارة هناك لأسباب تقنية، أو من أجل قوة النص، كنت آخذُ ببعضها وأترك أغلبها ذلك أنني لا أبحث عن الكمال في عملي قدر بحثي عن الصدق... لذلك كنت أتردد في إعادة قراءة ما كتبتُ لأنني قد أخضع لمعايير أخرى غير معايير البساطة والعفوية التي أخرجت العبارات في المرة الأولى...

ما أراه معياراً لنجاح أي مؤلف هو أن يجد كل شخص نفسه وسط الأحداث، أن يردد: هذا يشبهني! هذا أنا... فمن كان منكم مادحاً لهذا العمل فليخبرني فقط أنه قابل شخصية تتفاعل كما يتفاعل هو مع الأحداث والمواقف التي يواجهها في حياته... لن تسعني الفرحة إن لامست عبارة هنا أو كلمة هناك بين السطور قلب

أحدكم فشعر عندها بأنها خرجت من قلبي وإلا لم تكن حركت فيه كل هذه الأحاسيس والمشاعر...

ستجدوني بالتأكيد بين الأسطر، سأكذب عليكم لو قلت بأنني لا أكتب من أجل نفسي بالمرتبة الأولى، أكتب كي لا تخنقني الكلمات وتظل عالقة في صدري... قد يقول البعض أن الكتابة هي تفريغ للمشاعر وأنها لا تعكس مشاعر الكاتب الحقيقية بل هي نابعة عن كتمه لمشاعره الحقيقية مما يظهر للخارج على شكل كلمات تختلف تماماً عما يحسُّ به حقيقة... لا يخلو هذا الإدعاء من الصحة ولكنه مُجحف بحق كاتب يجيد وصف المشاعر بدقة تجعل العبرة تسقط من عينك رغماً عنك! فالكتابة موهبة، فإذا وافقت شخصاً مرهف الإحساس لا يستطيع كبح جماح عواطفه فإن النتيجة ستكون مبهرة...

لماذا لا يكتب الناس كلهم أجمعون؟!

يخطر ببالي هذا السؤال كثيراً وأحاول دائماً أجابته أو على الأقل اشباعه تفكيراً لما لإجابته إن وجدت أهمية كبيرة في كثير من المجالات أولها أن الكتابة تعكس المستوى الحضاري لأي جماعة أو وطن، وثانيها وثالثها ورابعها أن الكتابة توثق الحالة الإنسانية والتاريخية والوجدانية الموجودة في حقبة محددة حتى إذا ما جاءت

الأجيال القادمة عرفت ما الذي كان يجري وكيف كان يجري سواء قصد الكاتب وصف ذلك أم لم يقصد، أجاد ذلك أم لم يفعل...

قبل أن أبدأ بتوضيح الأسباب من وجهة نظري وجب أن أشير إلى أن حديثي هنا مقتصرٌ على الكتابة الشخصية الإنسانية التي تعكس تجربة كل فرد في محيطه وليست الكتابة الإحترافية -إن صح التعبير- والتي تجني لصاحبها الكثير من الأموال، مقابل أن يكون مجبراً ليلة كل سبت على تسليم مقالٍ لرئيس التحرير لينقحه ويزيد عليه ما يشاء وينقص منه ما يشاء ليصبح ملائماً لتوجهات الصحيفة المتوافقة مع توجهات جهة ما، التابعة لجهة ما، المنتمية لجهة ما، الموالية لجهة ما، المحسوبة على جهة ما، وغير القادرة على تجاوز الخطوط الحمراء أو الصفراء أو السوداء لجهة ما....

لا أتحذّر أيضاً عن سجناء قراءهم الذين اعتادوا كل صيف على رواية تحقق نسبة مبيعات هائلة وتعاد طباعتها عشرات المرات، الذين إن حادوا عن الطريق التي عرفهم من خلالها قُراءهم عوقبوا بالهجر والجلد الإعلامي والطلاق البائن بينونة كبرى والتراجع عن الميثاق الغليظ الذي أخذه منهم قُراءهم بأن يستمروا بنفس الأسلوب ولا يخونوهم بمحاولات الغزل والتقرب من أسلوب أدبي آخر!

بل وصل الجنون ببعضهم حتى أصبح تغيير اسم البطل في السلسلة ذنباً لا يغتفر...

لا أتحدث أيضاً عن بعض كتاب المواقع الإلكترونية التي لا تستطيع الخروج عن توجهات صاحب الموقع الذي يتلقى دعماً مادياً مجزياً من جهات ترغب في أن تظل أسهمها مرتفعة وسط سُعار إلكتروني لا يحترم لغةً ولا تخصصاً ولا احترافاً ولا مهنية...

حديثي يدور حول الناس البسطاء أمثالي الذين لا يبتغون وراء كلماتهم سوى التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم بجمل شبه مترابطة خارجة من القلب؛ إذا لم تخرج كتمت أنفاسهم وجثمت على صدورهم، يخاطبون فيها أرواحاً شفافة موجوعة تشاركهم الإنسانية ووحدة الإحساس... فيطفئون لهيب النار التي تشتعل في أعماقهم ويخففون من أوجاع من مرّوا بتجارب مماثلة أو ولدوا بذاكرة قوية وقلب مرهف وعقل مفرط التفاؤل... لا يبحثون عن شهرة أو مكسب مادي بل إنهم لا يساومون على بيع كلماتهم ولو بماء الذهب؛ ليس لأنها مميزة أو نادرة أو تشير إلى موهبة عظيمة؛ بل لأنها جزءٌ منهم تطلب خروجها إلى الورق ألماً أشد من آلام المخاض، فتخيل -يرعاك الله- أن البعض يريد منك أن تُعرض نفسك لهذه الآلام متى يشاء حتى لا يتراجع عدد قُرّاء مجلته أو صحيفته أو موقعه أو دار النشر خاصته!!!

إذن لماذا لا يكتب الناس كلهم أجمعون؟؟؟

هما سببان بنظري، الأول: أن البعض يحدث نفسه دائماً بأنه عاش تجربة مقدسة لم يسبق لأحد أن عاش مثلها وأن الآخرين الذين يكتبون قد قدموا ما فيه الكفاية وليس هناك داع لكتابة تجربته التي إذا خرجت منه أصبحت مشاعاً للجميع، وهذا من وجهة نظره يهينها ويقلل من قيمتها في نظر نفسه، خاصة أنه لن يأتي بكلمات جديدة لوصفها؛ فميزتها أنها تعني له -لقلبه ولعقله ولجسده- ما لا تعني لأي إنسانٍ آخر لم يتذوقها ولم يشعر بآلامها لحظة بلحظة...

فمثلاً لو أنه فقد قريباً في حادثة قتل، فإن كلمة 'السكين' وكلمة 'الدم' وكلمة 'الطعن' وكلمة 'الغدر' كلها تعني له شيئاً خاصاً مرتبطاً بهذه الحادثة، فإنه يعتبر استخدام الآخرين ابتداءً لها ولأنه عاجز عن ابتكار كلمات أخرى جديدة تصف المشهد كما يحسه هو فيبتعد بالكلية عن المحاولة ويستسلم لهذا الموقف وذكره، ويتركها تمرّقه يوماً بعد يوم على أن يشاركها مع آخرين قد يبدون تعاطفاً وشفقة يهينان مشاعره ويقللون من قيمتها ويحقرونها....

فهو خائف من آراء الناس وإن ادّعى غير ذلك من الأسباب!

إنه في لاوعيه يسخر من جروح الآخرين وآلامهم وفي الوقت ذاته يخشى أن يؤلمه الآخرون بسخريتهم لو أخبرهم قصته ثم قالوا له بأنها عادية... يستخف بجروح الآخرين وينسى كم عانوا حتى يبوحوا بها! لا يعرف كم تطلبت هذه الكلمات

من جرأة حتى تتحول من أوجاع داخلية إلى عبارات قد لا تصف معشار الإحساس الحقيقي الذي يسكن أغوار الروح و غرف الذاكرة المظلمة...

أما السبب الثاني: فالكتابة تشبه إزالة الحواجز عن إنسان يقف وسط الغابة وهذه الحواجز كما أنها تحميه من تغيرات الطقس فإنها تمنحه نوعاً من الأمان والحماية! فإذا استمر الإنسان بالكتابة عن كل شيء يحدث معه ويذكر تفاصيل لا تعني أحداً سواه بأي شكل من الأشكال فإنه يُعَرِّي نفسه! والعاري مكشوف العيوب الجسدية والنفسية يسهل إيذاؤه، لا أحد يخشاه أو يعطيه قيمة. إذن فالناس لا تكتب لأنها لا تريد أن تكشف نقاط ضعفها فتكون معرضة للإتيان من خلالها! هذا ليس محصوراً في أصحاب القلوب الرقيقة بل كذلك أصحاب القلوب القاسية الذين يتجنبون الحديث عن بطولاتهم حتى لا يكونوا صيداً سهلاً لأعداءهم في المرات القادمة، إذن وبعبارة موجزة نحن نحتمي بالصمت حتى تبقى هناك مساحة من الخشية بيننا وبين الناس تجعلهم يترددون في الاعتداء علينا وعلى مشاعرنا لأنهم لا يتوقعون ردود أفعالنا....

ما دون ذلك من الأسباب لا أراه كافياً لمنع شخص من الكتابة، كإدعاء البعض عدم بلاغتهم وقدرتهم على صياغة الجمل بحيث تكون صحيحة وتعبر عما يحول بخاطرهم، أو بأنهم ليس لديهم وقت كاف لكتابة خواطر لا تقدم في حياة أحد ولا تؤخر فيها، أو لرؤيتهم بأن استغلال الوقت بالبحث العلمي هو أجدى من الكتابة الإنسانية التي تجعل الإنسان يتشبث بالماضي ويعيش على أطلاله على عكس ما هو

مطلوب من الماضي بأن يمدنا فقط بالإلهام لنصنع المستقبل ونواجه مشاكلنا بطريقة عملية تقنية بعيداً عن المشاعر والعاطفة التي تؤثر في اتخاذ القرار وتزعزعه....

هناك تجارب جميلة كثيرة تهدم هذه النظريات وهي لأشخاص ناجحين ومتصالحين مع ذواتهم، ليس لأي منهم خبرة كتابية مسبقة ولم يتخصص أي منهم تخصصاً لغوياً يجعله بارعاً في انتقاء الكلمات، كل ما في الأمر أنهم كانوا يحملون معهم دائماً أينما ذهبوا ورقة وقلماً ويسجلون ويدونون ما يمرون به من مواقف مع ردود أفعالهم وأحاسيسهم التي راودتهم في تلك المواقف... ليس من المفترض ولا حتى من المتوقع أن الكتابة ستخرج في شكلها النهائي مدبجة ومنمقة ففي هذا النوع من البوح الإنساني الخالي من النفاق والإدعاء ستكون التلقائية هي اليد الذهبية التي ستطرق أبواب قلوبنا لتدخلها دون استئذان...

بقي أن أقول إن أثر الكتابة على الكاتب نفسه هو أعمق وأوسع، ذلك أنه يفرغ من خلالها طاقات هائلة لو ظلت مكبوتة لتراكت وتحولت لمشاكل عضوية ونفسية، كما أن الكتابة ترسل رسائل عن الحالة التي يمر فيها الإنسان وكثير منها تعلن صراحة أن صاحبها بحاجة للمساعدة خاصة الأطفال، فمن الممكن للمقربين أن يتدخلوا لإنقاذ هذا الشخص من خلال الاستماع إليه ومحاورته...

الكتابة فنٌ راقٍ علينا ألا نخجل من ممارسته سواء أبدعنا بالتعبير أم لم نبدع؛ فالإنجاز بما تجربنا على مشاركته مع الآخرين برغم ادراكنا أنهم لا يشاركوننا

المعاناة ولكننا فعلنا ذلك من أجل أنفسنا أولاً ولنتخلص من سيطرته علينا ومنعنا من ممارسة حياتنا بشكل اعتيادي...

إذا يا أصدقائي، ما ستجدونه في هذا الكتاب هو بوح إن صح التعبير، أما أحداث الرواية فهي مستوحاة من واقعنا، من مدننا وأريافنا، خالد والشيخ وأحمد وعبدالله وحلا ووجدان وسلمى هي شخصيات لأفراد قد تقابلهم وأنت ذاهب إلى عملك في الصباح، هم أنا وأنت وهي ونحن نمارس إنسانيتنا بكل عفوية وبراءة... شخصيات تسكن حاراتنا وشوارعنا... قد تفاجئك ردود أفعالهم وقد تعتقد أنني أبالغ في وصف بعض المشاهد ولكنني حاولت أن أقرب قدر المستطاع من الحقيقة... الحقيقة التي لا نشاهدها فقط لأنها تحدث داخل البيوت وليس أمام العامة... الحقيقة التي نحاول إخفاءها لأنها تديننا... ذروة المشاعر الإنسانية، عندما توضع مبادئ الإنسان في مواجهة مباشرة مع مصالحه وشهواته ورغباته... حوارات داخلية عميقة ومعارك عنيفة تسبق اتخاذ القرار... ابتعدت قدر استطاعتي عن منح شخصية بعينها دورَ البطلي؛ لأنه ومن وجهة نظري كلنا أبطال في لحظة ما... صراع السلطة والمال والفقر والجوع والألم والوجع والفرح والأمل... عندما يتحدث الوجدان فيبوح بكنه النفس البشرية!!

لا أعرف ما الذي أغفلته من عناصر الرواية فلم أوفه حقّه، ولكنني كنت صريحاً ومباشراً لهذا ابتعدت عن السرد الممل والوصف الدقيق للأماكن... كان طموحي أن أنجح في وصف تعابير الوجه وصدق الإحساس... الأماكن قليلة وبسيطة

والزمان محصور وهذا كله بقصد كي لا يبتعد القارئ عن محور الرواية الرئيسية الذي أُمخنته تحليلًا؛ وهو الإنسان... لأن ردة فعله لن تختلف كثيرًا باختلاف الزمان والمكان، فإذا ثبتناها وسيطرنا عليها سيسهل علينا التركيز على دراسة منشأ ردود أفعاله...

هناك أمور تقنية بسيطة لا بد من الإشارة إليها هنا منها أسماء الفصول خاصة بعد أن انتقل أحمد للإقامة مع الشيخ، فهي مُستقاة من أحداث ذلك اليوم أو أغلبها... وهذه الأسماء بدورها مرتبطة مع عنوان الرواية (أرواح من زجاج) والذي رأيت أنه أقرب وصف لشخصيات القصة؛ فهم عبارة عن أرواح من زجاج يسهل كسرها... الفرق بينها كالفرق بين أنواع الزجاج، بعضها يقاوم لأنه مصنوع من زجاج مقوى وبعضها رقيق جداً لدرجة أن نسمة خفيفة قادرة على كسره... بعضها ملون وبعضها شفاف...

قد يتجنب البعض ذكر بعض التفاصيل عن ظروف الكتابة التفصيلية التي سبقتها ورافقتها ولكنني لا أخشى الإعراف بأنني كتبت هذه الرواية في ثلاثة شهور، ولكن أفكاره كانت تحتمر في عقلي منذ بداية عام 2012 وربما قبل ذلك، حتى أنني أدخلتُ نصوصاً كنت قد كتبتها منذ سنوات... ففعلت الكتابة استمرَّ ثلاثة أشهر، أما الأفكار وبعض الحوارات والعبارات المستخدمة فيها فهي من كتاباتي السابقة...

لا أعرف أين يمكن أن يشكر الكاتب من ساهموا في أن يرى هذا العمل النور ولأنني لن أؤجل هذا الواجب إلى آخر أوراق الرواية فعلي أن أخبرهم هنا أنني عاجز عن كتابة كلمات تصف امتناني لهم؛ لوقوفهم إلى جانبي وإمدادي بالدعم والتشجيع، وأحياناً ما أحتاج إليه من معلومات أو قراءات أو استشارات... عائلتي الكبيرة... أصدقائي الذين آمنوا بي... وامتنان مثله لمن آمنوا بأنني لست قادراً على اتمام هذا العمل فكلاهما قدّم لي حافزاً للاستمرار حتى آخر لحظة خاصة عندما كان يداهمني شعور مرعب بأنني لا أستطيع كتابة سطرين متتاليين، شعور بأن علي تمزيق كل ما كتبت، شعور الإنهاك بعد الانتهاء من كل جزء... أما الشكر الخاص فهو لصديقي صدام العلاوي الذي يمتلك من قصاصاتي ومقالاتي أكثر مما أمتلك أنا؛ فمنذ أكثر من عشر سنوات وعندما بدأت أداعب قلبي بخواطر وعبارات وهو يجمعها لديه لإيمانه الأعمى بأنها قيّمة وأنها تستحق الحفظ والعناية إلى أن يأتي اليوم الذي سيقراها الجميع فيه...



على مائدة الطعام

أحمد إذا سمحت يا بني أعطني الملح من أمامك

- (وهو يحدق في هاتفه النقال): ماما أعطِ أبي الملح

- لكنك أقرب إليه!

- (دون أن يرفع عينيه عن هاتفه): ماما ألم تسمعي أبي؟! إنه يريد الملح!

- كم مرة أخبرتك أن تلتزم بآداب الطعام وتترك هاتفك أثناء جلوسك معنا على
المائدة؟!!

- أبي أرجوك، صديقي أرسل لي رسالة مهمة يدعوني فيها للخروج للسهر، دعني أرد
عليه وسأعطيك الملح والسكر أيضاً ولكن أرجوك أن تتوقف عن مقاطعتي!

- استشاطت الأم غضباً ووجهت حديثها للأب: ألا ترى أين وصلت وقاحته
وجراته عليك؟! لا يمكنني احتمال برودك في عدم إبداء أية ردة فعل تجاه تصرفاته
التي تتجه من سيء إلى أسوأ!

-الأب وكأنه يلقي كأس ماء بارد على نيران زوجته المشتعلة: هذا جزء بسيط من نتائج تربيتك!

نهض أحمد وسط هذا الشجار العنيف وكأنه حوار يتابعه عبر التلفاز وقاطعته
فقرة الإعلانات التجارية! اتجه نحو باب البيت وغادره وهو يضحك مع شاشة
هاتفه....

اتخاذ القرار

في ذلك المساء وبعد أن غادر أحمد البيت ولم يعد، وحيث كانت وجدان تستعد للخروج أوقفها عبدالله وطلب منها أن تجلس لمناقشة موضوع هام...

-أرجوك يا عبدالله.. ألا يمكن أن تؤجل هذا الحديث حتى وقت آخر؟! صديقتي ينتظرني للذهاب معهن إلى السوق!

لم ترَ وجدان زوجها بهذه الجدية منذ أن تزوجا قبل ستة عشر عاما...

كان يعتقد أنه مستعد للزواج؛ فقد جاوز عمره الثلاثين، وكانت أمه تبحث له عن زوجة تناسب وضعها الاجتماعي؛ فهي سيدة أعمال تفتخر بكونها بدأت من الصفر بعد وفاة زوجها، وبرغم عدم حصولها على أي تعليم غادرت قرية زوجها بعد أن باعت ميراث زوجها وقررت أن تسكن المدينة وتفتح محل التجارة! كانت أرملة جميلة وصغيرة في السن تنتقل بأبنائها الثلاثة الذين لم يتجاوز سن أكبرهم خمس سنوات من فندق إلى فندق متعرضة لجميع أنواع المضايقات من رجال الأعمال الذين كانوا يعرضون عليها الزواج مقابل مساعدتها في بداياتها التجارية المتواضعة.

رفضت جميع هذه العروض وأسست شركة صغيرة لمساحيق التجميل ما لبثت أن نجحت وتطورت بشكل مذهل حتى استولت على أغلب العلامات التجارية ودخلت في شراكات وصفقات جعلتها سيدة الأعمال الأولى في مجال مساحيق التجميل لدرجة أن وسائل الإعلام أطلقت عليها ألقاب كثيرة منها ما كان واقعياً ومنها ما كان مبالغاً فيه حيث كانت تغدق العطايا على الصحفيين والإعلاميين حتى يظهروها بمظهر السيدة التي لا تقهر فبداياتها الصعبة ظلت مؤثرة على شخصيتها ولم تستطع أن تتخلص من حقدتها على من حاولوا تدميرها وهي تشق طريقها لوحدها...

كانت تحاول إبعاد أبناءها عن أي شعور بالانتماء للقرية فزوجت أبناءها الثلاثة من بنات أكبر ثلاثة رجال أعمال في البلاد، كانت زيجاتهم حديث وسائل الإعلام لأشهر، كان آخرهم عبدالله الذي اختارت له وجدان ابنة رجل الأعمال الأشهر على مستوى الشرق الوسط في مجال المجوهرات والذي أهدى ابنته في يوم زفافها عقداً قيمته مليوني دولار!

توفيت أم عبدالله بعد زواجه بثلاث سنوات واضطر عبدالله لعدم وجود شقيقه في الأردن أن يستلم إدارة جميع شركات أمه، أنجبت وجدان أحمد ولكنه تلقى تعليمه كله في مدارس خاصة ولم يكن يقضي مع والديه وقتاً كافياً ليتعرفوا على

حاجاته ومشاكله، كانت الفجوة بينهم تتسع شيئاً فشيئاً، عبدالله مشغول بالشركات، وجدان مشغولة بإطالاتها، أحمد مشغول بتجربة كل ما هو جديد في عالم المخدرات والمشروبات والأجهزة الخلوية... كل مرة يذهب فيها إلى الشرطة يخبرهم بأنه ابن عبدالله رجل الأعمال الكبير فيخرجونه على الفور....

- وجدان! أحمد سيضيع من بين أيدينا! علينا أن نقوم بدورنا اتجاهه، لا أحملك وحدك المسؤولية، وليس الوقت مناسباً لمعرفة على من يقع اللوم، الخطوة الأولى أن نعترف بوجود المشكلة، الخطوة الثانية أن نقترح الحلول ونتفق عليها ونبدأ فوراً بتنفيذها قبل أن تتفاقم المشكلة أكثر من ذلك وان كنت لا أرى حالاً أسوأ مما وصل إليه حال ابننا...

- هل هذا الموضوع المهم الذي تريد أن تأخرنى من أجله... قرر ما تشاء وأنا مستعدة لمساعدتك في تطبيقه فأحمد ابني كما هو ابنك ولكنه بالتأكيد سيستفيد من هذا الحل لو كان تطبيقه من خلالك أنت فأنا أمه وهو لا يكثرث بكل النصائح التي أعطيه إياها ليل نهار!

- من يسمعك تقولين ذلك يعتقد أنك تجلسين في البيت مع ابنك أربع وعشرين ساعة باليوم! !

-هل سنبدأ هذا الحوار الآن؟؟؟!

-لن نبدأ أي حوارات فقد اتخذت القرار سابقاً وأردت فقط أن أخبرك به...سأطبق حرفياً ما شاهدته في الحلم فقد تكرر ثلاث مرات آخرها البارحة ولكن هذه المرة كان هناك اسم....

الحلم

جاءه الحلم للمرة الأولى قبل ثلاثة أسابيع، كان يأتيه شيخ كبير يضع شماغاً يغطي أكثر ملامح وجهه، لم يتعرف عليه عبدالله ولم يسأله عن اسمه فقد كان لوجهه نور أبيض ساطع لا يستطيع عبدالله من خلاله أن ينظر مباشرة إلى وجهه...

-السلام عليك أيها الشيخ

-وعليك السلام، أعرف أنك جئتني من أجل أحمد ولكنني لا أستطيع مساعدتك!

-أرجوك، أرجوك، ابني يضيع من بين يدي وأنا أنظر إليه

-لا أحد يستطيع مساعدته سوى أنت... أعطه المزيد من وقتك... التفت إلى احتياجاته ورغباته! متى كانت آخر مرة أخبرته فيها أنك تحبه واحتضنته؟ متى كانت آخر مرة أعطيته فيها شيئاً سوى المال؟!

جئى عبدالله على ركبتيه واقترب من الشيخ واضعاً يديه تحت ذقنه: أعترف أنى
مخطئ يا سيدى ولكن ما الحل الآن؟ أحمد لم يعد يطيعنى! أصبح مصدر حرج لى
فى كل مكان! لقد اهتزت مكانتى الإجتماعية بسببه!

تبسم الشيخ فظهرت أسنانه ناصعة البياض: مكانتك الإجتماعية؟! هل هذا الشىء
الوحيد الذى يقلقك؟ ألا يهملك أن ابنك لا يستطيع أن ينزل إلى الشارع ويركب
المواصلات العامة لوحده؟ ألا يقلقك أنه لا يستطيع أن يجلس وسط ثلاثة
أشخاص دون أن يشعر بالحرج؟ هل تعتقد أن ابنك جرىء فى الخارج كما هو
جرىء معك ومع أمه؟ هل أنت فخور بأن ابنك يمتلك فى رصيده ملايين الدنانير
لم يتعب فى تحصيل أى قرش منها؟ على ماذا أنشأته؟ ماذا زرعت فيه خلال
الخمس عشرة سنة الماضية؟ أن يحترم المال؟ أن يقدر القرش ومن يملكه؟ حتى
أصبح يحبك بقدر ما تعطيه من مصروف شخصى ويحترمك بقدر ما تهديه فى
ذكرى مولده الذى كان يقضيه كل عام فى دولة؟!!

-سيدى كل ما تقوله صحيح وأنا نادم أشد الندم على كل هذه الأخطاء ولكن
أخبرنى كيف يمكنى أن أصلح ابنى؟!!

أشاح الشيخ بوجهه وغاب وسط الضباب دون أن يكثر لنداءات عبدالله الذى
لحقه راكضاً دون جدوى ...

ظن عبدالله عندما استيقظ في المرة الأولى من نومه أن هذا كان مجرد حلمٍ عاديٍّ لأن هذه الأفكار كانت تأتيه في يقظته ولكنه ضحك من فكرة الشيخ الذي سينقذ ابنه لأنه في الحقيقة لم يشعر بعد بضياح أحمد ولا يؤمن بأنه بحاجة لمساعدة أحد في تربية ابنه الوحيد حتى أنه لم يخبر وجدان بهذا الحلم حتى جاء الأسبوع الثاني وتكرر الحلم ولكن بتفاصيل أوضح هذه المرة...

-أيها الشيخ ذهبت في المرة الماضية ولم تخبرني عن الطريقة التي ستساعدني فيها على انقاذ ابني، لم أعد أريد أن أعرف الطريقة، أريد فقط أن تحييني على سؤال واحد: هل هناك أمل في أن يعود أحمد فتى صالحاً أستطيع أنا وأمه أن نعتمد عليه؟

-بدأت تفكر بشكل سليم بعيداً عن العاطفة، نعم يمكن أن يصبح ابنك فتى صالحاً ولكن عليك أن تعرف أولاً أن هذا لن يكون سهلاً عليه ولا عليكم، فعليه أولاً أن يترك البيئة التي يعيش فيها وينقطع عنها انقطاعاً تاماً، ويذهب إلى مكان قاس يتعلم فيه الاعتماد على نفسه بعيداً عن النعيم الذي كنتما تغمرانه به فهذا كان سبب ضياحه الرئيسي، والآن هل أنت قادر على أن تخضع ابنك لمثل هذه التجربة القاسية؟!؟

-ولكن أين؟! وكيف؟! ومتى؟! ستجن أمه بالتأكيد إذا عرضت عليها الفكرة!

-اقناعها سيكون أسهل من اقناع أحمد...مع أنني أشك في قدرتك على اقناع أي منهما!

-حسناً! حسناً! ولكن إلى متى سيبقى أحمد في هذا المكان؟ وأين سيقوم؟ وماذا سيأكل؟ هل أستطيع أن أعطيه مبلغاً من المال ليتدبر به أموره؟!

ضحك الشيخ وكانت المرة الأولى التي يراه فيها عبد الله ضاحكاً: هل تعتقد أن ابنك سيعيش في الملاهي؟! يبدو لي أنك أنت من تحتاج الإقامة معي لشهر....

-هل تقصد أنك تريد أن يقيم أحمد معك لشهر؟ ولكنني لا أعرفك! ولا أعرف أين تقيم!

-لا أعرف كيف ستنقذ ابنك وأنت مذعور بهذه الطريقة! تخشى زوجتك! وتخشى ابنك! وتخشى التغيير! عرفت الآن سبب سوء تربية ابنك...لقد كنت تدير عائلتك كما تدير شركاتك! على مبدأ الربح والخسارة...والآن عندما شعرت بأنك ستعلن إفلاسك اجتماعياً التفت إلى أن قيادة أسرة أصعب بقليل من قيادة فريق عمل للحصول على أرباح هائلة نهاية العام....

-فقط أخبرني أين أجذك؟

-لست مستعداً بعد...قالها الشيخ وهو يختفي وسط الضباب....

هذه المرة أخبر عبدالله وجدان بالحلم ولكنها انفجرت ضاحكة مطلقة سيلاً من الأسئلة الساخرة حوله...

- وهل كان معه آيفون أم كان يحدثك من وراء حجاب

- أخبرتك بأنني لم أراه فقد كان نور وجهه يغطي ملامحه

- لا بد أنه ملاك اذن! فأنت لا تصلي إلا في المسجد وصفقاتك التجارية كلها نظيفة خاصة تلك التي دفعت من أجلها رشاي تجاوزت آلاف الدنانير!!

- أرجوك يا وجدان أن تتوقفي فالأمر جدي جداً بالنسبة لي وأقسم لك صادقاً أنني لو عرفت مكان هذا الشيخ لأرسلت أحمد إليه دون أي تردد...

نهضت وجدان وهي تضحك ساخرة من جدية عبدالله: أرسله يا حبيبي ولكن وأنت في طريق العودة أحضر لك غداءً لأنني لم أجهز أي شيء اليوم فهناك غداء عمل على شرفي لدعم جمعيات حقوق الإنسان في الشرق الأوسط...

طبعت قبلة سريعة على وجهه وأخذت حقيبتها وهاتفها ومفاتيح سيارتها وغادرت...

في الأسبوع الثالث جاءت بقية التفاصيل ورغم أن الحديث لم يطل بين عبدالله والشيخ هذه المرة إلا أنه كان كافياً لإطلاق رحلة البحث عن الشيخ....

- هل تعتقد أنك مستعد الآن لإحضار ابنك ليقيم عندي!؟

-نعم، لن أكرث بأي آراء معارضة...لن يوقفني أحد عن قراري...فقط أخبرني أين تقيم؟

-أنا لا أقيم في مكان واحد...ابحث عني وستجدني...هكذا سأعرف أنك جدي في محاولة انقاذ ابنك...

-ما اسمك؟!

-فلاح....

-ألن تكشف لي عن وجهك؟

ولكن وما أن بدأ الشيخ بإمالة الشماع عن وجهه حتى استيقظ عبدالله مذعوراً عاقداً العزم أن يبحث عن فلاح حتى آخر يوم في حياته....

رحلة البحث عن الشيخ

بدأت مهمة عبدالله الأصعب في البحث عن شيخ زاره في الحلم ثلاث مرات! لم يرى وجهه! يعرف اسمه الأول! لا يعرف أين يسكن! والأهم من ذلك كله أنه لا يعرف ان كانت هذه الشخصية موجودة في الواقع أم أن عقله اختلقها من كثرة التفكير بحال أحمد! حتى لو وجدها وهو شيء يخالط الخيال فكيف سيقنع أحمد بأن يذهب إلى هذا الشيخ ويقضي معه شهراً كاملاً يتعلم فيه الحكمة والرجولة؟! كيف سيقنع أمه؟! أين سيبدأ بحثه؟! كيف سيخبر الناس أنه يبحث عن شخص جاءه في أحلامه؟؟؟ كيف ستكون أصداء الخبر إذا انتشر بالصحف!!! رجل الأعمال عبدالله محمد يهيم على وجهه باحثاً عن مشعوذ يملك مصباحاً سحرياً لإنقاذ ابنه الذي أصبح مصدر قلق لأبيه وتجارته! يا له من عنوان مستفز للصحافة الصفراء قادر على رفع نسبة مبيعاتها عشرات المرات! كل هذه الأفكار لم تثني عبدالله عن عزمه على الوصول إلى فلاح إن كان موجوداً فوق أي أرض وتحت أي سماء وقرر أن يبدأ بحثه في قرية أبيه التي خرج منها قبل ما يزيد عن ثلاثين عاماً طفلاً رضيعاً....

دون أي تردد اتجه هو وأربعة من حراسه الشخصيين إلى قرية والده التي تبعد 200 كيلومتراً عن قصره الذي يحتل مساحة نصف جبل في وسط العاصمة عمان،

محاط بجدار يبلغ ارتفاعه 3 أمتار وفوقه أسلاك شائكة يسري فيها تيار كهربائي قد يكلف أي شخص يحاول القفز من فوقه حياته كما حدث قبل عامين مع الشاب المسكين الذي كان يبحث عن ما يسكت به جوعه فجرب أن يقفز من فوق إحدى الزوايا الخالية من الحراسة ومن الكلاب والكاميرات وما أن قفز حتى علقت إحدى قدميه في الأسلاك فتعرض لتيار كهربائي سرى في جسده وتركه معلقاً بنصف جسد متفحم أما قدمه التي علقت فسقطت في الخارج... وتمكن عبدالله حينها باستخدام علاقاته الشخصية من إسقاط المسؤولية عن نفسه ولم يدفع أي تعويض لعائلة الشاب...

يتكون القصر من ثلاثة أبنية رئيسية تصل إلى الأول منها بعد أن تقطع ممراً طويلاً محاطاً بالأشجار يجب دائماً عبدالله في أوقات فراغه أن يقطعه على حصانه الخاص...

هذا قصر عبدالله وزوجته ويتكون الطابق الأول منه من صالات وقاعات استقبال بينما في الطابق الثاني غرف النوم والمطابخ، أما الطابق الثالث فكان عبارة عن شرفة زجاجية كبيرة إلى جانبها نادي رياضي متكامل... كان يقضي معظم وقته في هذا الطابق... عندما يشعر بالتوتر يمارس الرياضة في الصالة ثم يأخذ حماماً

ساخناً ويجلس في الشرفة الزجاجية وينظر إلى المسبح والأشجار والأزهار المزروعة فوق جميع المساحات الخالية بين المباني الثلاثة...

المبنى الثاني كان مجموعة من الشقق يستقبل بها عبدالله ضيوفه وكبار المستثمرين الذين يأتون لزيارته من خارج الأردن... أما المبنى الثالث فهو فيلا لأحمد وهي مجهزة بكل ما قد يحتاجه لرفاهيته وحفلاته الخاصة، تحاول وجدان اقناع عبدالله أن يسكن فيها عندما يتزوج إلا أن عبدالله يرفض رفضاً قاطعاً لأنه يريد أن ينفصل أحمد عنه بعد الزواج ويسكن بعيداً عنه....

وصل عبدالله مشارف القرية حول العصر فوجد على أبوابها أطفالاً يلعبون الكرة وهم حفاة، توقفوا عن اللعب عندما شاهدوا السيارات السوداء الفخمة وهجموا عليها ما أن توقفت وسط الملعب الترابي الذي ليس له حدود أو معالم سوى الحجارة التي توضح أبعاد مرمى كل من الفريقين والذي كان من الواضح أن أحدهما كان أكبر من الآخر مسافة لا تقل عن نصف متر... أنزل عبدالله زجاج سيارته فوجد أحد الأطفال الذي يبدو عليه أنه أكبرهم سناً وهو بسن أحمد تقريباً يمد يده حتى كادت تلمس مقود السيارة!

-أعطني شيئاً آكله!

-نحن لسنا هنا لتوزيع المعونات، أخبرني أين يقع منزل الحاج ابراهيم؟!

الشاب وبإشارة واحدة من يده جعل الأطفال يحيطون بالسيارات وكأنهم سيمنعونهم من التحرك إلى أي مكان دون أن يعطوهم شيئاً يأكلوه أو مالاً ليشتروا به طعاماً، وقد بدا على وجوههم أنهم قد يكونوا لم يأكلوا شيئاً منذ أسبوع...

بدا كأن الحارس الشخصي الذي إلى جانب عبدالله سيشهر سلاحه ولكن عبدالله أوقفه بسرعة وأشار إليه أنها لن تكون فكرة صائبة وبهذا التصرف لن يحصلوا على ما جاءوا من أجله، حتى أنه ألمح إليه أنه برغم ما يمتلك من نفوذ وقوة إلا أن اغضاب هؤلاء الناس قد يجعلهم يدفنونا في أحد الأحرار وعلان الحرب على الحكومة والدولة بأسرها ان حاول أحد المطالبة بمحنتنا...

بنفس الإشارة الأولى انسحب الأطفال من حول السيارات بعد أن أعطى عبدالله رئيسهم بضعة دنائير مقابل أن يخبره أين يقع منزل الحاج ابراهيم الذي وجد عبدالله بعد بحث طويل عبر معارفه أنه أقرب شخص لوالده والذي من الممكن أن يعطيه معلومات قد تساعد في البحث عن الشيخ...

ما أن وصل عبدالله منزل الحاج ابراهيم حتى خرج لاستقباله وبعد أن عرفه بنفسه نزلت دمعة من عينيه واحتضنه ودعاه إلى الدخول وأشار إلى الناس الذين تجمعوا لرؤية السيارات والأشخاص الذين يرتدون بدلات سوداء ولا يخشون

عرض أسلحتهم وبكل جرأة، أشار اليهم بأن الأمر على ما يرام فابتعدوا والغضب باد في عيونهم فهم لم يعتادوا على أن يدخل قريتهم أحد شاهراً سلاحه بهذه الوقاحة....

كان الحاج ابراهيم يجلس وحوله ستة شباب كل واحد منهم يضع أمامه قطعة سلاح...ثلاثة كانوا عن يمينه وثلاثة عن يساره، عرف عبدالله فيما بعد أنهم أبناء الحاج وهم لا يعملون شيئاً سوى مرافقة الحاج أينما يذهب...

-لا أعرف من أبدأ يا عم! ولكنني سأبدأ من عند الاعتذار عن القطيعة طوال هذه الفترة ولكنك تعرف السبب الرئيسي الذي غادرت من أجله أمي وأرى أنه كان كافياً حينها...

-لقد كسرت أمك كل عاداتنا وتقاليدنا! لقد أقدمت على فعل لم تجرؤ على فعله أي امرأة عبر تاريخ عائلتنا كله! لقد أثبتت من خلال تصرفها أن قرار والدك بالزواج من فتيات المدينة والذي كان يرفضه الجميع كان قراراً خاطئاً ومتسرعاً

شعر عبدالله بالإهانة ولكن تركيزه كان على أن يحصل على ثقة الحاج ابراهيم

-يا عم لا أقصد أن أكون وقحاً ولكن كيف كنتم تريدون لسيدة في بداية الثلاثين من عمرها أن تتزوج عمي الذي كان عمره حينها ست عشرة عاماً فقط لأن الفتاة إذا توفي عنها زوجها يجب أن يتزوجها شقيقه حتى لا يتربى الأبناء عند زوج غريب!

-هل جئت لتسخر من عاداتنا يا ابن صفاء!! قالها بصوت غاضب ونهض وبنهوضه سحب كل واحد من أبنائه سلاحه وتوزعوا عن يمينه ويساره بطريقة عسكرية محترفة...وكذلك فعل حراس عبدالله قبل أن يشير إليهم بأن يخفضوا أسلحتهم ولكن هذه المرة بصيغة عنيفة

-يا عم أقسم لك أنني لم أقصد شيئاً من ذلك، أنا ابنكم كنت ولا أزال ، وها أنا جئكم اليوم لأقف بين يديكم لتفعلوا بي ما تشاءون، فقط اقبلوا عودة ابنكم الذي لم يكن له يد في كل ما جرى قبل ولادته! لقد وجدت نفسي فجأة وسط المدينة! لم تكن أُمي تخبرني أي شيء عنكم وعن والدي! كبرت وأنا لا أعرف شيئاً عن عائلة والدي وكأنني ولدت دون أب...

قاطعها الحاج ابراهيم: وهل يأتي الشخص المخطئ مدججاً بالأسلحة والحراس يا عبدالله؟! يبدو أن المدينة لا تعلم أبنائها شيئاً عن احترام عادات وتقاليد الآخرين!

بدا من الواضح أن الأمور تخرج عن السيطرة فعبدالله لم يعرف كيف يدير الحوار مع الحاج ابراهيم بل ان حياته الآن على المحك، شعر بحجم المأزق وحاول أن يخرج

بأقل الأضرار ولكنه لا يزال مصراً على معرفة أية معلومة قد تفيده في بحثه عن الشيخ...

-حسناً لنعقد اتفاقاً يا عم، أولاً أنا متأكد أنكم لن تقوموا بالإعتداء علي وقد دست بساطكم، ، حتى لو كنتم ستقتلونني فلن تفعلوا ذلك فوق ترابكم فهذا يلحق العار بكم، ولم آتي برفقة هؤلاء الحراس لهذا الغرض ولكن من أجل المكان الذي ربما ترسلوني إليه ان وجدت عندكم الغرض الذي جئت لأبحث عنه...

-وما هو الغرض الذي جئت من أجله!

-انها قصة طويلة ولكنني أبحث عن شيخ اسمه فلاح، هل تعرف أي شيء عنه؟ هل بإمكانك أن تدلني عليه؟

-وأنت ماذا ستعطيني بالمقابل؟

لم يكذب يصدق عبدالله ما سمعه!

-هل تعني بأنك تعرف شيئاً عنه؟! أرجوك يا عم أن تخبرني أن هذا الشخص موجود؟! سأعطيك ما تريد؟! سأعطيك مليون دينار!

-ألم أخبرك بأنك ابن أمك؟! البدوي لا تغريه الأموال ولا تحرك به ساكناً ثم من يريد مالاً مقابل معلومات عن مجنون يسير في الطرقات ويتفوه بالترهات! لو سألت أحد الأطفال الذين قابلتهم عند دخولك القرية لأخبروك أين تجد فلاح...



اقناع أحمد

عاد عبدالله إلى قصره مدججاً بالأسئلة، كان الوقت قبل منتصف الليل بقليل، طلب من الجميع أن يتركوه ما عدا خالد الذي يعتبر ذراعه اليمنى، طلب منه الغاء جميع مواعيده حتى نهاية الأسبوع وتأجيل جميع الاجتماعات والزيارات إلى إشعار آخر ومرافقته فوراً إلى المسبح.

خالد شاب عبقرى يصغر عبدالله بعشر سنوات، رغم صغر سنه إلا أنه يعد أحد عباقرة الحاسوب في الأردن، بالإضافة إلى شهادته الأكاديمية في الحاسب إلا أنه حاصل على شهادات أخرى لدورات متقدمة في المحاسبة، أما بقية المهام الموكلة إليه من قبل عبدالله فقد اكتشف عبدالله مهارته فيها من خلال اختبارات كان يضعه فيها دون علمه، لم يستطع بعد تخرجه بتفوق البقاء في عمل واحد لمدة تزيد عن شهر واحد وذلك لسلطة لسانه وشخصيته الجارحة، رفض عروضاً من شركات كبيرة لأنها لم تضعه مديراً فهو يرى أن أفكاره تحتاج لتنفيذها نفوذاً وسلطة، عندما ذاع صيته أحضره عبدالله على الفور وسلمه أغلب الأمور المالية وكان يرقيه في المناصب سريعاً حتى أنقذه مرة من عملية نصب كبيرة حيث انتقلت علاقتهما حينها إلى علاقة صداقة متينة ذلك أن خالد حينها استخدم احساسه

فقط ليخبر عبدالله عن عدم ارتياحه لهذه الصفقة...أصبح خالد يكلفه بإتمام الصفقات العالقة بسبب عناد الطرف الآخر وشروطه التعجيزية لأن خالد بشعره المربوط إلى الخلف وبدلاته السوداء ونظاراته المعتمة وسيارته البورش الرياضية السوداء أيضاً يجيد بل يفضل استخدام أساليب التهديد مع هؤلاء الجبناء كما يسميهم وكثيراً ما كانت النهايات الدرامية تحيط هذه الصفقات إلا أن هذا لم يزد من مكانة خالد إلا قرباً ومحبة...

كان الغضب بادياً على وجه عبدالله، خلع ملابسه وقفز مباشرة إلى المسبح وقطعه عدة مرات دون أن يتفوه بكلمة وخالد جالس قبالة على كرسي واضعاً أمامه مسدسه وكأسين من الليمون أعدهما بنفسه، وصل عبدالله إلى طرف المسبح حيث كان خالد يجلس ورفع رأسه ووضع يديه على البلاط المحيط بالمسبح...

-هل رأيت الثقة التي كان عليها ذلك الشاب الذي أوقف موكبنا؟!

-بالتأكيد! لا بد أنه خطر ببالك أن أحمد لا يمكنه التصرف بهذه الثقة! يا صديقي كل منا لديه مواهب وقدرات خاصة به، لا بد أن أحمد يملك شيئاً لا يستطيع أحد سواه امتلاكه بما فيهم ذلك الشاب الحافي الذي لم يخرج من قريته منذ ولادته!

-لا بل إن أحمد لا يمتلك شيئاً سوى أموال أبيه! يرتكب الجرائم بإسمي ويمارس فواحشه وهو متأكد أنني سأنفذه في كل مرة! هل شاهدت كيف احترمني هؤلاء الناس رغم قدرتهم على قتلي بل ربما استحقاقى له؟!

-يا عبدالله! لماذا أشعر أنك حاقد على ابنك! إن الآباء حتى لو كان أبناءهم غير صالحين فإنهم لا يعترفون بذلك ويحاولون دعمهم والوقوف إلى جانبهم حتى يصنعوا منهم شيئاً مهماً وكبيراً! بإمكانك أن تشتري لأحمد شهادة ومنصباً وزوجة بل ومكانة اجتماعية أيضاً ومن يرفض اعطاءك أي واحدة من هذه فقط أعطني صورته وسأقتله على الفور!!

-ولكنني سأكون على قناعة تامة أنه لا يستحق ذلك! أما ما يشعرني بالمرارة أنه سيقبل أن أمنحه هذا كله دون تعب أو مثابرة! إنه بلا كرامة! هل رأيت كيف رفض العم ابراهيم الأموال القادرة على تغيير حياته للأبد بل قرينه كلها فقط لأنها جاءت به بسهولة! انه سعيد رغم فقره! أما أنا صاحب الملايين فتحيطني هالة كاذبة من السعادة! أنا كائن هش! الجميع يظن أنني سعيد، بيت كبير، عمل مزدهر، زوجة جميلة شابة، عائلة مستقرة، ابن مفتول العضلات مستعد للحفاظ على ارث اسرته من الزوال! ولكن هذا كله كذب فأنا لست سعيداً ولست مستقراً! أنا خائف ولولم أكن كذلك لما أحطت نفسي بكل هذه الحماية والحراس! ولما رفعت جدار القصر ثلاثة أمتار ووضعت فوقه الأسلاك الشائكة المكهربة! أنا لست خائفاً من

الخارج! خوفي ينبع من داخلي، لست قادراً على الشعور بالأمان! لقد شاهدتهم بأم عيني ينامون بكل راحة في بيوت لا سقف لها! ما هذه القناعة التي يمتلكونها؟!

-يا صديقي لا تبالغ في ردة فعلك! لو أنهم استطاعوا أن يصبحوا مثلك لأصبحوا! أخرج من عقلك هذه الأفكار الرومانسية! الحياة تقودها الأموال! أنت لا تساوي شيئاً دون نقودك، سيدوسك هؤلاء الفقراء دون رحمة، أنت لست قوياً بعضلاتك ولا بحراسك، أنت قوي بأموالك، في اللحظة التي تظهر فيها هذا الضعف سيمزقونك ارباً، حتى لو كنت ترتجف من الداخل يا صديقي إياك أن يظهر ذلك على وجهك...إنني أرى وجهاً هزياً! لسان حالك يقول أنك ترغب في أن تترك كل ما تملك وتذهب لتقضي حياتك هناك بل ربما تتزوج إحدى فتياتهم لتنجب لك طفلاً يكون جديراً بثقتك وأملاك! إياك أن يكون توقعي في مكانه!

ضرب عبدالله البلاط بيديه بغضب: ولماذا لا يكون هذا هو الصواب؟! لماذا؟!

-لأنك ستكون أحمقاً! هؤلاء قوم جياع منذ عصور وإذا شعبوا فجأة سيطغون، ليسوا معتادين على الثراء وحياة الأثرياء، ستكون نهايتك محتومة إذا اتخذت هذا القرار!

غطس عبدالله تحت الماء وشعر خالد أنه أثقل عليه بحديثه لذلك تركه يعود إلى السباحة لعل هذا يخفف عنه ولكن وبعد مرور 3 دقائق ودون أي تردد قفز خالد بكامل ملابسه وأخرج عبدالله رغماً عنه من تحت الماء ولكنه دفعه بعيداً عنه بعنف رغم أن وجهه كان محتقناً وشاربينه تكاد تنفجر وعيونه حمراوان

-من أمرك بإخراحي؟

-لقد كنت تموت!

-أنا بخير ولست بحاجة لمساعدتك وإياك أن تتجاوز حدودك معي في المرة القادمة!

-منذ أن حبست أنفاسك تحت الماء شغلت المؤقت على ساعتى وعندما تجاوزت الدقيقتين شعرت بالقلق ، قلت بأن هناك شيء خاطئ سيحدث، وعندما اقتربت من الدقائق الثلاثة قفزت دون تردد ولا أعرف لماذا فعلت ذلك، يبدو أنها حماقة مني حيث كان من المفترض أن أتركك تموت...

-يستطيع الإنسان أن يحبس أنفاسه تحت الماء لخمس دقائق متواصلة إذا كنت لا تعرف ذلك

-إذا كان مدرباً على ذلك وإلا فإنه لا يستطيع ذلك إلا بمعدات خاصة

-وأنا مدرب على ذلك جيداً...

خرجاً سوية وانتقل التوتر معهما إلى المقاعد حول المسبح وبدل أن يطلب عبدالله من خالد أن يجفف ملابسه طلب منه ما لم يكن يتوقعه وبصيغة لم يسبق له أن استخدمها معه...

-أريد رؤية أحمد على الفور، أحضره لي ولو كان في أبعد أرض، واتجه فوراً إلى الاصطبلات و جهز لي بلقيس وسوار واترك بلقيس بلا سراج وعندما يأتي أحمد أخبره بأنني أريد أن أسابقه في المضمار...

-سيدي أعرف أنها المرة الأولى التي أطرح عليك فيها هذا السؤال ولكن هل أنت مستعد نفسياً وبدنياً لامتطاء بلقيس؟!

-تماماً كاستعدادي للبقاء تحت الماء لخمس دقائق....وأدار ظهره ليرتدي الملابس الخاصة لامتطاء الخيول....

بلقيس مهرة عبدالله الخاصة، عربية أصيلة عمرها ثلاث سنوات تنتمي لعائلة الدهمان التي تعود إلى نوع الخيل الصقلاوي الذي يتميز بأصالته وجماله وسرعة عدوه...كانت صهباء لها عنق طويل وذات منكبين عريضين وعينين واسعتين وشعر خفيف فوق جبين واسع وذيل مرتفع ناعم...أهداها إياه أمير عربي جاء لزيارته قبل عامين وأعجبته فأولاها عناية خاصة فلها طبيب خاص يأتي لزيارتها بشكل دوري وهو لا يتابع شؤون الخيول الأخرى فهو طبيب بلقيس لوحدها...

سوار تنتمي لعائلة الهدبان التي ترجع لعائلة الكحيلان التي سميت بهذا الاسم لجمال عينيها كأنها تضع الكحل، كانت سوداء تماماً وذات عينين واسعتين وعنق طويلة وأذنين صغيرتين، كانت بارعة الجمال رغم سوادها، كانت تكبر بلقيس

بعامين وهي مهرة أحمد الخاصة... لم يكن يهتم بها كثيراً ولكن أباه أجبره على اقتناءها ليباهي به أصدقاءه...

عاد أحمد إلى القصر على مضض واستغرب أمر السباق برمته ولكنه لم يرفض طلب والده الغريب فعلى الأقل سيجد سبباً لغيابه إذا أمسكت الشرطة أصدقاءه وهم يشربون الخمر... الشيء الوحيد الذي استغربه أحمد هو أنه لماذا سوار هي الوحيدة التي كان عليها سرج...

بدا عبدالله متماسكاً وكأنه يرغب من هذا السباق في أن يمارس نشاطاً يقربه من ابنه الذي شعر أنه قد أخطأ بحقه بالبعد عنه الفترة الماضية... خالد كان يقف بعيداً ولم يكن مطمئناً البتة لهذا السباق وظل على أهبة الاستعداد في حال حدوث أي طارئ...

-هل تحب ركوب الخيل يا أحمد؟

-أحب كونها حرة!

-ولكنها تتروض بالتدريب!

-الخيل أعلم بفرساتها!

-لذلك تضع سرجاً لسوار؟

-ليس الفرس مجله وبرقهه!

-اذن أتبع الحصان لجامه!

-هل أعتبر هذا تحدياً؟

-سأسبقك دون أن استخدم سوطي!

-أكرم الخيل أعجزها من السوط...

-لكل جواد كبوة!

-أعتقد أنك لفظت لجامك بهذه العبارة...فلننطلق اذن...و ضرب سوار ضربة خفيفة بقدميه وشد لجامها فقفزت إلى الأعلى ولكنه شد يديه حول عنقها كأنه يحتضنها ويهدئ من روعها فنزلت ثم انطلقت كأنها تسابق الريح...

هال عبدالله منظر ابنه وهو يقود مهرته كأنه فارس من العصور الوسطى وعرف أن السباق لن يكون سهلاً وضرب بيده على ظهر بلقيس فانطلقت إلى جانب سوار

-تذكر أن جري المذكيات غلاب يا أبي وسوار تكبر بلقيس بعامين وقد كملت قوتها وامتلأت لحماً...تقدم أحمد قليلاً عن والده في المضمار الذي تبلغ مسافته 3000 متر وهو مجهز لسباقات الخيل وعليه رمال مستوردة خصيصاً لهذا الغرض

-الخيل تجري على مساويها يا أحمد فكرم الأصيلة وعزة نفسها تحملها على الركض...زاد عبدالله من سرعته حتى صار مساوياً لأحمد...

-اذن أرني أفضل ما عندك...انطلق بسرعة جنونية

عرف عبدالله أنها الفرصة المثالية لتنفيذ خطته فأفلت احدى يديه من على لجام بلقيس وتظاهر بأنها دفعته للخلف وأنه فقد السيطرة عليها فارتبك أحمد ونظر إلى أبيه وصرخ صرخة لا إرادية وهو يحاول إيقاف سوار ومساعدة أبيه

-أبي! أبي! حاول أن تمسك باللجام بكلتا يديك وستقوم بلقيس بالباقي! إذا تسرب التوتر منك إليها فستبدأ بدفع أقدامها إلى الخلف وقد تسقطك!

اختلطت المشاعر خلال هذه الثواني المعدودة في رأس عبدالله، فأحمد ابنه قلق عليه وهذا يعني أنه يحبه، أما الشعور اللذيذ الآخر فهو أن أحمد واثق من نفسه وليس كما توقعه والدليل أنه يعطي والده نصائح فنية دقيقة خلال هذه اللحظات الحرجة، ولكن عبدالله لم يسمح لكل هذا بالتشويش عليه ولفته عن خطته التي عزم عليها

-لقد فات الأوان يا بني ولكن اعلم أنني أحبك وان كنت أنت تحبني فنفذ وصيتي! أرجوك أن تنفذها وهكذا سأموت وأنا مرتاح

كانت بلقيس وسوار ينطلقان بأسرع ما يمكنهما حتى أنهما قريبان لدرجة تمكن كل منهما من سماع أنفاس الآخر المضطربة، كانت مهارة أحمد واضحة في السيطرة على سوار ومنعها من أن ترتبك بسبب ارتباك بلقيس، وتحت هذه الظروف المريحة أجاب أحمد دون تردد

-أرجوك يا أي أن تركز في قيادة بلقيس وتترك الوصايا الآن فأنت لن تموت -احلف بالله أن تنفذ وصيتي!

-اقسم بالله العظيم أن أطيعك وأن أنفذ أمرك لأنك ستنجو وسيكون أمراً وليس وصية!

دهش عبدالله من رباطة جأش ابنه وشعر بالسعادة أيضاً لأن خطته نجحته وحاول أن يتظاهر بصعوبة إعادة السيطرة على بلقيس ولكنه أحكم قبضته عليها ونادى أحمد ليبطئ من سرعته استعداداً للوقوف....

كان خالد يقف مشدوهاً ينتظارهما فأخذ لجام بلقيس وقرب أذنه من عبدالله هامساً: هل كنت تحاول قتل نفسك هناك أمام ابنك؟!

ابتسم عبدالله ابتسامة المنتصرين: لقد نجحت الخطة يا خالد! لقد نجحت... جهز نفسك سنذهب غداً أنا وأنا لنضع أحمد عند الشيخ

-وأمه؟!

-لن أخبرها حتى نعود، أو سأقول لها بأنها ذاهب مع أصدقاءه اجازة لمدة شهر، هي لا تكثرث أصلاً... هيا أعد بلقيس وسوار إلى الإصطبلات ووافني إلى الصالة الرياضية.... ربت على ظهر بلقيس قائلاً: عرفت أنك لن تخذليني....



روح اللقاء

في اليوم التالي و تجنباً للأخطاء السابقة اتجه عبدالله برفقة خالد وأحمد فقط إلى القرية وكانوا يرتدون ملابس عادية وكان خالد هو المسلح الوحيد وكان يخفي سلاحه تحت ملابسه وكانت الإتفاقية بين عبدالله وأحمد تنص على أن يبقى أحمد برفقة الشيخ شهراً كاملاً، لم يعترض أحمد حتى الآن على أي شيء مع أن والده لم يخبره مزيداً من التفاصيل...

وصلوا إلى دكان يعرض على بابه أكثر مما يعرض على رفوفه الداخلية التي كانت شبه فارغة... لاحظ مجموعة من الأباريق معلقة على أحد الأعمدة على باب الدكان وكان اصطدامها بسبب الريح ينتج موسيقى غريبة على مسامعهم فقد اعتادوا على ضجيج مزامير السيارات في المدينة، انتبه خالد إلى مجموعة شيوخ متجمهرين حول قطعة خشبية ويصرخون على بعضهم البعض وقد جلس كل اثنين منهم مقابل بعض ومجموعة تحيط بهم وتشجعهم، اقترب منهم وجلس على أحد الكراسي الخشبية الفارغة وقد أشار إلى عبدالله وأحمد أن يبتعدوا عنه قليلاً... لم يلحظ أحد جلوسه فسأل أحدهم بشكل مباغت عن فلاح فقال له دون أن يرفع رأسه: انه يجلس قبالتك هل أنت أعمى؟!

-آسف لم استطع تمييزه سامحي يا عم! انسحب بهدوء ولحق بعبدالله وأحمد...

-عبدالله! عبدالله! توقف مكانك! لقد وجدت الشيخ! إنه يجلس هناك مع تلك المجموعة التي مررنا بجانبها للتو!

-ماذا تقول؟! هل أنت متأكد؟ شعر عبدالله بقشعريرة تسري بجسده

-لا أعرف! عد وتأكد بنفسك فلست أنا الذي رأيته في الحلم!

-حسناً، سننتظر حتى يتفرق الجميع كي لا نلفت إلينا الأنظار

لم يعرف عبدالله ان كانوا انفضوا بسبب مشاجرة أم أن الصراخ في هذه اللعبة يستمر حتى بعد انتصار أحد الأطراف فقد غابوا ولا يزال كل واحد منهم يتوعد الآخر بالإنتقام في المرة القادمة... عيون عبدالله كانت تنتقل بسرعة بين المغادرين، كلهم كانوا يجرون أقدامهم المتعبة وهم يسرون مبتعدين عن الدكان ما عدا واحد كانت مشيته سريعة ومنتظمة وثابتة ، انطلق نحوه عبدالله بسرعة كان يظن أنها كافية للحاق به ولكنها لم تكن كذلك بل غلب على ظنه أن الشيخ قد تباطأ ليتمكن عبدالله من رؤيته والسير إلى جانبه...

-أنت! يا عم! هل يمكن أن تتوقف قليلاً لأتحدث معك؟!

استمر الشيخ كأنه لم يسمع شيئاً

-لو سمحت! لن آخذ من وقتك الكثير!

زاد الشيخ من سرعته كأنه يهرب من عبدالله فلم يترك له فرصة سوى أن يستفزه
 -حكيم يجلس إلى مجموعة عجزة ينتظرون الموت! ياله من مكان تفوح منه
 الفلسفة والثقافة!

-ليس بإمكاننا دائماً أن نختار ظروف معاركنا فلو كان هذا ممكناً لكان كل القتل
 رجال. (1)

فرح عبدالله لأن الشيخ تكلم ولكنه لم يفهم مغزى الشيخ فقرر أن يستفزه بقوة
 هذه المرة

-يبدو أنك تحاول اثبات جنونك لهؤلاء الناس حتى يتركوك وشأنك!
 -المجنون هو شخص غير متوازن إلى أن يثبت عكس ذلك...اللعب مع المجانين
 من أكثر الألعاب التي تحتاج إلى التركيز... (2)

-لماذا لا تنظر إلي وأنت تتحدث معي؟!

-ليس بيننا أي حوار وأرجوك أن تتركني لوحدي فأنا لم أؤذيك فلا تؤذيني!
 لم يستطع عبدالله أن يجد تفسيراً لخوف الشيخ فكلامه ومشيته وهيئته لا تدلان
 على أنه مجنون فلماذا يحاول نفي صفة العقل عن نفسه؟!

-لن أؤذيك، أنا هنا بناء على دعوة منك ، لقد رأيتك في الحلم بأنك تعرض علي مساعدتك في انقاذ ابني وتعليمه الحكمة والرجولة

-هل أنت مجنون أيها السيد؟! أنا لا أملك سوى هذه الملابس التي أرتديها فطعامي وشرابي من الناس الذين يشفقون علي ويرأفون بحالي، أقضي يومي متجولاً بين الحارات ثم إذا جن الليل ذهبت إلى بيت الشعر الذي أقيم فيه وأنقله بين الحين الآخر إلى مكان ذا مناخ معتدل وتناولت حليبي ونمت إلى اليوم التالي، لا تنغص علي معيشتي بترهاتك هذه ، ماذا يوجد لدى عجوز مثلي ليقدمه لك؟! أرجوك أن تغادر القرية وتتركنا نعيش بسلام وطمأنينة

-سأغادر، ولكنني سأترك أحمد عندك وسأعود إليك بعد شهر

وصل خالد وأحمد ومع وصولهما توقف الشيخ والتفت أخيراً إلى عبدالله محدقاً مباشرة في عينيه فكانت نظرتة كالحرّيق على عبدالله فأصيب بصدمة جعلته لا يعرف كيف يتصرف! انه هو! لا شك في ذلك! انه الشيخ الذي كان يزوره في الحلم! فأمسك بيد أحمد وشد عليها بقوة: هذا هو الشيخ الذي أخبرتك عنه والآن انتهت مهمتي وسأعود لأخذك بعد شهر فأطع شيخك ولا تخيب ظني وافعل كل ما يطلبه منك...والآن أعطني كل ما تمتلك من أدوات اتصال وأموال واذهب مع الشيخ لمنزله...

نظر أحمد إلى الشيخ نظرة احتقار ، وتفحصه من رأسه حتى قدميه ، كيف يتصرف الآن؟ ماذا يفعل باليمين الذي أقسمه؟! الأمر لا يعنيه من الناحية الشرعية بقدر

ما كان يعنيه كسر العهد الذي قطعه على نفسه أمام والده! انه يشعر بالإشمئزاز من هيئة الشيخ، كيف سيحرم نفسه من كل وسائل الترفيه من أجل البقاء مع هذا الشيخ الذي يكبره بخمسين عاماً على أقل تقدير ويعيش وسط الصحراء! ماذا يجب والده الآن؟!

-حسناً يا أبي، سأعتبرها إحدى الإجازات في أفغانستان لتجربة الإنقطاع عن العالم والحصول على السلام الداخلي! لم تعجب نكته أي من الحاضرين ولم تساعد في إزالة الشحنات المنتشرة في الأجواء

وجه الشيخ حديثه لخالد: أنت أيها السيد يبدو أنك عاقل، لماذا لا تأخذ هذين الإثنين وتغادرا هذه القرية كما دخلتماها فأنا رجل درويش لا أستطيع أن أحصل على قوت يومي فكيف سأوي عندي شاباً بهذا السن لشهر؟! ماذا سأطعمه؟ ثم لماذا علي أن أقبل بهذا الأمر كله...أخبر هذا الرجل أنني لن أتحمّل مسؤولية ابنه وأنه يجبر ابنه على خوض تجربة ليس فيها أي احتمالات للنجاة...عمري سبعون عاماً لم يسبق لي أن قابلت رجلاً يسوق ابنه بقدميه إلى التهلكة؟! هل أنت متأكد أنه ابنه الحقيقي؟! أم أنه وجدته في الشارع فهو لا يملك تجاهه أي مشاعر أبوية؟!؟

لم تفلح نداءات الشيخ بتحريك خالد فخالد كان يعرف أن عبدالله لن يتراجع عن قراره...بقي أمر واحد...هل ينوي خالد أن يلتزم فعلياً بأمر عبدالله أن يترك أحمد مع الشيخ طوال هذه الفترة دون أي حماية حتى لو بشكل خفي؟؟؟؟؟!

غادر عبدالله مع خالد والشيخ يصرخ خلفهم يرجوهم بأن لا يتركوا أحمد عنده ولكن لا حياة لمن تنادي...ابتعدا وغاباً تماماً وبقي الشيخ وأحمد للمرة الأولى لوحدهما كل منهما يشعر بأن خطأ كبيراً جمع بينهما ولكن عليهما التعايش معه...كل لأهدافه الخاصة....

أطال كل منهما النظر في وجه الآخر دون أن ينطقا بكلمة واحدة...نظرات متتالية كأنهما يريدان اكتشاف بعضهما البعض دون أن يطرحا أسئلة تفضح قلقهما من القادم...نظرات تحد وكبرياء تخفي تحتها الكثير من الإمتعاض! أيقن كل منهما أن التجربة قائمة لا محالة وأنهما سيخوضانها بغض النظر عن كونها ستكون خالية من المتعة والفائدة...لم يعتادا على الاستسلام ، هي المرة الأولى التي يكونان فيها مجبران على القيام بشيء على غير قناعة...ربما جرب الشيخ هذا الشعور في صغره ولكن أحمد كان يشعر بنار تشتعل داخله والشيء الوحيد الذي كان يهدئه هو أن لا أحد يعرف بهذه التجربة من أصدقاء فهو لم يعتد على الظهور أمامهم بمظهر الضعيف بل انه كان دائماً يتقدمهم لخوض أكثر المغامرات تهوراً...كل واحد منهما ينظر إلى التجربة من زاويته الخاصة فالإنسان عندما يجبر على شيء يحاول موازنة نفسه بأنه كان الخيار الأفضل...

كسر الشيخ هذا الصمت فقد كان يبدو أن أحمد قادر على الاستمرار دون كلام بقية النهار...

-اسمع أيها الفتى أرى أنك إذا كنت ستبقى معي طول هذه المدة فعلينا أن نتفق على مجموعة من القواعد

-لم أعتد على الالتزام بالقواعد

همس الشيخ بنبرة احباط: حماسة الشباب وتهورهم! ! ثم أضاف بصوت مسموع وحاد: ألا يكفيك أنني قلت نتفق ولم أقل أن عليك أن تنفذها لوحده؟! سأسمح لك بوضع قواعدك ومناقشة قواعدي حتى نصل معاً إلى منطقة محايدة نلتزم بالبقاء بها حتى نصل معاً إلى نهاية ترضينا معاً....

-اسمع أيها العجوز لا يوجد أي شيء مشترك بيني وبينك، ولا أفهم ما الذي كان يفكر فيه أبي عندما أحضرني إلى هنا! وسبب بقائي الوحيد هو أنني وعدته أنني سأنفذ طلبه، أما أنت فسيكون من دواعي سروري لو أخبرتني بسبب موافقتك فالشكوك تدور برأسي منذ أن قابلتك حول موافقتك الغامضة ودون شروط! ! أما القاعدة الوحيدة التي عليك أن تلتزم بها هي أنك بنهاية الشهر ستخبر أبي بأنني كنت مطيعاً وأنها كانت تجربة مفيدة وممتعة وغنية...وأحذرك أن يتسرب الشك إلى والدي بصحة هذه الأقوال...

-ان شاء الله ستكون كذلك فعلاً...وماذا ستخسر لو توقعت ذلك؟ ان أكبر خطأ يقع فيه الإنسان هو اطلاق الأحكام المسبقة على تجارب لم يمر بها بعد أو على أشخاص من ظاهرهم أو جماعة قبل التعامل معهم...وقعت في هذا الخطأ عشرات المرات ودائماً ما كان يحدث عكس ما أتوقع خاصة أنني اعتدت وأنا في سنك وعندما أقابل شخصاً جديداً أن أسمح لنفسي بكرهه أو حبه من النظرة الأولى! و فيما بعد أصبح الذين أطلقت عليهم أحكاماً متسرة بالكره أعز أصدقائي...لا تدري فقد نصبح بنهاية هذا الشهر من أفضل الأصدقاء...

أطلق أحمد ضحكة كبيرة : أنا وأنت؟ هههههه! أصدقاء؟!

-البعض يتجنبون خوض المعارك السهلة ظناً منهم أنها مضمونة النتائج متى قرروا خوضها...إلى ذلك الحين يحق للفريق الثاني الإدعاء بأنه انتصار بالرعب...

-لن تستطيع بكلامك هذا استفزازي فأنا حقاً لا أرى فيك معركة حقيقية بالنسبة لي وعليه فأنا أقر لك بالانتصار وبإمكانك أن تعلن في الأرجاء أنك هزمتني دون أي قطرة دماء! وبالرعب وحده!

-ماذا ان اعترفت لك بأنني بحاجة؟!

-لا استغرب ذلك! لا بد أنك تعرف من يكون أبي وتعرف أنه سيكون هناك جائزة كبيرة ان نجحت في تغييرى...اطمأن يا عم ستحصل على جائزتك وسأحرص على أن تتمكن من الهرب قبل أن يعرف أبي أنك لم تنجح في تغييرى...ستعطيني ما أريد وسأعطيك ما تريد...وأنا سأصرف بطريقتي مع أبي عندما يكتشف فشله ، فأنا أيضاً حريص على تعليم أبي بعض الدروس القاسية...فلنجعلها صفقة سهلة على كلينا....

-ما نتحدث عنه اسمه مقايضة والمقايضة لا تعتمد على قيمة السلعة الحقيقية بقدر ما تعتمد على حاجتنا إليها في لحظة التبادل، وإلا لما رضينا لمشاعرنا الصادقة من بديل أبداً... فربما ليس لي قيمة في نظرك ولكنك الآن بحاجة وعندما أسلمك حاجتك في نهاية هذا الشهر ستعرف أن حاجتي لم تكن الجائزة....

-لا يمكنك تخيل مدى شوقي لتلك اللحظة...

-اذن عليك أن تبدأ بتعلم الصبر... فلا يمكنك التنبؤ بما قد يواجهك في قادم الأيام...

-تعلما في المدرسة أن عملية الهضم لا تتم إلا في المعدة وللوصول إلى المعدة لا بد من المرور بالمرىء! مشاكلنا مع المرىء ثانوية ومهما كلفتنا من خسائر فإنها لا تذكر أمام نجاح عملية الهضم

-أنت تعتقد أن الأمر لعبة والحقيقة أننا نسمي بعض الأمور بالألعاب لنزيل عن عقولنا التوتر الذي يعترينا لخطورة التعامل معها

-أغلب إرهاباتنا النفسية سببها إعتقادنا الخاطئ بأن المشاكل الكبيرة لا يمكن تجاوزها إلا بحلول بنفس حجمها

-بدأت أشعر بالغيرة من تلميذي...قالها الشيخ مع ابتسامة خفيفة

-لست تلميذك وما أراه الآن هو أننا نتبادل المعرفة وحتى لو كنت تلميذك وهو الشيء الذي لم ولن يحدث ف الشعور الذي يجب أن يتولد عند الاستاذ إذا حاول تلميذه العبقرى أن يخرج عن مبادئه هو الشعور بالفخر وليس الشعور بالغيرة!!

-اذن لننتظر حتى نهاية الشهر لنرى ان كنت سأكون فخوراً بك أم أنك ستكون فخور بي لسرعة تعلمي، فأنا وان رأيتني عجوزاً طاعناً في السن فإنني أؤمن بأن المعرفة لا تتوقف حتى لو كان الإنسان على حافة قبره بل تتوقف إذا ظن الإنسان أنه تعلم كل شيء...

-ولكن منطق مجتمعنا الأعوج يقول بأنك لا تستطيع أن تتعلم مني شيئاً! فمن لم يسقط مئة مرة ولم يتعثّر ألف مرة ولم ينجو مئة مرة من الموت لا يمكنه أن يسدي النصائح لأحد...هذه شروط الانضمام إلى فئة الحكماء في عالمنا الغريب!!

-أولاً ليس هناك شيء اسمه الحكماء، هناك شيء اسمه الحكمة وقد تصدر من أي شخص وأنا أميل إلى تعريف الحكيم بأنه الشخص البارِع في الحصول على الحكمة وجمعها وهذا يتطلب ذكاءً وسرعة بديهة وسعة اطلاع وصبراً وحلماً وصفاء ذهن...الحكيم لا يجب أن يكون متقدماً في السن أو صاحب تجربة متنوعة ، قد تصبح حكيماً من مراقبة المجانين فهم يتفوهون بالحكمة أحياناً ولكن كبريائنا يرفض أن نستفيد من مجنون!! ثانياً: العالم اليوم ليس بحاجة إلى الحكماء، انه بحاجة إلى الإنسانية! علينا أن نتعلم كيف نصنع الإنسان كما نصنع الفخار ولكن هل تعرف ما الفرق بينهما؟! صناعة الإنسان ليست كصناعة الفخار، ، فالمادة الخام ليست المعيار، ، فقد تستطيع أن تصنع كأساً زجاجية جميلة من مادة أساسية جميلة مع بعض التعديلات، ، بينما قد تحاول صناعة إنسان جيد من شخص بذرته حسنة لكنك تفشل، والسبب واضح، في صناعة الزجاج لا تتدخل ظروف أخرى سوى درجة الحرارة!!

هل خطر ببالك أن تفكر كم جرب والدك من حلول قبل أن يجد أن وضعك مع شيخ زاره في الحلم هو الحل الأمثل؟؟؟ نحن نرتب الحلول في رؤوسنا قبل أن نلجأ إليها وكلما جربنا إحداها ولم ينجح شعرنا بالخطر لإقترابنا من الحل الأخير...

لا بد أن والدك لم يعد يبالى بالخطر المتوقع من تجربة الحل الأخير وهذا ان دل على شيء فإنه يدل على أنه قد يخسر أي شيء مقابل أن يكتسب ابناً صالحاً
-أنت لا تعرف أبي أيها الشيخ...

-علمتني التجارب الكثير عن الآباء...

-لا أقصد الإساءة ولكن العالم أكبر من قريتك ، ربما لم تصادف في حياتك شخصاً كأبي ، و حتى لو كنت قارئاً جيداً فلن تصادف شخصاً كأبي في الكتب...أي من نوع الرجال الذين يعيشون حياة صاخبة ثم يندثرون فجأة...فلا التاريخ يذكرهم في الكتب ولا الرجال تتحدث عنهم في المجالس...

-لا يوجد شخص بلا أخطاء...ربما ستجد يوماً تفسيراً لتصرفات والدك

-أنا لا أنتقد فيه ارتكابه للأخطاء...أنا أنتقد ارتكابه لها بعد هذا العمر والتجارب!

-التجارب تغيرنا كيميائياً والتغير الكيميائي ينتج مادة جديدة ولا يمكن الرجوع بعده إلى الحالة الأصلية...والأهم من ذلك أن أهم علامات نجاحه إخفاء المواد المتفاعلة... وهذا يعني أن والدك قد مر بمجموعة من التجارب قد جعلته شخصاً آخر تماماً فهو لن يعود إلى ما كان عليه ونحن لا نعرف الظروف التي رافقت هذا التغير...تعامل مع والدك كما هو الآن...

-أبي شريك في قتل حلمي! قد تستغرب ذلك، ولكنه أعطاني نقوداً لشراءه ولم يعلمني كيف أحارب من أجله...لطالمني حرمني لذة القتال من أجل الأشياء التي أحبها...لا نكهة للشيء إذا جاء بسهولة...لطالما اشتجيت أن أتنافس مع الآخرين على شيء محدود أو نادر...حرمني ذلك الشعور طوال حياتي وهو يظن أنه بهذه الطريقة من العطاء يحميني من أن أتعرض للحرمان فأوقعني في حرمان أقسى بسبب أنانيته! كل الميزات التي كان يمنحني إياها كانت من أجله هو...من أجل اشباع حاجة نفسية في أعماقه...كل عقده النفسية انعكست على ابنه الوحيد...يريد تصحيح كل أخطائه من خلالي! أن ينسخ نفسه بصورة محسنة خالية من الأخطاء عبر أحمد الذي عليه أن يكون بلا استقلالية، بلا شخصية، عليه أن يكون عبدالله الجديد الخالي من الأخطاء...

-كل ما قلته صحيح ولكن ماذا فعلت أنت لتقاوم هذا حتى الآن؟!

-لم أفعل الكثير ولكن في رأسي أفكار تنتظر فقط المكان والزمان المناسبين لتطبيقها...

-هل ستخبرني بها هنا الآن أم نكمل حوارنا في الخيمة لأريك أين ستنام؟!

-لن أنام في منزلك!

-ولكن والدك طلب مني حمايتك!

-وهل أنت قادر على حماية نفسك حتى تحميني!

-ربما يكون منزلي ليس بفخامة منزلك ولكنك مجبر على الإقامة به حتى نهاية الشهر...

-لا أعتقد أنني سأنام ليلة واحدة معك ولكنك ستجديني عندما يعود أبي لأخذي...

-أنت لا تريد وضعي في مأزق مع والدك، أليس كذلك؟!

-لن يتعرض أحد للمشاكل يا سيدي...عد إلى خيمتك واحذر أن تموت بعضة أحد الزواحف فجسدك لا يحتمل...علي أن أكون حريصاً على سلامتك لتسعة وعشرين يوماً آخر....

روح المواجهة

ما أن بدأت حرارة أشعة الشمس بالإرتفاع حتى شعر بها أحمد ففتح عينيه
منزعجاً وأخذ يتلفت حوله فانتبه له الشيخ الذي كان يحمل وعاء من الحليب قدمه
لأحمد الذي لم يدرك حتى الآن أين هو

-أرى أنك لم تبتعد كثيراً عن الخيمة! لقد وجدتك نائماً على بابها وأدخلتك هنا

-نعم وحملتني إلى هنا لوحديك! يالها من رواية خيالية مشوقة! قال أحمد هذه العبارة
وهو لا يزال يفرك بعينه

-حسناً لنقل أنني سحبتك فقد كنت كالجثة الهامدة، تناول افطارك وتعال رافقني
أريد أن أذهب بالأغنام إلى أرض خضراء بعيدة من هنا ولكن ليس أمامي خيار
آخر فالأغنام يجب أن تأكل لأطول فترة ممكنة من السنة من المراعي فهذا أفضل
لبنيتهما من الأعلاف التي لا أملك سعرها أصلاً...

-هل تسمي الحليب افطاراً؟ ما حدث ليلة الأمس أن الوقت تأخر وكنت مرهقاً
من السفر فقررت أن أقضي الليلة في الخارج حتى الصباح حيث يمكنني بسهولة
رؤية الطريق، أشكرك على حسن ضيافتك ولكنني لن أتناول طعامك هذا ولن
أنام على فراشك هذا ولن أرى معك الغنم فطبيعة حياتك لا تتلائم مع حياتي ولا
يمكنني بأي شكل من الأشكال التأقلم مع هذا النوع من الحياة حتى لشهر

واحد...أرجو أن تتفهم الفارق الكبير بيننا فأحياناً يولد الإنسان محظوظاً فيجد كل شيء يأتي إليه دون جهد كبير...

-ولماذا برأيك أعطتك السماء كل هذه الهدايا بينما حرمت عجوزاً في مثل سني من بضعة دنانير تكرم شيبتي وتحميها من الذل والمهانة؟

-أنت دائماً تأخذ حواراتنا إلى طرق جانبية مبتعداً عن مغزى الحديث الرئيسي! ولماذا قد أفكر بما أملك ما دمت أمتلكه! هل سبق لك أن شعرت بنعمة قبل أن تفقدها؟!

-كلامك صحيح ولكن عليك أن تتذكر دائماً أن إرتطام هذا العدد الكبير من الهدايا النازلة من السماء برأسك لا يعني أن مساحة رأسك كبيرة أو أنك تجيد الوقوف في المكان والزمان المناسبين!! إنه فقط لتأمل حجم كرم السماء

-ومع هذا فهذا أنت لا تجد في أرذل العمر من يسند ظهرك أو تتكى عليه ، ولا تجد مسكناً كريماً تموت فيه، ولا تزال بحاجة لرعي الأغنام لكسب الرزق! فهل لا تزال على قناعة بعدالة السماء؟!

-لا أشك فيها للحظة واحدة فعطاء السماء ليس له حدود لا من حيث الكم ولا من حيث النوع...ما يحدث أن السماء تستمر بعطاءها حتى نموت ولكن هذا العطاء له أشكال مختلفة تتناسب مع كل مرحلة من مراحل عمرنا ، تعطينا ثم تترك

لنا حرية طريقة الاستفادة منه...وهنا تقع الفروق بين البشر، هناك من يبذر هذا العطاء لأنه لم يدرك قيمته ثم في خريف العمر وبعد فوات الأوان يجد نفسه وحيداً يواجه الموت لأنه لم يتقن استثمار سنوات شبابه في العناية بهذا العطاء حتى يستمتع بثمره في سنوات حياته الأخيرة...ولكن حتى هذا النوع من الناس تمنحه السماء عطاء من نوع آخر وهو عطاء القناعة حتى ليجد في خيمة ومجموعة من الأغنام عالماً من المتعة والراحة والطمأنينة...أما النوع الآخر فهو من يعرف أن عليه في سنوات شبابه أن يستغل أي فرصة تلوح له فيقبض عليها ويقيدها ويصنع منها مستقبلاً كريماً له ولمن بعده...فهؤلاء يعيشون حياة متوسطة الإثارة فهم يتعبون في بداية حياتهم ثم يرتاحون في نهايتها نسبياً أو لنقل أنهم يجدون نقوداً للعلاج من الأمراض التي ألمت بهم وهم يحاولون الحفاظ على ثرواتهم، على عكس النوع الأول الذين يعيشون فترة شباب مليئة بالإثارة ينفقون فيها كل ثرواتهم ثم يقضون حياة فقيرة ولكنها بلا أمراض! فسبحان ربك العادل الحكيم!!

-كم أجد صعوبة في الإقتناع بكلامك فإن آمنت به نسفت قناعتي بأني استحق ما أملك وإن لم أتعب في الحصول عليه، وإن كفرت به فسأبرئ أبي الذي جمع ثروته من السرقات والرشوات، أو لنقل أنه حافظ عليها أما جمع جدتي لها فهذا أمر لم أكن موجوداً للحكم عليه...

-عدم اقتناعنا بصحة كلام لا يعني عدم وجوده، ثم ان الإنسان بطبعه لا يحب الكلام الذي يمس معتقداته وبالتالي طمأنينته...فكل منا لديه مخزون من المبادئ التي يؤمن بها ويرتاح بالسكون إليها فهي على خط واحد مع هواه وأي محاولة للنيل منها سيقاومها بشراسة، تخيل أن تخبر شخصاً أنه يعيش على الأوهام؟! سيصاب بالرعب! وكما تعلم أن لا تجد قدمك أقل رعباً من أن لا تجد أرضاً تضع عليها قدمك... لذلك يجد الناس صعوبة في الاعتراف بأنهم على خطأ فذلك يهدم الجدران الدفاعية التي يختبئون خلفها ويحتمون بها، لا تنسى أيضاً أن هذه الحقائق بالنسبة لهم أشياء مقدسة فحتى لو كانوا لا يفهمونها فهم مستسلمون لها لأنها تلامس إيمانهم ومعتقداتهم الثابتة الغير قابلة للنقاش!

-وكيف يمكن الإقتراب من هذه المعتقدات لتغييرها؟!

-كما قلت لك فإن المساس المباشر بهذه المعتقدات أو الإعلان والتصريح بأنك تحاول الحديث عنها سيؤدي إلى مقتلِك...و...

-يا إلهي!

-صدقني هذه أقل ردة فعل قد تجد نفسك في مواجهتها، نحن نتحدث عن مواجهة عقائد ترسخت منذ مئات السنين وتمت زراعتها بإتقان في عقول الأطفال عبر جميع مؤسسات المجتمع من بيت ومدرسة ومعبد ومقهى وصحيفة وكتب وروايات، ولكن هذا لا يعني أن الأمر مستحيل ولكنه بحاجة إلى جهد جماعي مكثف ترافقه ارادة وعزيمة على التغيير والأهم التحلي بالإيمان والصبر واستشعار

عظمة ما تفعله بايقاظ الناس من سباتهم العميق ونقلهم من الجهل إلى الحقيقة ومن التبعية إلى الاستقلال...عندها ستجد نفسك قادراً على احتمال جميع المصاعب التي تواجهك وستجد أن عملك السامي هذا يستحق أن تفني عمرك من أجله...صناعة الوعي هي هدف آلاف العظماء من قبلنا...منهم من مات دون حلمه ومنهم من حقق منه جزءاً يسيراً ومنهم من اختار شريحة صغيرة حوله وقضى عمره في محاولة تغييرها...

-ماذا عنك؟! ماذا تصنف نفسك؟!

-أنا يا بني لم أصل لطموح أي من هؤلاء، كان طموحي متواضعاً لأن الحديث عن أي توسعة أو تطوير لشيء موجود حالياً-حزب، فكرة، حب، وطن، مشروع-هو محاولة مكتوب على جبينها الفشل، ، ، ، أقصى ما يمكن فعله إزالة ما علق بهذه الأشياء منذ عصور من شوائب وتراكيب غريبة، ، ،

-اذن فأنت من أنصار الرجعية والتخلف؟!

-ها أنت تعود إلى إطلاق الأحكام المسبقة! فكما أنه لا يمكننا التنبؤ بالمستقبل فإنه لا يمكننا الحكم على حقبة بأكملها كانت يوماً قائمة فوق هذه الأرض! أنت بهذه الطريقة تناقض نفسك، فلا يمكنك أن تطلب من الناس أن يتحرروا من القيود الفكرية التي تسيطر على عقولهم وتدعوهم إلى نقاش مفتوح وجريء حولها ثم تطلق على أفكارهم التي يطرحونها أحكاماً مجحفة وسريعة دون أن تنصفها وتشبعها تفكيراً وبحثاً...

-كأنني لم أعد أفهم ما الذي تحدث عنه! ما الذي تريده؟! أعطني بعض التفاصيل عن خطتك هذه لإنقاذ العالم!

-لست بهذا الغباء يا صديقي ولكنني أعرف أن الإنسان العظيم هو من يأتيه اليقين في بداية عمره أنه لإنقاذ العالم عليه أن يبحث كل ما هو موجود الآن عن بكرة أبيه ليبدأ من الصفر!

-العظماء لا يؤمنون بالإصلاح!؟

-العظماء المتحمسون قليلو الخبرة الذين يبحثون عن نتائج سريعة...ولكن هؤلاء هم بذرة المصلحين الحقيقيين ان استمروا بنفس الحماسة وكانوا مرنين في تغيير أساليبهم وآمنوا أن النتائج لا تأتي بسرعة وقد لا تأتي أثناء حياتهم بل قد يكون انجازهم الأكبر أن يصنعوا وعياً حقيقياً في شخص أو اثنين قد يواصلوا بعدهم رحلة النضال...

-لم تجبني بعد على سؤالي! أي طريق تسلك أنت!؟

-لسنا دائماً من نحدد الطريق التي نسلكها فهناك دائماً عوامل تتحكم بنا والتأقلم معها هو أفضل طريقة للحصول على النتائج المرجوة فما ينطبق على بيئة لا ينطبق على أخرى ولكن هناك جوانب عامة تتعلق بالإنسان نفسه فهذه على الأغلب تكون واحدة عند كل الناس لأنها ناتجة عن تجارب وأبحاث طويلة في علم النفس والإجتماع...أما أنا عن نفسي فطموحي لا يتجاوز أن يصبح المجتمع

بجميع أطيافه وطبقاته قادراً على الحوار بشكل هادف للوصول إلى نتائج ترضي الجميع...وأقصد بالحوار الهادف أن يكون مبنياً على الاحترام وتقبل الرأي الآخر مع الابتعاد عن الحساسية تجاه الآراء المختلفة وفي ذات الوقت أن لا يدخل أحدنا الحوار متخذاً وضعية هجومية قتالية أو دفاعية انطوائية...حوار منفتح وجريء تطرح فيه جميع الأسئلة بطريقة حضارية ومؤدبة وعلمية بعيداً عن التلميح والتجريح والإساءة المتعمدة أو الضمنية...هذا كل ما أحلم به، لا تستهن بالتغير الذي سيحدث للعالم إذا أتقن الحوار بغير لغة السلاح!

-إذا كان شاب متهور في سني يرى في كلامك هذا أحلاماً تلامس الخيال فكيف بشيخ في مثل عمرك لا يزال يؤمن بأن هذا يمكن أن يحدث! هناك أشرار في العالم يا عم ستكون خسائرهم فادحة إذا تحقق حلمك!

-أعرف ذلك ولكنك أصررت على سماع اجابتي...والأ فأننا لا أكاد أتحدث مع نفسي في مثل هذه الأمور هذه الأيام، ولكنني عشت مع جيل كانت فرصته أكبر من غيره بالتغيير والإصلاح ، جيل حافل بالرجال الحقيقيين الذين بذلوا الغالي والنفيس من أجل أفكارهم...عندما تجد البيئة من حولك كلها تحفزك على العطاء فستجد نفسك حتماً منساقاً مع التيار، ولا تنسى أيضاً أننا جيل عايش الهزائم العربية في ذروتها فكانت أغلب ردود أفعالنا عفوية وتلقائية ومليئة بالعاطفة والحماس وهذه النقطة بالتحديد كانت ضدنا...اكتشفنا هذا مؤخراً حيث كان

أغلب أبناء جيلنا قد ماتوا، ولكن الفرصة ما زالت سانحة أمامكم فأنتم بإمكانكم البدء بعيداً عن الآثار السلبية للأفكار التي تتخذ تحت تأثير العاطفة...
 -ليس الأمر بهذه السهولة فإن كانت الظروف قد تغيرت فالعقول لم ينلها الكثير من التغيير...

-وأفكك الرأي بل إن هناك مقولة كنت أرددها دائماً أن أشد عذابين قد يتعرض لهما الكائن الحي طوال حياته هما الغربة والوهم مع أن علاجهما سهل وبسيط! التأقلم والإنسجام ! ولكن كما أخبرتك سابقاً فنحن نميل إلى الراحة ونفضلها على القيام بشيء جديد من البداية حتى لو كان هو الصواب... تخيل أن أحد التفاسير التي تحدثت عن العذاب الذي هدد فيه سيدنا سليمان الهدهد عندما لم يحده أنه سيضعه مع جنس آخر! أي أنه سيجعله غريباً؟! وأما الوهم فحدثتك كيف يشعر الإنسان إن واجهه أحد بالحقائق بشكل مباشر وأخبره بأنه يعيش طوال حياته وسط الأوهام.... لا أحد يحتمل أن لا يعرف مصيره! يوم الحشر وعندما يكون الناس غارقين بالعرق حتى رقابهم هل تعرف ماذا يطلبون؟! انهم يطلبون أن تقوم الساعة حتى لو كان مصيرهم إلى النار! يفضلون أن يحترقوا بالنيران على أن يبقوا معلقين في حيرة من أمرهم... إذا تأملت قليلاً في فلسفة وجودنا ستجد أن مغزى حياتنا الرئيسي أن نجد أنفسنا أو أن نقوم بأعمال نجد أنفسنا من خلالها...

لم يكمل الشيخ عبارته الأخيرة حتى اقتحم الخيمة ثلاثة شبان أكبرهم يحمل سكيناً والآخران يقفان خلفه يحمل كل واحد منهم عصاً غليظة، قفزوا إلى وسط الخيمة برشاقة فأصبح حامل السكين المثلث يقف تماماً أمام الشيخ بينما يبعد أحمد الذي لا يزال مستلقياً على ظهره عدة أمتار عن المقتحمين...

-لم أكن أعرف أيها العجوز أنك تجيد شيئاً سوى رعي الغنم! أطلق الشبان في الخلف ضحكة سخرية كبيرة...

قال أحدهم وهو يلوح بعصاه تجاه أحمد: ويستقبل ضيوفاً أيضاً!

مد الشيخ يديه كأنه يعترض طريقهم: أرجوكم أن لا تؤذوه أعرف أنكم جئتم من أجل الأغنام، خذوا منها ما شئتم وغادروا، لن يعترض طريقكم أحد...

انتفض أحمد من على حصيرته وقد جن جنونه من كلام الشيخ الذي بدا أنه معتاد على هذا النوع من الزيارات: ما الأمر أيها الشيخ؟! من هؤلاء وماذا يريدون ولماذا تسمح لهم بمعاملتك بهذه الطريقة؟! هل ستعطيهم الأغنام حقاً؟ لماذا لا تطردهم؟ لماذا لا تقاومهم؟ لماذا لا تحتفظ بكلب للحراسة أو شيء من هذا القبيل! لماذا ليس لديك سلاح؟! لماذا لا تخبر الشرطة؟! هناك ألف طريقة لمنع هذه المهزلة!!

وسط ضحكات الشبان الثلاثة كان الشيخ يرجو في نفسه أن ينتهي هذا الموقف بأقل الخسائر فاتجه بكلامه نحو أحمد: أرجوك يا بني أن لا تتدخل، لا عليك

فهؤلاء ليسوا سارقي أغنام بل هم أبناء صديق لي يسكن القرية ويأتون بين الحين والآخر لأخذ جزء من الأغنام بغرض أخذ حليها والاستفادة منه في صنع بعض الألبان والألبان..

كان الشيخ يتحدث مع الطرفين وهو يواصل مد يديه وعكازه جانبياً كأنه يصنع حاجزاً ليمنع اقتراب أي منهم تجاه الآخر... كان الشبان أقل عصبية من أحمد فهم متأكدون من قوتهم ولكنه كان يخشى أن يستفزهم أحمد الذي لم تبدو عليه معالم خوف من نزال ثلاثة شبان مسلحين...

-لماذا لا تخبر ضيفك أننا نأخذ من الأغنام ما نشاء ومتى نشاء؟! فربما منعنا من أن نفعل ذلك! أو ربما لقننا درساً قاسياً لأننا نعتدي على ممتلكات الآخرين دون خوف أو خجل! ربما تخشى علينا من قسوته؟!

مع كل كلمة كان أحمد يستشيط غضباً ويتقدم إلى الأمام خطوة ولكن الشيخ يمنعه إلا أنه هذه المرة حاول أن يلکم الشاب على وجهه من فوق كتف الشيخ ولكن الشاب تجنبها بخفة ورجع إلى الوراء مطلقاً ضحكة هستيرية هزت أرجاء الخيمة وقال لأصدقائه: يبدو أن ضيف الشيخ قد تدرب على القتال في أحد المراكز المرموقة! هل رأيتم الزاوية التي أطلق لكمته منها؟! علي أن أعترف أنه ماهر ولو تأخرت قليلاً لأصابني فما رأيكم في أن ننزله نزالاً عادلاً دون أسلحة؟!

شعر الشيخ بأن القتال سيقوم لا محالة وأثناء محاولته الأخيرة لدفع الشاب الذي يحمل السكين صفعه الشاب على وجهه فسقط فوراً ووقعت منه عكازه وسقط شماغه بعيداً عنه وارتطم جسده بالأرض وصرخ صرخة ضعيفة ترافقها آهات متكررة...

دون تردد هجم أحمد نحو الشاب وهو يصرخ في وجهه: أيها الجبناء! هل تعتدون على شيخ عاجز؟! ألم تعلمكم أمهاتكم أم تقاتلوا أندادكم؟ أم أنكم بلا شرف وبلا مبادئ؟ وأخذ يضرب بشكل مجنون، ولكن الغلبة كانت واضحة للشبان الذي انهالوا عليه ضرباً بعصيتهم دون رحمة وهم يكيلون له الشتائم ويقولون بلهجة مرعبة: ألا تعرف من نحن؟ نحن أبناء الشيخ سليمان؟ نحن أسياذ الصحراء؟ من يجرؤ على حربنا فمصيره الموت! خذ هذه! وهذه! لتعلم ما هو جزاء من يحاول أن يمس أحد أبناء الشيخ سليمان!

حاول الشيخ أن ينهض ولكنه لم يستطع أكثر من أن يجثو على ركبتيه... زحف باتجاههم محاولاً منعهم من ضرب أحمد فقد خشي أن يقتلوه بطعنة في صدره أو ضربة على رأسه، مد يده متوسلاً إياهم أن يتوقفوا ولكنهم كانوا يزدادون ضراوة كالوحوش المفترسة، لم يكتروا لضعف أحمد ولا لعجز الشيخ وكبر سنه واستمروا يضربون أحمد بشكل متواصل... سقط الشيخ مرة أخرى وغاب أحمد عن الوعي

وغادروا الخيمة وتركوه ملطخاً بدماءه وركله الشاب الذي كان يحمل السكين قبل أن يخرج مردداً بكل حقد رغم أن أحمد لم يكن يسمعه: هذه مني أنا سالم ابن الشيخ سليمان تذكر هذا الإسم جيداً أيها الأحمق... وسرقوا ما جاءوا لسرقته وتركوا الشيخ يتألم وأحمد بلا حراك والدماء تسيل من كل مكان في جسده حتى تسربت من فوق الحصيرة واختلطت بالرمال التي كانت تغطي أرض الخيمة...

روح الحوار

-أحمد! أحمد! استيقظ يا بني!

-سأمرقك، ابتعد عني، اaaaaه يدي

-أحمد! يا بني لقد ذهبوا! لقد غبت عن الوعي طول الليل وقد أصابتك بعض الجروح والكدمات، عليك أن تستريح ولا تحرك يديك أو قدميك فقد يكون هناك كسر هنا أو هناك... لا أعتقد أنك ستكون قادراً على السير قبل عدة أيام...

-ولكن كيف سمحت لهم بأن يذهبوا؟! أقسم بالله العظيم! أقسم بالله العظيم أن....

-ضع يدك بجانبك ولا تلوح بها فقد تفتح الجرح من جديد! لقد نظفت لك مكانه ولففته بقطعة قماش ووضع لك بعض الأعشاب التي ستساعدك على التئام الجرح وشفاءه بسرعة....ولكن عليك أن تهدأ، وأنت بجميع الأحوال لن تستطيع أن تفعل شيئاً حتى لو كنت بكامل صحتك فلماذا لا تهدئ حتى نفكر بطريقة نخب بها والدك عن اصابتك دون أن نخبره عن الشجار فأنت يجب أن تذهب إلى المشفى لأن جرحك قد يكون قطعياً ويحتاج إلى قطب طبية لأنك نزت دماً كثيراً ولولا أنني ضغطت على مكانه بقوة لاستمر النزف دون توقف...

-يبدو أنك لا تع عواقب ما تقول! أنا لن أسمح لأي مخلوق برؤيتي بهذه الحالة! وسأنتقم منهم جميعاً وآتيك بهم وأجعلهم يقبلون أقدامك بكل ذل، سأذيقهم المرارة وأجعلهم يتجرعونها حتى آخر رمق، أقسم لك يا عم أن يأتوك صاغرين يرجونك أن تغفوا عنهم، أما أنا فحسابهم معي عسير وسأجعلهم يدركون حجم الحماقة التي ارتكبوها، فقط اصبر حتى أتمكن من النهوض ااااا

-ألا تفكر بشيء سوى بالإنتقام لنفسك؟! وأن تؤذيه كما أذاك؟ ثم ماذا ؟ هل ستسفي غليلك إذا قتلته وشربت من دمه ومزقته ارباً؟! ما هو الشعور الذي ستشبعه عندما تأخذ بئارك؟!

-أرجوك يا عم أن تتوقف عن تقمص دور المهاتما غاندي والقاء الحكم التي تدعو إلى الصفح والعفو والتسامح! صدقني أنني لا أستطيع سماعها ولا فهمها وأنا في حالي هذه! لا أرى بعيني هاتين سوى دماء سالم بين أصابعي وأنا أمرغ أنفه بالتراب! جلدي تسري فيه رعشة قهر لأنني عاجز! مئات الأفكار الشريرة تدور برأسي كلها تدور حول الطريقة التي أنتقم فيها منه! عقلي متوقف عن التفكير تماماً، عضلاتي هي من تفكر الآن، ترسم وتخطط وترتب لمعركة الرد! أنا أحمد بن عبدالله يحدث هذا لي؟! أنا من ترجف الأرض من تحتي إذا أقبلت على مكان تسيل دماي من مجموعة شبان يحملون العصي والسكاكين؟! دعني أوضح لك أمراً أيها الشيخ، أنا وأبي نعتبر أنفسنا من عائلة لا يستطيع أحد أن يمسه أو يقترب من أفرادها! نحن عليّة القوم وأشرفهم، ندوس على أكبر شارب يفكر أن يتناول علينا،

نحن نفعل ما نشاء وقت ما نشاء ونستبيح ما نشاء، ثم اسمح لي يا صاحب القلب الكبير أن أطرح عليك سؤالاً، عندما كنت في سني هل كنت تسمح لأي كان بالإعتداء عليك بهذه العنجهية والوقاحة؟ لا يبدو لي أنك كنت حنوناً مع من يفرض عليك أتاوة فقط لأنه ابن فلان أو علان! ما رأيك بأن تعطيني نبذة عن مراهقتك؟!

-لقد صدقت بقولك أنك أعمى، لست فقط أعمى بل ترى أشياء ليس لها وجود وهذا في الحقيقة أسوأ من العمى...فأنت ترى مثلاً أن سالم عدوك وفي الحقيقة أنت وسالم عدوكما واحد، وأيضاً أنت ترى أن الانتقام هو أفضل حل ان اعتدى عليك أحد والحقيقة أن من لا ينتقم لنفسه تنفذ له الأقدار انتقامه على أيدي الغرباء دون أن يبذل أي مجهود، أما الأمر الثالث الذي تراه على أنه صواب وهو خطأ أنك تعتقد أنني كنت وأبناء جيلي نأخذ ثأرنا بأيدينا والحقيقة أن الفرق كبير جداً بين جيلي وجيلك ليس فقط من حيث ردود أفعالنا بل من حيث نظرتنا للأمور وتفسيرنا لها....

-انتظر انتظر! ماذا تعني بأن عدوي و عدو سالم واحد؟!

-بالتأكيد بالنسبة لشاب مراهق في مثل سنك لن تفهم هذا ولكن تخيل معي للحظة أنك أنت وسالم أصدقاء؟! حلفاء؟! من سيتضرر؟! أعتقد أنك لست ذكياً كوالدك بخلق المشكلات بين أقوى منافسيك لتبقى متربعا على عرش تجارتك

المزدهر؟! كيف تعتقد أن والدك يسيطر على عالم الأموال والتجارة؟! انه يفتت منافسيه ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ويثير بينهم النعرات وينشر بينهم الجواسيس والإشاعات كي يشغلهم عن الطموح بعرشه...أنت وسالم قوتان كبيرتان في المجتمع...مسموح لكما أن تتنافسا بينكما على كل شيء ما عدا السلطة المطلقة...اقتتلا وأضعفا بعضكما البعض ضمن سقف طموح مرسوم لكما بدقة...أما الإنتقام فقد علمتني الحياة أنه استنزاف للروح والجسد، ربما لا يكون بإمكانك أن تحب الجميع ولكن الكراهية لن تجلب لك السعادة ، ولا تنسى أن الحقد مثبط للنجاح وهذا ليس كلاماً مثالياً ولكنه مجرب فالوقت والجهد الذي تقضيهما في الكيد لأعدائك ومراقبة تصرفاتهم هو على حساب خططك الخاصة لنفسك ولأهدافك وأحلامك...لا تنافس إلا نفسك ففي آخر الطريق لن يبق معك أحد سواها وعندها ستبدأ بالبحث عن اجابات لأسئلتها عما حققتما معاً أما الآخرون فهم عابرون...الجميع عابرون وليس لهم الحق في طرح الأسئلة...فقط نفسك هي من لها هذا الحق لأنها الوحيدة التي رافقتك طوال حياتك..أما أنا في شبابي فلا أخفيك أنني كنت ثائراً مثلك، كنت مجنوناً لا أعرف الحدود ولكنني أزعم أن أحد لم يكن يجرؤ على تسميتي بالطائش الأرعن ولا أذكر يوماً أنني كنت أعتدي على أحد دون وجه حق...لم أكن وحدي كذلك بل كنا جميعاً نبحر في سفينة واحدة من التنافس الشريف، نعم كنا نقتتل ولكن على أهداف سامية وكانت تراودنا أيضاً تلك الأفكار الحاملة حول اعتزازنا بأنفسنا وتمسكنا بأحلامنا ولكن لم تكن هناك فئة تسعى لبسط سيطرتها على الفئات الأخرى، حتى في

تشددنا وعنصريتنا وتحيزنا فقد كنا نضع الوطن نصب أعيننا فكان كل واحد منا يعتقد أنه يجب الوطن ويغار على مصلحته أكثر من الآخر، هذا ما كنا نعتقد، لم نكن نتقاتل على أشياء سخيفة، وفي النهاية فقد كنا نتحاور بشكل راقٍ...

-هذه المرة الثالثة أو الرابعة التي تذكر فيها هذا المصطلح! فهل ترى أننا اليوم نقتل مخالفنا أو ننكل به؟!

-ليتكم تفعلون!!! فهكذا تكونوا صريحين ومباشرين ولكنكم أجبن من ذلك! أنتم تستخدمون أساليب رخيصة للنيل من مخالفكم واطهارهم بصورة مخزية، تتصيدون أخطاءهم وتنشرونها على أوسع نطاق وهذا للأسف كان استخداماً خاطئاً للتكنولوجيا في حين كان عليكم أن تستخدموها لتتحدوا وترتفعوا بتفكيركم عن الفروق الطفيفة من أجل الوطن...

لن أقول أن هناك فنوناً للحوار ولن أقول أن له أساليباً وطرقاً للدخول فيه والخروج منه بأكبر المكاسب لأن الإنسان العاقل لا يدخل حواراً الا وهدفه الاستفادة من الطرف الآخر أو اقناعه بأفكاره أما أولئك الداخلون فقط بهدف (نطح)المحاور الآخر، أو الانتصار عليه وسحقه وبادته بل والنيل من شخصه وصفاته الجسدية والعقلية فهم أولاً بحاجة الى جلسات نفسية مطولة كي يتخلصوا من رأسهم الذي يكاد يثبت أن داروين على حق في زعمه أن أصلنا قرد.....

سأترك الحديث عن هذه الفنون على فرض أن اتقانها يتطلب درجة عالية من مستويات التعليم والادراك والفهم منقطع النظير وسأتحدث بأسهاب شديد عن مفهوم بسيط جداً اسمه (أدب الاختلاف) ولن أنطلق بالحديث عنه من منطلق ديني أو عقائدي أو فكري أو أو أو، ولكن فقط من زاوية انسانية لا تحمل تحيزاً لجهة أو فكر فأدب الاختلاف في أبسط قواعده يفترض منك أن تحترم الطرف الآخر وما يحمل من أفكار متطرفة أو بعيدة عن أفكارك ومجتمعك وبيئتك احتراماً جدياً واضحاً لأنك أنت تحترم نفسك فعلى الأقل كما تطلب منه احترام أفكارك احترم أنت أفكاره، بل حاول قدر استطاعتك مد الجسور المشتركة فيما بينكما حتى يصل الطرفان الى الاتفاق على نقطة ينطلق بعدها كل واحد منكما بالحجة والبرهان والدليل الواضح محاولاً تقريب الثاني الى طرفه.....

الأمر الآخر الذي يثير السخرية في حوارات البعض (للأسف بعضهم مثقفون) هو أنه لا يستطيع التمييز في هجومه بين الشخص نفسه والأفكار التي يحملها هذا الشخص! فعندما تخذله حجته الضعيفة يسارع الى النيل من محاوره وصفاته الشخصية التي لا تعبر عن أفكاره التي يدافع عنها بأي شكل من الأشكال.....أدب الاختلاف يعني أن لا تجرح أو تُسيء أو تشتم أو تخطئ بحق من يخالفك الرأي فقط لأنه يخالفك الرأي! ! ويعني أيضاً أن العالم جميل وواسع وعقلك أوسع من

هذا كله فاذا كنت ترى أن العالم يتسع للصالح والفاجر والبار والعاصي والجميل والقبيح والعصبي والهادئ والمتطرف والمعتدل، فان حجرة واحدة من دماغك تفكر بهدوء تتسع لهؤلاء وآلاف سواهم من الأضداد الكثيرة في العالم.....

بقي أن أقول أن طريقة التفكير المشوهة التي يجيدها البعض لا تضر سواء بل انها تجعل منه مع الوقت انساناً منطوياً على ذاته، خائفاً من محيطه، ساخطاً على واقعه، على العكس من الأشخاص الذين يمتلكون القدرة الفائقة على احتواء واستيعاب جميع الأضداد مهما بدت متشددة وعنيفة في الدفاع عن مبادئها فانهم الأكثر سعادة في الحياة وسر سعادتهم أنهم مطمئنون أنهم يطرحون ما يملكون بأسلوب هادئ متزن مشفوع بالحجة والبرهان، أما ما يحدث في العالم بعد ذلك فلا يعينهم فليست مهمتهم فتح رؤوس الناس وحشوها بالمعلومات بقدر ما هي مهمتهم اقناع الآخرين (تلقائياً) بأنهم سعداء فالناس دائماً ومنذ عصور تبحث عن السعادة فكن متأكداً أنهم سيقترّبون منك أكثر عندما يرون هذه السعادة بادية في وجهك وجسدك وعقلك وروحك...

ربما يبدو لك أنني أطلت الحديث عن الحوار ولكنه مخرجنا الوحيد من هذه الأزمة التي نعيشها، لأنك لا تستطيع أن تتعلم كل ما في الكون من الكتب أو وسائل التعليم التي باتت تنتشر بكثرة أيامنا هذه، انك لن تتعلمها إلا من

الآخرين ومناقشتهم ومحاورتهم فهي الوسيلة الوحيدة التي بإمكانك أن تنقل فيها تجربة الآخرين ومعرفتهم إليك ورفع حصيلتك المعرفية وبالتالي قدرتك على الاستمرار والنجاة في هذا العالم...

- وهل ترى أنت أن هذه الصفات لا تنطبق علينا؟ وأنا لا نجيد الحوار وأنا....

- الحقيقة أنني شهدت البارحة حواراً ممتعاً... لقد تناقشنا أنت وسالم بكل تحضر وأناقة.... وقد خرجنا بالكثير من الدماء والجروح... آسف أقصد القوانين والنظريات!

- وهل ترى أن هذه الوحوش يليق بها الحوار؟!

- لقد كانا يحاولان سرقتي فالأمر برمته لا يعينك، هل طلبت مساعدتك في الدفاع عني؟!

- وهل عليك أن تطلب مني ذلك؟! نحن نصر المظلوم وندافع عن الضعيف! نحن فرسان شجعان نخوض المعارك دون تردد!

- هذا بالضبط ما أتحدث عنه، لقد تم زراعة هذه النزعات بينكم حتى أصبحت تعمي بصيرتكم! أصبحتم تتفاخرون بأحسابكم وأنسابكم وترددون هذه الكلمات الرنانة الكبيرة حجماً الصغيرة معنى وعمقاً أن أسيء استخدامها أو استخدمت في غير موضعها، والله ان هذا الجهل بعينه، تدعون أنكم تطورتم

وتقدمتم وأنكم تنبذون الماضي المتخلف وعند أول اختبار يعود كل واحد منكم إلى عائلته وقبيلته ويحتمي بها ويبدأ بالافتخار بها وهجاء القبائل والأحزاب والأفكار الأخرى!! أسوأ ما فينا أننا نأخذ تجارب الآخرين كما هي ونريد أن تنجح في بيئتنا بنفس الطريقة! اختلاف البيئة يتطلب منا عندما نحاول نقل تجربة جماعة أخرى أن ندرسها بعناية ونقارن بيئتنا ببيئتهم ثم نأخذ ما يناسبنا ونترك ما لا يناسبنا أو يليق بنا...أما نحن وللأسف فنختار ما يداعب عواطفنا ويشبع رغباتنا ونرتديه ثم نقنع أنفسنا أنه ملائم لنا!!! يخرج أحدكم ليدرس في إحدى البلدان الأوروبية فيعود بعد عدة سنوات يلعن العرب والمسلمين ويدعوهم للخروج عرة في الشوارع ليصبحوا أشخاصاً يحترمون الوقت كما زملائه الذين كانوا ينتظرون معه الحافلة باحترام أثناء دراسته في تلك العاصمة الأوروبية!!! ما هكذا تورّد الإبل! لم تصبح هذه الشعوب فجأة تحترم الوقت والعلم، ولا وعلاقة لدينهم بنجاحهم الدنيوي، وهم ليسوا جميعهم أصحاب خلق رفيع وثقافة عالية وليسوا جميعهم عكس ذلك، هم مجتمع مختلف تماماً عنا ، يمكن أن ندرسهم كمجتمع ونتعلم منهم ما يفيدنا وما يتلاءم مع قدراتنا واستعداداتنا...وهكذا نعود إلى المربع الأول وهو عدم اطلاق التعميمات أو الأحكام المسبقة والتريث، والأهم أن يعترف أحدنا وعن اقتناع كامل إذا وجد الحقيقة أنه كان على خطأ وأنه سيلتزم بالصواب...

قد ترى أنني أثقلتك وأبناء جيلك بالنقد والتجريح ولكنني والله ما فعلت هذا سوى لأُملي الكبير بكم فجيلي وقع بأخطاء فادحة ربما تتجنبوها بوعيككم المبكر وانفتاحكم على العالم بكافة أطرافه بعد أن جعلت منه وسائل التواصل قرية صغيرة يعرف كل أبناءها أخبارها وأسرارها... قد أبلغ قليلاً في تفاؤلي فأنا أبحث عن رجال حقيقيين لا يباي أحدهم بحمل المسؤولية مهما ثقلت...

يقول خليل مطران: ما كانت الحسنة ترفع سترها لو أن في هذي الجموع رجالاً! استلطفت هذا البيت كثيراً فيا حسرة على زماننا هذا الذي لم تعد فيه الرجولة الا ضرباً من الخيال وأصبحت الميوعة والتملق هي الصفات الأكثر طلباً بين حشود الشباب الذين أخاف أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قصدهم بمحدثه المشهور عن أننا سنكون مثل غطاء السيل وأن الله سينزع من صدور أعداءنا المهابة وسيقذف في قلوبنا الوهن وهو حب الدنيا وكرهية الموت....

هل نعيش فعلاً(أزمة رجولة)هل نفتقد عنصر الذكورة في مجتمعاتنا؟ هل بات التحدث عن رجل حقيقي(غير متلون)محض خيال؟ لماذا علينا أن نبذل على الأقل عشر أفئدة في اليوم الواحد لنتمكن من العيش بهذا الواقع المؤلم؟ يقول علي بن أبي طالب: لا خير في ود امرئ متملق، حلو اللسان وقلبه يتلهب/يلقاك يحلف أنه

بك واثق، وإذا توارى منك فهو العقب/يعطيك من طرف اللسان حلاوة، ويروغ منك كما يروغ الثعلب.....

لي موقف شخصي من المنافقين أو كما أسميهم (عديمي الثقة بأنفسهم) أولئك الأشخاص الذين لا يثبتون على موقف ولا يؤيدون رأياً أو يعارضونه! انهم ببساطة لم يجدوا أنفسهم بعد! هم يخشون مواجهة أنفسهم ومحاورتها حول الحقيقة الأزلية: من أنا؟ لا أحد تراه بعدة وجوه يمتلك الشجاعة الكافية ليعرف هدفه في الحياة أو على الأقل سبب وجوده في هذا المكان وفي هذه اللحظة.....

يحصّر علم النفس الأشخاص المبتلين بهذا المرض بعدة صفات منها: مهزوز ، متردد متعدد العلاقات الغير دائمة، يسعى الى اقامة علاقات واسعة خاصة مع الجنس الآخر ولكنه لا يكون بامكانه الاستمرارية فيها لفترة زمنية طويلة....أما الأسباب القابعة خلف هذا التعدد فمرده عدة أسباب علماً بأن الاحتياج للتعدد بحد ذاته ينقسم إلى عدة مستويات وهي الجسدي والعاطفي والعقلي والروحي ولكن الأسباب ذاتها في كل مرة وهي ١: النرجسية، ٢: الكراهية الكامنة لأحد الوالدين، ٣: الرتابة والملل، ٤: طبيعة الرجل التعددية، ٥: ميول سادية، ٦: دوافع أوديبية.....

يقول العلماء أن التعدد سواء بالعلاقات أو تعدد الشخصية داخل نفس الجسد قد يتطور الى حالات هستيرية أو سيكوباتية او عدوانية أو بغائية او عدوانية أو دونجوانية الخ ولكن هذا كله كلام علمي جامد عار عن الصحة ان لم نقارنه بما يحصل معنا في واقعنا المعاش وفي محيطنا ومجتمعاتنا وداخل أسرنا وأماكن عملنا لنجد أن هناك على الأقل في كل مكان عمل يجتمع فيه أكثر من ٥ أفراد تجد أحدهم يشكو من هذه الأعراض وتجد شخصاً نشيطاً بالعادة مفعماً بالحياة ولكنه قليل الانجاز يغضب بسرعة ويهدأ بسرعة يصعب عليك أن تتأقلم معه بفترة وجيزة فمزاجه متقلب يغلب عليه أحداث(الليلة التي سبقت صباح العمل)..

دراسة الطبائع الانسانية مهمة صعبة وتحتاج الى درجة عالية من الاحتراف والموضوعية بنفس الوقت على الرغم من متعتها وأعترف أنني قابلت أشخاصاً يجيدون تحليل الشخصية من نظرة العين مع أن المؤشر الأكبر لكشف الشخصية يكمن في(زلات اللسان)التي يقع فيها كثير من الناس فهي كفيلة بوضع تحليل كامل للانسان الذي ارتكبها ولعل أجمل ما قرأت في هذا المجال السلسلة الرائعة والمذهلة للفيلسوف الروائي الفرنسي بلزاك(الملهة الانسانية) بل انني قضيت فترة غير يسيرة من عمري متأثراً بهذا الكاتب... لا يبقى لدي سوى وصية رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام التي كان يجب أن أبدأ بها كلامي عن شباب اليوم(لا تكن امعة) أما وصيتي أنا فهي ان لكل انسان تصوره الخاص وعليه أن لا يذوب في أفكار الآخرين ويكون فريداً في طرحه مميزاً في أسلوبه فهو بشر ليس مثله بشر.....

-ولكن هذا الحديث الذي ذكرته ضعيف!

-ألم يلفت انتباهك من كل هذا الكلام الذي جف ريشي وأنا أكلمك به سوى أن هذا الحديث ضعيف؟ لماذا لم تأخذ معناه فقط؟ لماذا لم تعتبره حكمة وتضعها ضمن سياق الحديث وتبعد عن نفسك الشك بأنني ذكرته هنا لأهدم قواعد الدين؟!

-ولكن هذا دين، إما أن تخوض به بقواعده وأسسهِ العلمية أو تتركه للمختصين، ولماذا لم تأت بحكمة تتحدث عن عدم الذوبان بالآخر وتبتعد عن الشبهات بالكلية؟ أم أنك تعرف أثر الدين على المتلقي وأنتك من خلاله تستطيع إيصال ما تشاء من أفكار إذا كانت مغلفة بغلافه؟!

-عدنا إلى كيل الاتهامات العشوائية والبعد عن الهدف الأساسي للحوار، حسناً لنحذف هذا الحديث الذي كنت أتوقع أنه صحيح من النص ونعتبر أنه لم يذكر، أنا أعتذر ان عجزت عن إيضاح وجهة نظري، ما كنت أقوله ببساطة أن على الشاب أن يكون مستقلاً ولا يسمح للتيارات المتلاطمة بجرفه معها وحمله إلى حيث تذهب فقد تكون الوجهات الأخرى غير مناسبة له وقد يفوت الوقت قبل أن يكتشف ذلك...

-وأنا أقول لك أن الإصلاح لا يكون بخطأ، مهما كان هدفك سامياً فإنه إذا فقد المصدقية أصبح غير مؤثر وغير مقنع بل أنك تضع العثرات أمام دخوله إلى قلب الشخص الجالس قبالتك مقتطعاً جزءاً من وقته للإنصات إليك...ثم ان الدين

الإسلامي فيه من الأحاديث والحجج القوية والبراهين ما يكفي ليثبت ما يريد اثباته وليس بحاجة للاستعانة بأدلة ضعيفة فهذا يظهره بمنظر المستجدي الذي يحاول جمع أكبر عدد ممكن من الأتباع حوله سواء كانوا يعون ما دخلوا به أم لا... صاحب الحجة الدامغة واثق بنفسه يقدمها بثقة وهدوء ويناقش ما يتعلق بها بصوت منخفض باستخدام كلمات واضحة ومباشرة وبسيطة...

- وهل هذا ما كنت تحاول تطبيقه عندما تشاجرت مع سالم؟ أو من خلال خلافاتك التي لا تنتهي مع عائلتك؟ أو ربما من خلال تعاطي المخدرات وشرب الكحول بأنواعها؟!

- لا لا لا هل سمعتني أتحدث عن التأثير بالآخرين؟! لست أهلاً لذلك مطلقاً ولا أطلب من أحد أن يقتدي بتصرفاتي فأنا أعرف أنها سيئة ولكنني لن استمع لنصيحة رجل يستخف بعقلي ولا يحترم قدراتي بل عاكس ستكون ردة فعلي معاكسة وسأعارضه بسبب أسلوبه وطريقته المستفزة التي لم يعد أحد يستخدمها... إن البشر أنواع وفئات لا يمكنك أن تخاطبهم جميعاً بنفس الخطاب!

- إذن أنت مستعد للجلوس والاستماع والمشاركة في اجتماع ثقافي يناقش المشاكل الإقتصادية التي تهددنا؟!

- هذه نقطة مهمة أخرى فأنتم تتهمون الشباب دائماً بالطيش وعدم الإكتراث وعدم القدرة على تحمل المسؤولية، نعم مستعد ، ولدي أفكار وحلول أقدمها ولكن من يستمع لشاب في الصف العاشر الأساسي؟؟! أنتم زرعتم فينا الخذلان

ونحن ارتحنا لذلك فضاغت لغة الحوار بيننا واتسعت الفجوة... متى كانت آخر مرة تعتقد أن أبي سألني فيها عن رأيي بشأن يتعلق بتجارته؟! مرة تجرأت وأخبرته أنني غير مطمئن لأحد شركاءه الذي كان يتردد كثيراً على منزلنا، ماذا تتوقع أن ردة فعله كانت؟ لقد سخر مني ونعنتي بالأحمق وقال لي : أيها الغبي ما أدراك أنت بعالم الكبار؟ إذا كنا سنطرد كل شخص لا نطمئن له فسنصبح وحيدين مفلسين بل ربما نضطر لبيع المناديل على الإشارات الضوئية، أنصحك بأن تذهب لإكمال لعبتك الإلكترونية مع أصدقائك... أعرف أنني لا يمكنني الحكم على الأشخاص من مظهرهم أو من اطمئنانني لملامح وجههم وابتسامتهم ولكن لا بد أن هناك طريقة ألطف ليخبر بها الأب ابنه أن هناك أموراً أكبر من أن يفهمها وأنه عندما يتقدم بالسن ويملك الخبرة سيعرف أن والده كان على حق وأنه يحبه ويتمنى أن يراه رجلاً يساعده في أعماله... المضحك في القصة أن هذا الرجل سرق من والدي نصف مليون وغاب دون أن يترك أي أثر خلفه!! لا أقول هذا لأظهر الشماتة بأبي ولكنه كان متسرعاً في حكمه علي وعلى الرجل، وأنا عن نفسي قطعت على نفسي عهداً أن لا أقدم له أية اقتراحات تتعلق بالعمل حتى لو رأيته يخسر كل شيء... لأن سخريته تركت في نفسي مرارة لا تنسى...

- لا بد أنك قرأت قصة بلقيس! هل تفكرت يوماً بتسلسل أحداثها؟! قيل أهكذا عرشك؟ قالت كأنه هو! قيل لها ادخلي الصرح! فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها! قال انه صرح مرمرد من قوارير! ! بين النظر والإدراك واتخاذ القرار مسافة

شاسعة قد تكفي لإنقاذنا من الخطأ لكن بعضنا بتسرع وغباء يختزلها بثوان معدودة!

-أنا مختلف جداً عن أي...لا يمكنني أن استمر في نقاش معه لأكثر من دقيقتين...لا نتقاطع في شيء، أشعر بأننا من عالمين مختلفين تماماً...

-لا شك أننا نعيش عصر الخروج من الجلايب، فليست الفتاة وحدها من تريد الخروج من جلباب أبيها! بل الأب أيضاً يريد الخروج من جلباب الحزب، والأمة كلها تريد أن تخرج من جلباب أمريكا، ولكن لم يفكر أحدا بهذا الجلباب الذي يريد أن يرتديه؟! ما قياسه؟ ما لونه؟ ما نوع خيوطه؟ فبالأكيد لا وجود لجلباب خارق يتحول إلى الموصفات التي تلائمنا تماماً بمجرد ملامسته لأجسادنا! ووسط هذا كله نعيش كلنا على أمل هذا الحلم...

-أنا واحد من ثلاثة على الأقل فوق كوكب الأرض يؤمنون بأن العظمة تمر بثلاثة مراحل: غضب، فتعصب، فإيمان....

-عظمة طويلة أو قصيرة أو مسطحة؟ قال الشيخ عبارته هذه بصيغة المزاح ثم ابتعد برشاقة عن مكان استلقاء أحمد قائلاً: لا أعتقد أنك تستطيع صفعي من هذه المسافة وبهذه اليد الملفوفة!

-وأنا لم أعتقد أنك تلقي هذا النوع من النكات العصرية! فاجأتني وأضحكتني!

-موقف ساذج لا معنى له يسرق ثوان عفوية من حياتنا شيء لا بد منه بين الحين والآخر كي لا نفقد قدرتنا على تحريك شفاهنا وفكوكنا السفلية مبتسمين... رغم أن الشيخ قال هذه العبارة وهو يضحك إلا أن أحمد أحس أن الشيخ لم يضحك منذ زمن طويل...

تابع الشيخ قائلاً: حسناً، سأتركك الآن لترتاح، إذا استيقظت ووجدت نفسك تشعر بالملل فستجد في تلك الزاوية مجموعة من الكتب والأوراق بإمكانك أن تسلي نفسك بها حتى أعود إليك...الأوراق كتاباتي أما الكتب فأطلبها من بعض أصدقائي الذين يزوروني بين الحين والآخر لشراء الحليب وتقديمه مبرداً في مناسباتهم ولولائمهم الفاخرة....ذكرني أن أريك شيئاً حقيقياً حالما تستطيع السير على قدميك...تصبح على خير

-يا عم ! يا عم!

-نعم يا أحمد

-أعتذر عن الفوضى التي سببتها لك...أعدك بأن أعيد لك جميع أغنامك، وأن يأتيك سالم راعماً طالباً منك العفو...

-حسناً حسناً لا تشغل تفكيرك بهذا الآن...أنت بحاجة للراحة الآن...حاول أن تنام جيداً فهذا مهم في سرعة علاجك...



روح الذكريات

- يبدو أنك تتشافي بسرعة، ربما تتمكن من الخروج غداً من الخيمة ولكن لا تتفائل كثيراً بأن صحتك ستعود لك بشكل كامل قبل أسبوع على الأقل... ولكن جروحك تحسنت بشكل أكبر مما كنت أتوقع...

- ليت الجراح كلها تبرأ بنفس سرعة براء جراح الجسد!

- يالللإحباط الذي تشعر به وأنت لا تزال في ريعان شبابك!

- قد أبدو لك كذلك ولكن الفرق بيني وبين أي عجوز طاعن في السن هو فقط الشعر الأبيض... ان عبارة (لكل بداية نهاية) عبارة في غاية القسوة وان المتأمل فيها يعرف أنها تشمل أيضاً المشاعر فالشعور إذا بدأ فله حتماً نهاية وبغض النظر عن قدرتنا على رسم النهايات الجميلة فان تخلصنا من الشعور بعد استنفاده هو بحد ذاته سكين تركت شرخاً في قلوبنا وذهبت فلا الجرح يبرأ ولا أثر الندبة زائل.....

- اه! دعني أضمن اذن! جرحك سببه قصة حب انتهت بشكل مفعج...

- صدقني أنني لم أتحديث عن هذا الأمر لسواك، لا بد أنك قادر على أن تتخيل ردة فعل الآخرين عندما يسمعون عن شاب في السادسة عشر من عمره يتعلق قلبه بفتاة تصغره بعامين! ليس هذا وحسب! بل فقيرة أيضاً!

-على فرض أن ردة فعلهم ستكون ألطف إذا كان التكافؤ موجوداً!!! لا تقلب علي
المواجه يا صغيري فذاكرتي لا تحتل العودة خمسين عاماً إلى الوراء، لا عليك الآن
سأخبرك بقصتي فيما بعد لا بد أنك ستجد فيها بعض السلوى...أخبرني أنت أولاً
كيف كانت نهاية قصتك...

-لست معنياً بالنهايات فلا أزال مشدوهاً بجمالية البدايات...تلك النقية التي لم
تتلوث بإرادة الإنسان...

-صدقت، دائماً ما نتخذلنا النهايات ويسدل الستار دون أن يعرف أحد من الجندي
الذي تلقى الطعنة في ظهره لتحيا الأميرة بسعادة مع الأمير

-في قصتي لم يتلقى أحد الطعنات سواي، وللأمانة جبي أيضاً تلقى معي بعض
الطعنات ولكنني ظننت أنه لا يموت ولكن من قال إن الحب لا يموت؟ بلي!
تخرقه سكين الطبقيّة فتخرج من أحشاءه مضمخة بدماءه الزكية وتلقيه جسداً
بلا روح...جسداً بنصفين لا يلتقيان إلا بالكوايس التي تظل تذكرهما أنهما
افترقا للأبد...

حببتي الوفية حلاً...إعذريني لأنني دائماً تخذلني الكلمات أمامك، ، ، أما بعد: في
عصر المجنون والجنون وفي زمان الاضطراب والتردد كان علي أن أجد لك إنتمائي

وإخلاصي وإن كنا قد بنينا هذا القصر على أساس متين أهم قواعده أن تسبق أفعالنا أقوالنا وأن لا نكثر من كلام العشق على حساب تصرفاتنا اليومية ولكنني رداً على عتابك الدائم بأنني لا أجد لك وقتاً وسط أوراقي وأني أقدم الآخرين على حبنا فعلي أن أذكرك من تكوينين فأنت يا صغيرتي الورقة التي لا تكتب وأنت القضية العالقة بأسراب الفرح وأنت كل تلك التفاصيل المدهشة التي تطل علي من إبتسامتك المذهلة وأنت قبل هذا وبعده تتربعين على عرش قلبي دون منافس بل أنت الأولى والوحيدة والأخيرة بين نساء الأرض وهذه الحقائق لا يمكنني وصفها لذلك تجدينني دائماً أتردد في الكتابة إليك فاللغة التي ترتقي لوصفك لم يكشف عنها الستار بعد.....

أقسم لك وأنت أكثر الناس الذين يعرفون صدقي إذا أقسمت أنني كلما أشرقت شمس وغابت أشعر برغبة جامحة أن أوقف التاريخ كله ومعه كل بشر وحجر وأخبرهم جميعاً أنني أتنفس عشقك مع جزيئات الأكسجين ولكنني يا حبيبتيلكنني يا حبيبتي كما قال أحدهم متعب بما لم اختره! فحلقي يا نجلاء في سمائي واسكني يا غيداء أوجاعي وأركضي في حقولي دونما وجل أو خجل،،،، وإعلمي أنني لا يمكنني أن أخبرك كيف أحبك ولو استطعت فلن أسمح لبشر أن يطلع على تلك الأسرار التي بيننا ولا يفهمها سوانا ولكن هناك دائماً مزيج غريب من المشاعر أحسه معك يكاد يكون هو السعادة بذاتها كاملة غير منقوصة،،،، ولكن ألم نتفق منذ البداية انكي أحبتي رجلاً غير عادياً يراكي قبائل من الدم

وأشلاء من الحزن؟ رجل سلك طريقاً لا يعرف نهايته ولا بأي طريقة سينهي نضاله نحو المجد والسؤدد؟؟؟ أحبك بطريقة مختلفة وإن كانت متطرفة فهي حبل بالمشاعر والأحاسيس فهذه الرسالة مفادها أنني لا أزال إنساناً وإن كان يصعب عليك أن تري دمعتي ولكنها الظروف يا صغيرتي هي التي حكمت علي بأن أتلقي الصفعات مراراً وتكراراً دون أن أضعف و يحاولون إسقاطي ومع هذا أعاود النهوض!!! كوني متأكدة أنني بحاجة دائماً إلى جانبي وأن انتصاري في بعض جولاتي ما هو إلا بسبب وقوفك معي في أحلك أيامي وأشدّها ظلمة فلا تتوقفي عن مساندتي ودعمني ف(أنا بحاجة)....وأخيراً لا أقصد بهذه العجالة أن تجعلها ورقة تسحبينها في وجهي كلما غضب وجهك الجميل فكوني متأكدة أنها لن تكون الأخيرة فأنا سأعيد ترتيب أوراقك من جديد وسأزيد حصتك اليومية من القراءة لأكثر من ٢٤ ساعة،،،،، أحبك جداً

أمسكت حلا الورقة و طوتها بعناية وضمتها إلى صدرها وانهارت بالبكاء، ثم اتصلت بأحمد جازمة على أن تضع حداً لقصتها معه والتي ترى أنها لن تنتهي إلا بكارثة...ودعته لزيارتها فوراً وقد اعتادت أن تقابله في حديقة منزل والدها الصغيرة

-أحمد، لا يمكننا أن نستمر معاً

-حلا ماذا تقولين أرجو أن تكوني أكثر وضوحاً معي، هل علم أحد مجنونا؟

-أحمد! ليس بالضرورة أن نتنظر حدوث مصيبة! أنا أرى أن نترك بعضنا الآن دون أن يتسبب أحدا بأذى للآخر... لا مستقبل لحبنا... لا أمل له...

-لا بد أنك تهلوسين يا حلا! أنا لا شيء بدونك، وجهك كل ما أملك، قلبي يخفق كلما ذكرت حروف اسمك أمامي، لا لا لا لا لا يمكنني أن أتخيل حياتي دونك، لن أسمح لك بالإبتعاد عني، الكل يواجه مشاكل في بداية حبه لكنني سأقاتل لنكون معاً للأبد، سأحدث مع أبي اليوم ونتقدم لخطبتك...

-أحمد، هل يمكن أن تهدأ وتفكر بعقلانية وهدوء؟! اجلس هنا على هذا الكرسي أمامي لن يراك أحد، فأبي لن يعود قبل الخامسة وأمي ذهبت لزيارة جارتنا، أحمد أنا أحبك وأنت تعرف ذلك ولكنك لا تحبني، قبل أن تغضب دعني أوضح لك مقصدي، أنت تحبني لأنني مستحيلة! لأنني كل ما لا تمتلك! تريد أن تكمل ما ينقصك! أن تضميني إلى مجموعتك الأثرية من الممتلكات الثمينة...أنت تحبني لأنك لم تصادف فتاة مثلي من قبل، يغريك في غرابتي، فأنا لا أرقص في الحفلات ولا أسهر مع الشباب خارج المنزل ككل الفتيات التي تعرفهن! أما أنا فأحبك لأنك أحمد فقط ولكن كيف سيفهم العالم أنني لست طامعة في أموالك؟! أنني لم أضع لك مصيدة لأحصل عليك وأجردك من أموالك وأعوض فقري وشقائي وأنتقم لبؤسي وتعاسقي؟! ألسنا نحن الفقراء دوماً نفكر بهذه الطريقة؟! أحمد! حتى لو تزوجنا وهذا ما يلامس الخيال، كيف سنزيل هذه الحواجز بيننا؟! ان والدي ينادي والدك بسيدي رغم أنه أكبر منه بعشرين عاماً! ان لم يقتلك والدك على تجرؤك

بالحديث عن خطبتي فأبي بالتأكيد سيفعل...نحن عائلة لا نملك سوى كرامتنا وشرفنا وما تنوي فعله سيشعرنا بالنقص لأننا فقراء وسأظهر أنا بمظهر السلعة التي ينوي عبدالله شراءها لابنه الماجن أحمد ارضاء لرغباته!!

-حبيبتى حلا اسمعي جيداً ما سأقوله لك! ربما كان في بعض ما تقولين شيئاً من الصحة ولكنني لا أريدك لأكمل ما ينقصني، أنا أريدك لأنني أراك جوهرة ثمينة وكنزاً لا يقدر بثمن، أنت فتاة أحلامي، ربما بالبداية أحببتك بلا سبب واضح فنحن نتفاجأ أحياناً بأننا لا نعرف أبسط التفاصيل عن نحب فقد احببناهم بلا شروط... ولكن وجدت فيك كل ما أحلم به من عفة وأخلاق وجمال وأدب... لطالما حلمت بمملكة أكون فيها الملك وتكونين أنت فيها الملكة.....أؤسسها أنا على قواعدى الخاصة.....مملكة بلا نساء والمواطنون كلهم مؤلفة قلوبهم، اسمعيني جيداً ان الحب يمر بمراحل النمو تماماً كالانسان يبدأ طفلاً (بحاجة للرعاية) ويمر بالمراهقة (يحتاج للرعاية والاهتمام) ويمر بمرحلة الشباب (يحتاج للمراقبة) ويمر بالكهولة (يحتاج للعناية) ويمر بالاحتضار (يحتاج للاحترام) وأي خلل في تربية الحب خلال أية مرحلة من مراحل نموه ستنعكس سلبياً على بقية المراحل والأشخاص خاصة أنه في مراحل متقدمة سيكون هناك أطراف أخرى متضررة كالأبناء مثلاً....ما يحدث أحياناً أننا نعتقد أن الحب بحاجة

إلى أن نتركه كما نترك الحرية للمراهق ولكن ما يحدث أنه قد يخطئ وحيداً ولا يجد الدعم والمساندة وربما (ينحرف) عن مساره الأصلي ولا يمكننا عندها أن

نعيده لأنه وجد الرعاية والاهتمام عند الآخرين....ان على من وهبه الله حباً صادقاً أن يحنو عليه ويقدم له كل ما يطلب في حدود ما دون (الدلال المفرط) وأن يكون مرناً في علاقته غير متزمت وصلب، وأن يعلم أن هذه العلاقة قائمة على مبادئ وأسس وقوانين وقواعد لا يجوز المساس بها وأن هذه العلاقة كالقلعة الضخمة : منيعة، عتيقة، راسخة، عصية على الاختراق، وفي الوقت ذاته هي غابات من الفرح وسنابل من القمح وأنهار من الأمل والتفاؤل والسعادة بين روحين شقا طريقهما وسط أمواج الحياة المتلاطمة

انظري حولك، أغلب قصص غرام المحاربين لا تنتهي بزواجهم من المحاربات اللاتي واجهن الموت معهم بل من الممرضات اللاتي قمن بعلاجهم، انت فقط من كنت حنونة معي وعاملتني برفق ولم تحاولي استغلالي، كنت تصرخين في وجهي عندما أخطئ ولا تخشين غضبي، لم أقابل فتاة في حياتي تقترب مني لذاتي...أعرف أن العالم لا يمكنه فهم ذلك لأنه عالم مادي لا يؤمن بالعواطف والأحاسيس ولكنني أحسست بقربك بانسانيتي الكاملة، بأنني أخطئ وأصيب، وبأن أموالني لن تشتري لي الحب! لقد ولدت معك يا حلا من جديد...

-أرجوك أن تتوقف عن هذا يا أحمد فأنت لا تدرك ماذا يفعل كلامك هذا بي! أنا لم أقصد أن أقوم بهذه الأشياء، فأنا فتاة بسيطة لا تتصرف لهدف ولا تعني شيئاً بكلماتها، مكتوب لقصتنا أن نموت في مهدها، ما أطلبه منك أن ترأف بحالي ان

كنت فعلاً تحبني فأنا لست حرباً تخوضها ولست طموحاً لتحقيقه ولست ثاراً لتناله!
 أنا إنسانة! كل ما ستفعله أنك ستحطمني وعائلتي وتقضي على مستقبلنا بأكمله
 بسبب طيشك وعنجهيتك! هل تعرف كم بذلت من الجهد كي أستطيع التفوه
 بهذا الكلام؟! لقد دست على قلبي وعطلت جميع حواسي! ولكنني أعرف أن هذا
 الحل هو الأسلم لنا...نحن لا نزال صغاراً والمستقبل أمامنا وربما سيجد كل منا من
 يعوضه عن الآخر وسوف..

-توقفي عن الكذب! أنا لن أحب سواك وأنت لن تحبي سواي، وإذا قررت الحياة أن
 تفرق بيننا فعليها أولاً أن تفرق بين أجسادنا...فقط كل ما أطلبه منك أن تصلي
 من أجلي فالأطفال صلاتهم مقبولة...

-وخرجت ذلك اليوم واتجهت إلى أبي يملأني الغضب وطلبت منه أن يخاطب لي
 حلاً وفاجأني بأنه موافق ولكنه بحاجة لأسبوعين لجمع أصدقائه من كبار
 المسؤولين والشخصيات كي يكون عقد قران مهيب يليق بسمعتنا... من سذاقتي
 صدقته وسارعت بإخبار حلاً التي أغشي عليها عندما سمعت الخبر وعندما
 استيقظت أخذت تلطم على وجهها لأنها لا تملك شيئاً ترتديه لمثل هذا الحدث...لم
 نكن نعرف أن الأسبوعين كانا لترتيب حادث السير الذي سينتج عنه وفاة حلاً
 ووالدها وإصابة أمها بشلل نصفي جعلها من بعد ذلك اليوم المشؤوم تسير على

كرسي مدولب، تبرع لها به أحد المحسنين لأن تقرير الشرطة أكد أن الخطأ كان من والد حلا؛ فعليه أن يتحمل كافة الأضرار المترتبة على الحادث، إلا أن الطرف الآخر وهو شركة تعود ملكيتها لعبدالله محمد تنازل عن جميع حقوقه لوجه الله تعالى، وقد تصدر خبر هذا التصرف الأخلاقي الرفيع وسائل الإعلام لأشهر... هذه هي قصتي باختصار يا عم، ولك الآن أن تتخيل لماذا أكره والدي ولا أطيق رؤيته!

-هل تعرف أمراً يا أحمد! ربما ليس بأفضل نصيحة بعد أن أخبرني بقصتك ولكن أحياناً تكون الأمور ببساطة: لا تلعب بالنار لأنها ستحرق أصابعك...ولكن من يملك الحق للوم شاب وقع في الحب؟ ان الواقع في الحب لا يبصر ولا يمكنه تقدير الخسائر، إلا أن سقوط المرأة في أرض معركة الحب وهزيمتها يكونان مدويان لأن قرار الحب تتخذه المرأة مرة واحدة في حياتها وتستنفذ فيه كل أسلحتها... وهذا ما يبدو أنه حصل مع المرحومة حلا... لا أحد يشك في طهارة قلبها ورغم هذا فالبعض قد يرقبها لمرتبة الشهيدة بينما يضعها آخرون في مرتبة المجرمين بحق نفسها وعائلتها...وهكذا في كل ما يحدث معنا من مواقف، تكون بنظرنا واضحة وضوح الشمس وفي نظر الآخرين قضايا جدلية قابلة للنقاش والجدال الطويل، لهذا نتجنب الحديث عن مشاعرنا أمام الآخرين ونفضل أن نلوذ بأرواحنا وتفسيراتنا كي لا يؤذينا الآخرون بتحليلاتهم القاسية المبنية على خلفياتهم وقناعاتهم المختلفة عن خلفياتنا وقناعاتنا...

-نعم فعلاً، تخيل أن أبي مثلاً شخصية مرموقة في المجتمع ويتمنى الجميع أن يصبح مثلها! ذلك المجرم الحقير!

-أنت لست حاقداً عليه لدرجة أنك تفكر بقتله أليس كذلك؟! وإلا لماذا أطعته بالقدوم إلى هنا؟!!

-لا أعرف ما هي حقيقة مشاعري تجاه هذا الرجل! صدقي! عندما تسابقنا واقترب من الموت شيء ما في داخلي رفض أن يتركه يموت مع أنها كانت فرصة مواتية للأخذ بثأري وبكل سهولة ولكنني بدلاً من ذلك أنقذته! ووجدت نفسي أنفذ وعدي معه! أحياناً أشعر بأنني خير منه فأنا على الأقل أشعر بأن علاقتي معه تبادلية وأحاول أن أرد له أفضاله علي أما هو فلا يرى أنني أقدم له أي شيء وأن علاقته معي علاقة المعطي الذي لا يأمل ولا يعتقد بأن المعطي إليه قادر على رد أي شيء من هذا!

-هذا هو الفرق الذي جعل والدك قادر على قتل حلا بدم بارد...انه موت قلبه!

-لا أشك للحظة بأن أبي ليس له قلب...هل يمكن أن نكتفي بهذا القدر من الحديث عني والانتقال للحديث عنك؟

-هذا ما كنت سأقترحه عليك وان كنت أشك في أنك ستجد في قصتي سلوى لك عما جربته ولكنني أنا أيضاً تتأبني رغبة في الحديث عن نفسي تفريغاً لما يختلج في صدري من أوجاع وآلام...

-أرجوك أن تبدأ فيبدو أن قصتك مأساوية أكثر!

-على العكس يا صديقي فأنا تنمة قصتك لو لم تمت حلاً،،

-لم أفهم!

-أنا أحببت زوجتي قبل أن أتزوجها وقاتلت من أجلها وحصلت عليها، وانتهت بي الحال كما تراني، عندما نتزوج من نخب فهذا لا يعني دائماً أن نحصل على نهاية تاريخية! فالحياة قد تتدخل في أي لحظة لتأخذ منا من نخب...أسوأ ما في الدنيا أن تخاف من اقتراف شيء لأنك تعرف أنك لن تستمتع به....لأنك تعرف أنك لن تشيع منه....لن تمارسه بشغف....في منتصف طريق الحب ستموت حبيبتك فلماذا أحب؟؟

كنت في نهاية العقد الثاني من عمري، لا ينقصني شيء للزواج، في وقتنا لم تكن تكاليفه باهظة ولكنني رغم هذا كنت أمتلكها، في مقاييسنا كنت مستعداً للزواج إلا أنني مسؤول عن اخوتي الذين يصغرونني...ظهرت فجأة، أو لنقل أنها سقطت فجأة على رأسي من السماء! لم تكن تتوافر لدينا تلك الوسائل الحديثة للتعبير عن حبنا ولكننا كنا نتبادل الرسائل الورقية التي لا أزال أحتفظ ببعضها حتى الآن...ولكن كما يقال، أقدس المشاعر ما لم نبخ به، فربما قلت لقبر زوجتي ما لم أجرؤ على قوله له في حياتها...

-هل يمكنك أن تقرأ لي بعضها فيما بعد؟

-بالتأكيد، ذكرني أن أخرجها لك من الصندوق اليوم، ستساعدك على قضاء ليلة أخرى دون ألعاب الكترونية!

-لا أريد أن أقرأها أنا! أريد أن تقرأها لي أنت! استغرب كيف تسمح لأحد بلمس مثل هذه الرسائل؟! لا زلت أحتفظ برسائل حلا في صناديق زجاجية مقفلة بقفل له رقم سري ، هذه الصناديق موجودة في أمانات أحد البنوك السويسرية، لا أحد يستطيع فتحها قبل موتي!!

-يا صديقي أنت تكثر كثيرًا...لا أحد يكثر...ان عشت لفترة أطول ستوقف عن الإكتراث...سأقرأها لك بنفسي ولكن دعني أكمل لك قصتي...

كان مجرد الحديث عن زواجي ضرباً من الخيال، أحببتها لثلاث أعوام دون أن يكون بيننا سوى الرسائل وبعض اللحظات المسروقة الساذجة، كانت نظراتنا تلتقي في المرعى بصعوبة بالغة...

-يبدو من ابتسامتك أنك تتخيلها أمامك

-النسيان بين النعمة والنقمة يظل شعوراً إنسانياً حاداً...في بعض لحظات صراعنا كنت سأعلن استسلامي وأتركها...النظر الى الوراء خطيئة الا إذا كنت تغادر حبيبتك فهو اثم يمنع خطيئة.....كنت على وشك ارتكاب هذا الإثم فقد وصل

التضييق علي لدرجة منعي من الخروج لرعي الأغنام...لا أعرف ما سبب رفض الجميع لزواجنا، هل يكره الناس رؤية الآخرين سعداء؟! كنت أقضي ساعات وساعات محاولاً فهم سبب رفض أعمامي وأخوالي دون فائدة...الفرق الوحيد الذي يجعل الجدران أفضل من البشر في المحاوره وتبادل الآراء أن الجدار قادر أن يوهمك لفترة أطول بأنه يفهمك على عكس الانسان الذي تفضحه ملامحه الأولية،لم يكن أحد يفهمني فقررت أن أخرج عن قوانينهم ، لا شيء يعادل لذة خرق قانون لم تشارك بوضعه.....

ولكن كما يقال سرقة النجوم شيء جميل لولا أنه سرقة...رفضت أن يسرقوا أحلامي فسرقت أم رامي وهربت معها إلى شيخ قبيلة أخرى!

-يا إلهي لم أكن أصدق أن هذا يحدث فعلاً، كنت أسمع عن قصص مماثلة في التراث ولكنني اعتقدت أنها أسطورية لا وجود لها!

-هي تحدث الآن في زمانك أنت أيضاً ان لم تكن تصدق!

-مستحيل! لا يمكن في القرن الواحد والعشرين أن يضطر شاب لسرقة حبيبته كي يتزوجها!

-ويحرمون البنات من الميراث ويأكلون مال اليتيم ويقطعون يد الضعيف ويعفون عن القوي و و و و ما الغريب!؟

- كل هذا العلم والمعرفة لم تنجح في تغيير البشرية نحو الأفضل؟!

- تقصد لم تنجح في اقناعهم ما هو الأفضل، هنا يكون استغرابك منطقياً
فالبشرية الآن حصلت على كل ما تعتقد أنه سيساعدها بالوصول للأفضل ولكن
الأفضل لم يحصل! أين الخلل إذن؟؟؟!

تزوجنا وعشنا معاً 25 عاماً ثم جاء القدر بعد احتفالنا بذكرى اليوبيل الفضي
لزوجنا بعدة أشهر ليأخذ زوجتي واثنين من أبنائي وثلاثة من أبنائهم في حادث
مأساوي حيث كانوا ذاهبين لزيارة ابنتي التي تزوجت في المدينة، لذلك أنا أكره
المدينة ولا أستطيع الوصول إليها رغم محاولات بقية أبنائي لكسر هذا
الحاجز... كانت آخر محاولة كارثية حيث بدأت بالبكاء كالأطفال بمجرد أن لمحت
شارعاً معبداً مضاً على مشارف عمان....

لمعت عينا أحمد للحظة وبدا أنه سرح بخياله بكلام الشيخ رغم أنه لم يبدو على
وجهه أي ملامح تأثر...

- لم أخبرك بقصتي كي أواسيك أو أخفف عنك يا أحمد ولكن فقط لتعرف أن
الحياة مستمرة وبشكل لا يسمح لنا بالتوقف للبكاء واللطم... علينا أن نجاريها شئنا
أم أبينا، أن نصمد في وجهها، تذكر دائماً يا أحمد أن هناك من يراقبونك ويعتمدون
عليك، قوتك تدمهم بالقوة، ابتسامتك تدمهم بالطمأنينة، أي مظهر من مظاهر
الضعف سيجعلهم ينهارون... إذا لم تستطع أن تنهض وتستمر من أجلك فانهض

واستمر من أجلهم... لا شعور يؤلم الإنسان في آخر عمره كشعوره بأنه خذل أحداً
كان يوماً بحاجته... فدعمك لهم هو دعم لك وتخفيف عنك عندما تصل لمرحلة
عمرية تواجه فيها الموت وحيداً...

-والآن هل ستقرأ لي بعض رسائلك لها أم ستخبرني ماذا حل ببقية أسرتك؟
-بالتأكيد سأقرأ لك بعض رسائلي كي لا يكون الحديث عن الموت متواصلاً...

خمسة وعشرون من الحب والزواج... تامة تامة تامة تامة، أذلك كل ما يجمعني بك؟؟
بالتأكيد لا، فما بيننا أكبر من ذلك بكثير، سيذهب تفكيرك إلى أبناءنا الجميلين
ولكنني قبل ذلك سأخبرك أيضاً بأنهم برغم أهميتهم وبرغم التغيير الذي أدخلوه
على حياتنا فإنهم ليسوا فقط الشيء الوحيد الذي يجعل من علاقتنا علاقة مميزة
وفريدة من نوعها، الأمر يتعلق بمشاعر وأحاسيس عميقة يعجز أعتى الكتاب عن
التعبير عنها، أشياء وتفاصيل جميلة جعلت هذه الاعوام الخمسة والعشرين أشبه
بالبحر الكبير الذي قرر شخصان يكاد الجميع يراهن على أنهما ليسا مؤهلين بعد
لخوض البحار ولن يتجاوزا عدة أمتار عن الساحل لأنهما شاب وفتاة في مقتبل
العمر مدفوعان بالحماسة العمياء ولا يدركان مصاعب السباحة وركوب الامواج
العاتية، مغموران بالأحلام الوردية ويؤمنان بقصص الحب الخرافية ويظنان أن
الحياة والمجتمع سيراufان بحالهما وسيصفقان لقبولهما التحدي برغم حداثة سنهما

وقلة

خبرتهما...

هأنخذنا يا حبيبتي بعد خمسة وعشرين عاماً نُجبرهم أجمعين على التصفيق لنا ونبرهن لهم على أننا ومنذ أن قبلنا التحدي والذي فُرض علينا فرضاً من سفهاء العقول ومريضى الأدمغة والنفوس ونحن نكسب ضدهم الجولة تلو الجولة ونطّيح بأفكارهم المثبّطة فكرة تلو الأخرى، كل هذا بالحب والرفق والأناة والحلم وإنهم كلّما زادوا حقداً وكراهية وتربصاً بجنا زدناهم ليناً وصبراً بل وتصبراً، لأننا في موقف القوي وهم كلّهم في موقف الضعيف ولطالما طلبتِ منّي أن أرفق بحالهم وأشفق عليهم فهم لا يعلمون ولأنني لم أعتد أن أرفض لك طلباً وافقت قبل أن نطلق سوياً ضحكة ساخرة تحرق أكبادهم المُشتعلة بنيران كراهية حب الخير للآخرين....

كيف مرّت خمسة وعشرون عاماً كاملة؟؟ سأجيب عنك لأننا كيان واحد ولأنني أعرف ما الذي ستقولينه قبل أن تقولينه ولأنني أجيد ترجمة لغة عينيك بمجرد إيماة واحدة منهما، مرّت بسعادة مطلقة والفضل في ذلك يعود إليك في أغلب الأوقات لأنني لطيشي ولحماستي في قيادة سفينة عائلتنا كدت في كثير من الموجات التي كانت تدهمنا أن ألقى بنا إلى أعماق البحر لولا أنك كنتِ تنقذينا بمهارة فائقة أوقف أنا بعدها السفينة للحظات أتأمل بها قدري الجميل الذي اختارك لي ملهماً وداعماً ومسانداً في هذه الرحلة الطويلة وسط ظلمات بحر لُجي تتلاطم أمواجه يمنية ويسرة تعصف بكل القوارب والسفن التي تعجز عن إيجاد التوافق والتلائم والتناصح-اللازمين للوصول بها إلى شاطئ الأمان- بين قائدها

ومساعدته.....

ان نجاح الزواج ليس مرتبطاً بما تم إنجازه خلال فترة الزواج من انجاب اطفال او تربيتهم أو تأسيس بيت وملئه بالأثاث , وليس مرتبطاً بما يُظهره الطرفان من توافق وانسجام-والذي يسهل معرفة حقيقته ان كان ادعاءً أو تمثيلاً-، ان النجاح الحقيقي للزواج هو مدى ما قطع كل من الطرفين في طريقه نحو الوصول إلى الآخر والإلتحام معه والإتحاد معه لتكوين روح واحد تواجه مصاعب الحياة بقوة وعزيمة وارادة وتنشر في محيطها الحب وتمنح المجتمع أطفالاً أسوياء عقلياً وعاطفياً ليكونوا سوياً مصدر سعادة وأمل وحافزاً لحب الحياة وبث الأمل....

وكم يا تُرى أنا قطعت في رحلتي نحو معرفتك؟ ومتى سأصل؟ هل أبلي بلاءاً حسناً؟ ان احتفالنا اليوم بالسنة الخامسة والعشرين لزواجنا وبجالتنا التي نحن عليها هو دليل كافٍ بالنسبة لي أنني أسير على الطريق الصحيح ولأنني أحب دائماً أن أحاسب نفسي واسأئله عن الأيام الماضية فإنني اجد نفسي مضطراً لتذكير نفسي بجميع المواقف الجميلة وغير الجميلة التي مرّت بها علاقتنا وذلك لدراستها وتحليلها للوصول إلى الأخطاء والسلبيات التي كانت تنغص علينا معيشتنا ومحاولة تجنبها في الأيام القادمة، نعم أنا في كل يوم أكتشف فيك شيئاً جميلاً ولا أخشى من الإعتراف أنني قد أحتاج مئة عامٍ أخرى لأكتشف كل الأشياء الجميلة التي منحك الله إياها وخصّك فيها عن نساء الأرض.

ان نظرة عميقة في هذه الأعوام الخمسة والعشرون تجعلني أبتسم براحة واطمئنان،
 كم ضحكة جمعتنا، كم فرحة ضمتنا، كم اختباراً صعباً اجتزنا بمحنة و ذكاء،
 كم ألماً تصدينا له سوية، كم دمة مسح كل واحد منا للآخر، كم وجعاً
 تقاسمنا، كم شجاراً خضنا، كم اختلافاً للرأي فرقنا، و كم توافقاً جمعنا، كم
 دعوة قبلنا، كم زيارة ذهبنا، كم طعاماً أكلنا، ، حياة كاملة تشاركناها مجلوها و
 مرها كنت دوماً فيها رفيقة درب مخلصه وفيه رضىتي فيها و في كل أحوالنا و
 حالاتنا، بل كنت أشد إخلاصاً في اللحظات الصعبة التي كنا نكاد نصل فيها إلى
 الحضيض لولا سداد رأيك و بعد نظرك و سرعة بديهتك و صفاء و نقاء سريرتك،
 ،،،،

لا أعرف ما الذي أردت أن أخبرك به في هذه العجالة فقد شعرت أنني لم أكتب
 حقيقة ما أشعر به و لكن و على كل حال تذكري دائماً أن نجاحنا في صمودنا و
 وقوفنا جنباً إلى جنب، قوتنا في وحدتنا و نظرتنا إلى قدسية هذه العلاقة التي
 تجمعنا بأنها بيت فولاذي يستطيع التصدي لجميع الهجمات و في الوقت ذاته
 جدرانه الداخلية مطلية بالحب والوفاء والرفق و لين الجانب....

لا توجد مؤسسة زواج تشبه مؤسسة أخرى! لا يمكن على الإطلاق أن تضع
 شروطاً لنجاح الزواج ثم تكون هذه الشروط ملائمة في كل مرة ومع كل الأزواج،

، ، ، فالعوامل التي تتدخل في صناعة الجو العائلي المثالي لا حصر لها ولا يمكن الإحاطة بجوانبها كاملة فليس للزواج الناجح صفات ولا علامات ولا دلائل واضحة أو خارطة طريق....فالحللفية التي جاء منها كل طرف لها دور، والوضع المادي لكليهما له دور، والوضع الوظيفي له دور، والثقافة لها دور، والتربية لها دور، والمجتمع له دور، والكثير الكثير من العوامل المتداخلة المتشابكة التي يزيد وينقص أثرها على نجاح العلاقة بين الرجل والمرأة ضمن إطار الزواج المقدس....ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أمر مهم وهو معرفة كل طرف لما هو مقدم عليه، ، ، وإدراك كل طرف لحقوقه وواجباته البسيطة الأساسية التي لا يمكن بدء الزواج والاستمرار به إلا من خلالها وهي أمور يعلمها حتى أبسط الناس وأقلهم ثقافة وعلماً ووعياً فهي تكاد تكون غريزية وفطرية بالدرجة الأولى.....

أما الشروط الأعلى درجة ضمن منظومة الزواج الناجح-برأي الشخصي البحث- فتتضمن الحب والتفاهم والتفهم والصبر والحلم والتعاون والتحمل والأناة والإحترام المتبادل ولعل ما يجمع بين هذه كلها: اتقاء الله في الطرف الآخر، فمن يتق الله في علاقته مع الآخر سيرى من الطمأنينة والسكينة ما لم يرى في جميع كتب العلاقات الإجتماعية وأسس إنجاحها....لا يوجد زواج خال من المنغصات والمشاكل والخلافات والمشاجرات، بل لا تحلو العلاقة الزوجية إلا بهذه المواقف التي تجعلك تكتشف حقيقة الطرف الآخر فالعشرة هي الطريقة الوحيدة لفهم الآخر

والوصول معه إلى نقاط مشتركة والتعرف أكثر على ما يحب ويكره وما يرضيه وما يغيضه وما يبيكه وما يضحكه...

أعترف بأنني في بداياتي-ولربما هذا حال الأزواج في البداية-كدت أقع في أخطاء جسيمة وواجهت مشاكل لم تكن الحياة علمتني مواجهتها فالزواج يخضعك لتجارب كبيرة ويضعك رغماً عنك أمام مسؤوليات لا يواجهها سواك ، و في الحقيقة لا يمكن لأحد لم يجربها أن يحس بها أو يدرك أهميتها....الحياة قبل الزواج تختلف عنها بعد الزواج بكافة المعايير والمقاييس، والزواج مرحلة جديدة تماماً وإن لم يلاحظ الناس تغيراً جذرياً في تصرفاتك وطريقة تحليلك للأمور فأعلم أنك لم تتذوق الزواج ولم تنل نصيبك منه بعد...

من النتائج الحتمية لإقامة مؤسسة الزواج النظر إلى الأفق البعيد فالأمر لم يعد يعينك وحدك وهنا تظهر على السطح أحاسيس جديدة أغلبها يحوم حول التشاركية وإقتسام الألم والفرح والتفكير ثنائي الرؤى والأهداف ومع ظهور هذه الأحاسيس يظهر بالتزامن معها قدرة كل طرف على استيعاب الآخر والنوبان فيه بشكل كامل بل القدرة على رؤية الأشياء من خلال منظور الطرف الآخر! وفي هذه النقطة بالتحديد يتطلب الأمر تدريباً وتعويداً على فكرة التنازل من أجل الآخر أو تقديم التسهيلات من أجل الدائرة الأكبر وهي دائرة العائلة، ، فلا

يمكن أن يستمر الطرفان كل كما كان قبل الزواج بنفس العناد والتمرد والأفكار الأحادية غير محسوبة النتائج....

لا أعرف ما الذي ساقني إلى كل هذه الأحاديث ولكن علي أن أعترف أنني من القلائل الذين يشعرون بأن الزواج كان محطة سعادة كبيرة ونقطة تحول أكثر من رائعة نحو الأفضل وهائندا أسطر هذه الكلمات عرفاناً وحباً وتقديراً واحتراماً لرفيقة دربي التي شاركتني جميع لحظات الفرح والخوف والألم والتقرب والخطر ولم تكن خلالها إلا الزوجة الصالحة التي وهبني الله إياها لتكون سنداً ورفيقاً وعوناً لي على حوادث الدهر وبيتاً و وسعادة وحباً في اللحظات الجميلة...

-ليت أبي يقرأها...

-يهمني أن تقرأها أنت فأنت مقبل عاز الزواج، أما والدك فهو مقبل على الخروج منه...



روح الخنوع

-انهض أيها العجوز البائس! اياك أن تتفوه بأي كلمة! انهض وغادر الخيمة فوراً قبل أن أطلق رصاصة تفلق جبينك نصفين!

كان الرجل الذي يرتدي اللباس الأسود بالكامل يصوب مسدساً نحو رأس الشيخ النائم الذي لم يكن يع ان كان هذا حلمًا أو حقيقة

-حسناً، حسناً، سأنفذ ما تطلبه ولكن أرجوك أن لا تؤذي الصبي،،،

خرجاً سوياً ببطء وابتعدا عدة خطوات عن الخيمة لم يخطر ببال الشيخ سوى أنها كافية كي لا يسمع الصبي صوت الرصاصة التي ستنتهي حياته...

-والآن بعد أن نفذت ما طلبته مني وتأكدت أنني شيخ كبير في السن هل يمكن أن تخفض سلاحك قليلاً وتزيل هذا القناع عن وجهك لتتحدث بالضبط عما جئت تبحث عنه في خيمة عجوز بائس كما نعتني قبل قليل؟

-كما يظهر على جسد الصبي فيبدو أنك شاب بقدر يكفي للإعتداء على صبي لا حول له ولا قوة...على ما يبدو أنك نسيت من يكون ضيفك؟!

-أعرف ضيفي حق المعرفة وأعرف حق الضيف على مضيفه وإذا أزلت هذا القناع عن وجهك فسيكون شرفاً لي اكرامك والقيام بواجبك...

-أهددك بالقتل وتحاول دعوتي للغداء؟ هل تخطط لقتلي بالسكين التي ستدعي أنك أحضرتها لتقطيع اللحوم؟

-نحن لا نغدر بأعداءنا فهل نغدر بضيوفنا؟! الأمر هنا أخلاقي بحت...

-لا تتجاوز حدودك بالكلام ، هل نسيت من منا يحمل مسدساً؟!

-أن يعطيك أحدهم مسدساً محشواً لا يعني أنه يريد أن يحميك.....هو فقط يريد أن تتعلم كيف تستخدمه.....وتوجهه في المستقبل نحو رأس هو يختاره لك

-هل أنت مجنون يا عم؟!

-تهمة تستحق السير بين الناس وأنت رافع رأسك لحيازتها

-لا أعتقد أنك تقدر خطورة ما تقوم به!

-يا بني كل ما أمتلكه في تلك الخيمة فهل تراه شيئاً أخاف من خسارته؟! لقد تذوقت من الخسارات ما يجعلني أطمئن لما هو قادم مهما كان قاسياً، أنا مستعد للموت منذ خمسين عاماً...

-اذن لا فرق بينك وبين الميت!

-من أهم الفروق بين الحي والميت أن الأول يستطيع الدفاع عن نفسه في حال هاجمته نملة، ، ، ، ، أما أوجه الشبه فكثيرة....

-ولكنني أقوى من النملة بقليل...

-ومع هذا يؤلمني الموت أمامك...أشتاق بصدق الى أولئك المحاربين الذين كانت الخسارة أمامهم شرفاً، أولئك الذين يجيدون آداب الحرب قبل فنون ضرباتها القاضية، أولئك الذين أفتقدهم اليوم حتى أشعر في رغبة عارمة في الابتعاد عن ساحة القتال لأن ليس هناك من يستحق أن تسقط أمامه، ليس لأنني محارب جيد ولكنني أعرف على الأقل أبسط قوانين شرف اللعبة وهي أن ألقى التحية العسكرية على جثة كل من وقف أمامي برجولة وسقط أمامي برجولة، ، ،

جاء صوت أحمد من باب الخيمة وهو يحاول السير بصعوبة للوصول إليهما: لن يسقط أحد أمام أحد....

ركض إليه الشيخ وهو يحاول أن يمسكه قبل أن يسقط، ووصل إليه رغم تهديدات الرجل المقنع له بأنه سيقنتله ان تحرك من مكانه...وما أن استند أحمد على الشيخ حتى توجه إلى الرجل بصوت ضعيف: متى ستتوقف عن هذه التفاهات يا خالد؟

اتجهت نظرات الشيخ مباشرة نحو خالد الذي تسمر في مكانه وأصبحت يده اللتان كأنتا تثبتان المسدس قبل قليل ترتجفان بقوة: من خالد؟! طلب أحمد من الشيخ أن يساعده في الجلوس داخل الخيمة فعادا وجلسا وما لبث خالد أن لحقهما يملأه الإحباط بأن أحمد اكتشفه بسهولة بل عامله باستهزاء أمام الشيخ!

-ما الأخبار بالمدينة؟!

عرف خالد أنه لا فائدة من الاستمرار بالتخفي فأزال القناع عن وجهه وأعاد مسدسه إلى حامله الذي كان يرتديه فوق حزامه مطلقاً زفيراً عميقاً كأنه لا يعرف من أين يبدأ...

-أولاً كيف عرفتني؟! ثانياً لماذا لا تتركني أعلم هذا العجوز الأدب على ما فعله بك؟! انظر إلى نفسك! هل هذا ما أحضرك هنا لتتعلمه؟!

-أولاً أبي من أحضرك فتعلم أن تتوقف عن استخدام صيغة المشي عندما تتحدث عن والدي فمكانتك لن تتجاوز مكانة المساعد فأبي يتخلى عن أصدقاءه بسرعة وإن كان يبدو لك غير ذلك فسأساعد أبي على أن يفتح عينيه جيداً، ثانياً: تعلم أن تتحدث باحترام مع من هم أكبر منك سنّاً فالعم فلاح أكرمني وأنعم علي بخيره وأحسن ضيافتي ، أما كيف عرفتك فهذه كانت أسهل مهمة فحتى أبطال أفلام الإثارة الأمريكية توقفوا عن ارتداء كل هذه الملابس من اللون الأسود!

أخفض الشيخ رأسه ليبتسم فهو لم يتوقع هذا السيل من الردود من أحمد، وبرغم نشوته باتضح الأمور واطمئنانه أن أذى لن يلحق بأحمد إلا أنه لم يرغب بإيذاء مشاعر خالد فحاول أن يهدئ الأمور

-ما رأيكم بكأس من الشاي؟

-استرح يا عم فخالد لن يطيل الجلوس...

-نعم فقد كنت ماراً من هنا وأحببت أن ألقى عليكم السلام...

-ماراً من هنا؟ صدقت فأنت تقضي أغلب وقت فراغك في تفقد أحوال الفقراء في المناطق النائية!

وجد خالد نفسه محاصراً من أحمد أينما اتجه فقرر أن لا يماطل أكثر من ذلك...

-حسناً يا أحمد، الأمور ليست على ما يرام في بيتكم، لا يمكنني الجزم بمدى سوء الأحوال ولكن والدك يعاني من مشاكل في العمل وعلى المستوى الشخصي أيضاً... قلت في نفسي أن وجودك إلى جانبه هذه الفترة مهم جداً كي لا يرتكب أخطاء يندم عليها أشد الندم... ربما أكون مطلعاً أكثر على مشاكل العمل ولكن أنت تعرف مكانتي عند والدك والتي جعلتني أيضاً قريباً من مشاكله الخاصة ولك أكون مباشراً معك فقد حصل شجار كبير بين والدك ووالدتك وأنا أرى أن من الأفضل أن تكون قريبهم لعل ذلك يخفف من حدة التوتر فيما بينهم...

-أشكرك على حرصك على تماسك عائلتنا ولكن ما أريده منك بالفعل أن تعود إلى بيتي وتحضر لي بعض الأغراض التي سأحتاجها من أجل إقامتي هنا فيبدو أنني لن أعود قريباً، إلا ان رأى شيخنا أنني أثقل عليه بإقامتي عنده...واتجه بنظره نحو الشيخ مبتسماً فأشار له الشيخ بيده أن بالتأكيد لا...

-ولكن يا أحمد لم يعد لبقاءك هنا أي معنى فوالدك على وشك خسارة جميع أملاكه وربما إذا استمر بالإنهيـار سيعلن إفلاسه و....

-وعندها ستصبح أنت بلا عمل! أليس هذا ما تخشاه؟ هل أنت قلق على استقرار والدي العاطفي أم على استقراره المادي الذي يؤمن لك ارتداء هذه الملابس وركوب سيارة كسيارتك التي تبلغ صيانتها راتب سنة كاملة في وظيفتك السابقة!

ارتبك خالد وأصبح لون وجهه أقرب إلى لون بدلته السوداء ولم يملك سوى أن ينهض من مكانه متظاهراً بأن الوقت تأخر وأن عليه العودة، سأل أحمد عن الأشياء التي يحتاجها ثم مضى عائداً إلى المدينة....

-لا يمكنني أن أفهم سر تصرفك بهذه الطريقة مع خالد؟ ؟ ؟! وما يعجزني فهمه أكثر خوفه منك! مع أن المفترض أنك أنت الذي يجب أن تخشاه!

-يا عم، خالد رجل محتال وماكر من طراز رفيع! هل تعتقد أن من السهل أن يثق بك والدي؟! خالد بعمره هذا استطاع التقرب من والدي لدرجة لم يسبقه إليها أحد، ولا أشك للحظة أنه ما وصل هذه الدرجة إلا بمكره وخداعه وذكاءه ودهاءه وحيلته... خالد لا يؤمن إلا بالمال والمصلحة، أينما كان المال لحقه، ومهما طلبت منه مصلحته لبي، فلا تعتقد أنه يحترمني أو يحبني، انه فقط يخشى أن أشكوه لوالدي، أنا الغصة الوحيدة في حلق خالد، حتى أمي لا يخشاها فقد أقنع أبي أنها غير متزنة وقراراتها غير سوية وأنها تفرط بأموال أبي وتحاول إفقاره كي لا يكون أغنى منها...

-ولكن ماذا بشأن حديثه عن المشاكل بين والديك؟ ماذا ستفعل؟ هل ستعود وتحاول الإصلاح بينهما؟

-أبي وأمي سيتطلقان قريباً فهما معاً الآن لأن كل واحد منهما يمنح الآخر شيئاً يحتاجه، فأبي يحتاج لزوجة جميلة تظهر معه بالحفلات وأمي تحتاج نقود أبي، كل النساء يعشقن الرجل المخلص الذي يحضر لهن في كل سهرة لؤلؤة جديدة ولكن ان لم يكن مخلصاً...يصبح اللؤلؤ ضرورة....

هما لم يتفقا يوماً على شيء! ومتى يتحاوران حتى يتفقا! بل متى يلتقيان! كل واحد منهما له عالمه الخاص ومصلحه الخاصة، بينهما اتفاق ضمني على أن لا تتضارب مصالحهما وأن يستمر الزواج شكلياً أمام الآخرين، أما أنا فطرف ثالث محايد لا

أحد يكثرث بوجودي، هل تظن يا عم أن موافقتي على اقتراح والدي للبقاء عندك نوع من الفرح لإهتمام أبي المفاجئ بمصلحتي؟! صدقني ان قلت لك أنني أضيق ذرعاً بهذه الحرية المطلقة التي كانت ممنوحة لي منه... كنت أتمنى أن يسألني لماذا تأخرت ومع من كنت ومع من تتكلم وتخرج! كل أصدقائي دون استثناء كان آبائهم يقلقون عليهم إلا أبي كان يظن أن أمواله تغمرني بالحب وتملاً حياتي سعادة...

-إن الأغنياء كأبي جهل لا يمنعهم أن يعترفوا بأنهم فقراء سوى الكبر، فكما كان أبو جهل على يقين بأن ابن أخيه على حق وأنه على باطل، فإن الأغنياء على يقين بأن الفقراء سعداء وأنهم تعساء...

فكن على ثقة بأن أباك يغطي على فقره الداخلي بمحاولة إبراز ثراءه الفاحش أمام الناس، فهو يتفاخر بأملك وملابس أملك ومجوهرات أملك فهذا كله يمنحه نشوة عميقة بأنه يمتلكها كما يمتلك أي قطعة ثمينة أثرية... هو لا يمتلك أحاسيس يقدمها ويفتخر بها فيستعيز عن هذا العجز بمبالغة في تقديم مجوهرات براقية تسر الناظرين وتخدعهم... لا أعرف ما الذي ينتظر علاقة والدك ووالدتك ولكن رابطة المصالح الشخصية لا يمكن أن تدوم فما بالك ان كانت داخل العائلة!؟

-حقيقة لا يهمني كيف ستنتهي فهي لم تعني لي شيئاً جميلاً في يوم من الأيام فلن أحزن إذا افترقا فبقاءهما لم يكن يوماً سبباً في سعادتي...

روح الموت

-صباح الخير يا عم، أعتقد أنني جاهز لرؤية الشيء الحقيقي الذي وعدتني بأن
تريني إياه، لقد قطعت كل هذه المسافة من الخيمة إلى هنا مشياً ولم أشعر بأي
ألم...

-أها، إذن فأنت لا تنسى شيئاً!

-وهل كنت تنوي أن تتركني في الخيمة شهراً كاملاً دون أن تعلمني شيئاً؟ أنا لا
أطبق الجلوس في البيت ليومين متواصلين فما بالك بشهر؟ هيا يا عم أريد أن
أفعل شيئاً، أريد أن أضرب شيئاً! جلوسي البارحة في الخيمة دون حراك أورثني
شعوراً بالقهر والعجز؟

-ههههه هدى من روعك أيها الفتى هل تعتقد أن الحياة كلها ضرب وحركة؟ هل
جربت أن تضرب بعقلك وتتحرك بأفكارك؟

-أرجوك يا عم هل ترى حولك شيئاً يسير بالمنطق؟! الأفكار والنظريات والحقائق
تحتاج لسنوات لإثبات فعاليتها ثم في ليلة وضحاها تنهدم على يد غبي يملك المال
والنفوذ....

-ما تقوله خاطئ تماماً فالفكرة السليمة لا تهدم وإن هوجمت بشراسة والحقيقة أدوم وإن غابت خلف غيوم مؤقتة... ثم أخبرني أين يكمن الإيمان إذا كنا سنستسلم لأول فكرة مشككة؟! يا بني اياك والإيمان المزيف الذي يجعلك تردد ما يردده الآخرون دون قناعة داخلية تجعل منك فرداً مستقلاً بأفكارك قادراً على الدفاع عنها أمام الآخرين، أما أن تقول أنا هكذا ومن لا يعجبه إيماني فليضرب رأسه بالجدار فهذه حماقة تنفر الناس من إيمانك الذي يفترض أنه جعل منك انساناً أرقى وأفضل، انساناً يبحث عن جذب الناس إليه ومشاركتهم أحزانهم وأفراحهم، اجعل قدمك راسخة في كل أرض تدوسها حتى إذا حاول أحدهم نزع أحدكما عن الآخر كانت الأرض أشد تشبثاً بك منك فيها...والآن أخبرني هل يمكنك أن تمتطي حماراً؟

-اعتدت على امتطاء الأحصنة فلا أعتقد أن الأمر سيكون أصعب مع الدواب الأقل رقباً

-ألا يمكنك أن تتوقف عن تصنيف الناس والكائنات؟ ألا يمكنك أن تتخيل الآخرين وتعاملهم إلا عبر هذا السلم الموجود في عقلك؟! هل يعجبك أن يضعك الآخرون في فئة تظن لغرورك أنك بعيد عنها؟ هل يغضبك عدم انصاف الآخرين لك ومعرفتك حق المعرفة؟! انظر لنفسك أيها الفتى! ماذا قدمت في حياتك للآخرين؟ اذكر لي شيئاً ملموساً واحداً لو ذهبت سيبقى الناس يذكرونك لأجله بالخير؟! من سيفتقدك لو مت اليوم؟ انزل يا بني من برجك العاجي وتلطخ بعرق

الفقراء وتمرغ بتراب البسطاء حتى تتذوق طعم الحياة وتعرف أنك برغم كل ما تملك ميت....

شعر أحمد ببعض الخجل ولكنه لم يكن مقتنعاً بما يقوله الشيخ قناعة تامة

-يا عم هل هذه وجهة نظرك منذ زمن بعيد أم أنها تكونت لديك بعد أن فقدت كل ما تملك؟! أقصد هل تواسي نفسك بهذه الأحاديث لأنك لا تملك المال ولا القوة أم أنك تتحدث بها وأنت قانع بها تماماً؟!

-سؤالك منطقي جداً فالإنسان لا يكون صادقاً إلا إذا كان الخياران أمامه وقام بتفضيل أحدهما عن الآخر، هكذا يكون اختياره مبني على قناعته ورغبته وليس هرباً أو عجزاً لعدم قدرته على الحصول على الآخر... وفوق هذا فالإنسان مولع بطبعه بالتجريب بنفسه فهما رددت على مسامعك بأن تصرفاً ما خاطئ فلن تقتنع حتى تجرب بل ربما من الأفضل أن لا أشير لك بأن أحد التصرفين صحيح والآخر خاطئ لأنك ستميل للمخالفة وتجرب الخاطئ رغبة في مخالفة المنوع...ولكن ورغم هذا كله فأنت لا يمكنك خلال عمرك القصير أن تجرب كل شيء قبل أن تختاره فلا ضير من الإطلاع على تجارب الآخرين فهذا يمنحك المزيد من الوقت الذي قد تضيعه في التجربة، القراءة تقرب المسافات أيضاً وتختزل حيوات الآخرين في كتاب قد تقرأه في ساعتين! اجمع وركب وتأمل وراقب ثم اعرض ما توصلت إليه على عقلك فلن يخذلك، ولكن اعلم يا بني أن للعقل حدوداً وطاقة إذا لم تتحراها فسينفجر عقلك وأنت تبحث فيه عن اجابات أكبر

من حدود فهمه... وإذا انفجر ستصبح مجنوناً وتضيع أعظم نعم الله عليك الذي أعطاك إياها لتعرفه من خلالها... هل يمكنك أن تزن جبلاً بالميزان المستخدم لوزن الألماس؟! بالتأكيد لا، والمشكلة هنا ليست فقط بإختلاف الكتل والأحجام بل بإختلاف المكونات أيضاً... الأمر تماماً ينطبق على العقل، هو فذ و عظيم وهائل وسيجييك على أغلب أسئلتك ولكنه محدود، فهو خلق من خلق الله كرمك به عن بقية المخلوقات فأحسن استخدامه ولا تحمله ما لا طاقة له به واعلم دائماً أن محدوديته ليست انتقاصاً من شأنه وأن عدم اشراكه في كل شيء ليس خوفاً مما قد يصل إليه من معرفة بل هو اعتناء به وطريقة استخدام مثلي كي يستمر بعباءه أطول فترة ممكنة... ألا تعتني بأجهزتك الإلكترونية وتعاملها برفق كي تطيل عمرها؟! ألا تبعتها عن كل ما قد يعطلها أو يعطبها؟! عقلك أولى بهذه المعاملة من جهاز لو تعطل وجدت له ألف بديل في الأسواق ما بين نخب أول وثاني وثالث ورابع....

-وهل للمكان الذي نسير إليه علاقة بما حدثتني عنه لتوك؟

-لا، ستعرف عندما نصل...

ركب كل منهما حماراً عرف أحمد فيما بعد أن أحدهما ابن الآخر وسارا مسافة ليست بالقصيرة شعر فيها أحمد بالمتعة لتجربة امتطاء حمار، لو شاهدته أمه لجعلته يستحم عشر مرات قبل أن تسمح له بمصافحتها... لم تستمر متعة أحمد طويلاً فقد وصلا المكان المنشود... مقبرة شبه مهجورة لا يحيطها سور وليس

هناك أي معلم يدل على أن هذا القبر يعود لفلان أو غيره إلا أن هناك قبراً مزدوجاً يبدو أن قد دفن فيه شخصان أو كأنهما ماتا معاً فدفنا معاً في قبر واحد كبير... سار الشيخ بعد أن نزل من على حماره بضع خطوات ثم توقف عند هذا القبر... لاحظ أحمد تغير وجه الشيخ وقرر أن يبتعد ليمنح الشيخ شيئاً من الخصوصية فرغم أن زيارة القبر كانت بناء على رغبته إلا أن أحمد عرف أن الشيخ يرغب في الجلوس وحده مع أصحاب هذين القبرين....

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين... أنتم السابقون وإن شاء الله بكم لاحقون... كيف حالكما اليوم؟ أعرف أنني تأخرت في زيارتكما ولكنني كنت مشغولاً بأمر غريب طراً مؤخراً، لا تشغلا بالكما فالأمر على ما يرام، لم يحدث لي شيء مؤلم بعد غيابكما، أو ربما أكون فقدت الإحساس بعد صدمتي بموتكما وأنا بعيد...أمي!... سأحدث إليك كأنك تجلسين على سريرك الذي لم تفارقيه في سنواتك الأخيرة التي كنت أنا فيها ربما صاحب الحظ الأكبر في المرور إلى جانبه حيث كان جسدك ينهار يوماً بعد يوم...ولاً وقبل أن أبدأ أود أن أعتذر لك عن كل ساعة بل عن كل دقيقة لم أكن راكعاً فيها عند قدميك، أو خادماً تحت إمرتك، أو طفلاً مطيعاً ينفذ الأوامر دون استفسارات، ، ، ، أما الإعتذار الأكبر والذي يشعني كل يوم بالمرارة هو عن تلك الأربعين يوماً الأخيرة قبل

وفاتك والتي كانت الأولى التي أبتعد فيها عنك بهذا الحجم ولكن ما يواسيني أنني أذكر المرة الأخيرة التي شاهدتك فيها قبل أن أسافر وأنت في فراش مرضك الأخير بجسد منك وبقايا روح فسألتك ٣ أسئلة أجبتني عليها برفع إصبعك بالإيجاب، وكانت الأسئلة: أمي، هل أنت راضية عني؟ فرفعتي إصبعك، والسؤال الثاني: أمي هل تسامحيني قبل أن أسافر؟ فرفعتي إصبعك ولم يكن بإمكانك أن تظهرني أي تعبير على وجهك، والسؤال الثالث: أمي، هل تسمحين لي بالسفر إلى المدينة للعمل؟ فرفعت إصبعك....وبعدها غادرت الخيمة وكانت تلك الإيماءات آخر ما شاهدته منك يا أمي قبل أن أعود بعد وفاتك ب٨ ساعة لأجلس إلى جانب قبرك لا حول لي ولا قوة ولم يكن جسدك حينها قادراً على الرد على أسئلتني لا برفع الإصبع ولا حتى بإغماضة عين أو فتحها...فقد كان جسدك تحت التراب....

لم استغرب حينها إجابتك على أسئلتني الثلاثة بالإيجاب فأنت لم تقولي لي يوماً عن شيء(لا) ولم يحدث يوماً أن عاقبتني أو حرمتني من شيء لتصرف أثيت به أو لتصرف لم آتي به على أحسن وجه...كنت سيدة الإيجاب والموافقة على كل رغباتي الطفولية المشاكسة، وكنت دائماً تحثيني وإخوتي على طلب العلم، ، ، كان حلمك أن تشاهدي أبنائك قد تخرجوا ودرسوا في أفضل الجامعات، وحصدوا أعلى الشهادات، كنت تقولين : عيال المدينة بشو أحسن منكوا! كنت تصنعين منا رجالاً في حين لم يلحظ أي منا نحن أبنائك الثمانية وبناتك الخمس أنك كنت تقومين بذلك على حساب صحتك وراحتك وعواطفك وطاقتك، ، ، كنت نهراً

من العطاء لا ينضب! لا تتوقف عجائب منحه وقدراته! لم يشاهد أي منا يوماً دموعك! ولم يلحظ أي منا يوماً من الأيام أمه ضعيفة أو تشكو أو تقول: ليس لدينا! كنت بالنسبة لي العصا السحرية التي كلما تمنيت أمنية حققتها لي، وكلما شكوت لها داء أعطتني علاجه، وكلما طلبت منها حناناً أعطتني أكمله وأوفره وأجمله....

أنا أصغر أبناءك الذكور وإنني أرى نفسي أكثر من استنزف حنانك وعطاءك علماً بأنك كنت تعطيننا جميعاً بنفس القدر ولكنني أرى أنني أخذت منك حباً أكثر وحصلت منك على ميزات لم تمنحها لإخوتي وفي الوقت نفسه كنت أكثرهم إزعاجاً لك وأكثرهم تسبباً بالمشاكل وأكثرهم عقوقاً بك وأكثرهم عصياناً لأوامرك المحببة إلى قلبي بأن أكف عن المشاكسة والتزم بدروسي حتى تشتري لي دراجة هوائية في نهاية الفصل الدراسي إن كنت الأول على صفي مع جائزة نقدية إكتشفت فيما بعد أنك أعطيتي مثلها لكل إخوتي حتى من لم يحصل منهم على الترتيب الأول في صفه....هل تذكرين المعاناة التي كنت أسبابها لك عندما تضطرين لأخذي إلى الطبيب الوحيد الموجود في أقصى القرية لتعرضي عليه مرضي الجلدي الذي ظهر فجأة وأنا في العاشرة من عمري؟!!

أمي! أمي! هل تسمعيني؟؟ بالتأكيد لا! حتى لو كنت تسمعيني فلن تستطيعي إجابتي، ولكن الأمر ليس بيدي فأنا أحدث طيفك كل يوم وأتكلم معك كما لو

أنتك موجودة وأفترض إجابتك على أسئلتني بكل مودة ومحبة كما كنت تفعلين عندما كنت على قيد الحياة، ، ولكن هناك أسئلة طرأت بعد وفاتك وأريد أن أطرحها عليك، فإن لم تحببيني فيكفيني تلك الراحة بأنك استمعتي إلي دون أن تسخري مني كما يفعل كل سكان الأرض سواك أيتها الطاهرة.... ما هو الحزن يا أمي؟ ما هو الضياع يا أمي؟ وما هو الصبر يا أمي؟؟؟ أعرف إجابتك على هذه الأسئلة لو إنك كنت على قيد الحياة! أقسم بالله أنني أعرف أنك تملكين الإجابة وهي أنك ستحتضنينني بكل قوة حتى أنسى الأسئلة والإجابات وكل شيء آخر في العالم...ولكن أين حضنك الآن يا أمي؟ وعلى من أطرح أسئلة أزلية كهذه بعد أن فارق جسدك ظاهر الأرض وسكن باطنها؟! من سيظن أنني لست مجنوناً بطرح هذه الأسئلة؟! لم أعرف يا أمي قبل موتك أن مشاعراً بهذه القسوة ستسكنني!! لم أكن أو من بوجودها أصلاً فقد كان جسدك بالرغم من تعطل أغلب حواسك وتراجع إدراكك لما حولك في السنوات الأخيرة من مرضك كفيلاً بإزالة كل همومي وكانت أنفاسك الضعيفة ورمشة عينك وبقية تمتاتك نوراً يضيء طريقي ونبراساً يشعل دربي وأملأ يغمرني وفرحة تحيط بي....والآن غاب جسدك وغابت روحك وبقي فراشك كما هو يعبق برائحتك كأنك غادرت بالأمس وليس منذ خمسين عاماً! !

زرتني بالأمس كالعادة.... لم أكن نائماً، و تذكرت لسبب أو لآخر أجمل لحظاتنا سوية فقد كان لعلاقتنا خصوصية معينة، وكانت لي مميزات لم يحصل عليها سواي فهناك بعض الأطعمة لم يكن أحد يجزؤ على إطعامك إيها سواي، فتذكرت مثلاً

يوماً من الأيام عندما كنت قد خرجت للتو من عندك إلى بيتي وكان الجميع حولك فرفعت سبابتك وقلت: فلاح! فالتفت الجميع إليك ففكرتها مرة أخرى وتبعتها بحديث غير مفهوم، فحاول الجميع أن يحققوا لك رغبتك ولكن أحداً لم يفهم عليك ما تريدين، فقالوا لك: لقد كان فلاح هنا قبل قليل وقد ذهب إلى منزله، أخبرينا ما الذي تريدينه ونحن سنقدمه لك، فلم تكتري لكل هذه النصائح وإكتفيت بتكرار كلمة واحدة: فلاح ! فلحقني أحد اخوتي وعدت بسرعة فلما إقتربت منك عرفت أنك تشتهين فنجاناً من القهوة وأنت تعرفين أن أحداً لن يوافق على أن تشربي القهوة الحلوة سواي، وأن أحداً لن يستطيع أن يشربك إياها سواي! ! فعارضت الجميع وأعددت لك فنجاناً من القهوة وبردته وأشربتك إياه بملعة فكنت أحمل منه قليلاً ثم أنفخ عليها لتبرد ثم أقربه من فمك وأحمل بيدي الأخرى منديلاً كي لا يتساقط شيء من القهوة على ملابسك.....لقد قصم موتك ظهري يا أُمي...

عندما كنا نجلس سوية كنا نقضي ساعات من الأحاديث وكنت أخلق لك قصصاً من خيالي وأنسج لك شخصيات لا وجود لها ثم أبدأ بالربط بينها حتى تصبح متسلسلة فأقصها عليك وتبدأين أنت بالضحك من سذاجتي وقدرتي العجيبة على الكذب خاصة فيما يتعلق بأن أبي سيتزوج زوجة أخرى إن لم تعودني إلى صحتك، وكنت تقولين بسخرية: ليفعلها! ! إن كان يستطيع! أنا أعرف والدك قبل

أن تولد بسنوات! ومتأكدة جداً من أنه لن يفعلها فلا تحشر أنفك فيما لا يعنيك
وكف عن محاولة الإيقاع بيني وبين حبيبي!!

هل تعرفين ماذا قال أبي عندما زرت أنا وياه قبرك قبل أن أسافر؟! لقد قال بأنه
تذكر المرة الأولى التي غبتي فيها عن الوعي، ويتذكر ماذا قال حينها! لقد قال: لقد
تركنتني في منتصف الطريق يا (مي)!! إذا كانت هذه مكانتك في نظر والدي ذلك
الرجل العظيم الذي وقف شامخاً كالجبل أمام أعني المواقف والتجارب، إذا كان أبي
يحس بأنك تركتيه وحيداً في مواجهة مصاعب الحياة فماذا أقول أنا؟! !

منذ أن بدأت استخدم أداة النداء (يا) في الحديث إليك وهي تستخدم للبعيد، وأنا
أشعر بالضياح، ، كيف سأقرب لك ذلك؟؟ تخيلي أنني رجل يقف وسط غرفة من
أربعة جدران متينة ولها سقف وأرضية مصنوعة من أمتن الحجارة، ، تحميه هذه
الغرفة من جميع الأحوال الخارجية وتقيه شر كل المخاطر وهو يعيش فيها بأمان
وطمأنينة ورفاهية، ، ، فجأة تهب عاصفة قوية وتقتع هذه الغرفة من جذورها
وتدمر جدرانها وسقفها وأرضيتها وتبقيه وحيداً عارياً وسط هذه العواصف
والأحوال والمخاطر.... أنا ذلك الرجل وأنت تلك الحجرة وبذهابك ذهب كل الأمان
وتلاشت الطمأنينة وأصبح ابنك الأصغر تائهاً ضائعاً يجول في الطرقات برغم كل ما
امتلك في هذه الدنيا، ، فكل ما ملكه كان لإنك كنت راضية عنه فقط....

الأمر ليس مرتبطاً بالحزن يا أمي فتأكدي أنني لن أسقط في فخ اليأس فهذا لن يسعدك لو كنت بيننا فقد كنت دوماً تأمريني بالمشاورة والعمل والكد، وتوصيني بالكسب الحلال، والشهادة والعلم النافع، وتوصيني بالصبر والصلاة، فقد تشربت منك كل هذه المعاني وسأحملها معي أينما ذهبت، لقد علمتها لمي واخوتها ، ، ، هل تعرفين أنني سميت طفلي الأولى بإسمك؟ هل تعرفين أنها جميلة مثلك؟ وأنها تحمل عينيك الملونتين اللتين سبق وأن أعطيتيهما لوالدها؟ ااه لقد نسيت أنني أخبرتك بهذا سابقاً! ساحيني يا أمي فقد نالني الكبر... هي الآن أم ولديها أطفال ولكنها تسكن بعيداً عني بسبب ظروف عمل زوجها... سألتني ان كان هذا سيغضبني فلم أعترض فمن حقها أن تبحث عن مستقبلها وسعادتها... أحياناً تأتي لزيارتي... آخر مرة كانت قبل.... قبل... قبل... لا عليك المهم أنها بخير... كثيرة هي اللحظات الجميلة التي لم تشاركيني فيها لأنك كنت هنا وهذا العذر يبدو مقبولاً.... أما أنا فلا أستطيع أن أجد لنفسني عذراً بأنني لم أحضر جنازتك سوى بأنني لم أتمكن من الوصول في الوقت المناسب لبعده القرية التي كنت أعمل فيها وتأخر اخوتي وأبي في نقل الخبر لي... فسحقاً يا أمي لقوانين الفقر والبؤس التي حرمت طفلاً خرج يبحث عن لقمة عيش لعائلته من تقبيل جبين أمه قبل أن يواروه التراب.... كم هو موجه شعور عدم رؤية جسدك الطاهر وأنت بالكفن الأبيض؟! كم شعرت بالضيق؟ كم لعنت الغربة والأموال؟ كم تمنيت أن أدفع كل ما سأجنيه في غربتي من أموال مقابل نظرة واحدة إلى وجهك قبل أن تدخلني القبر إلى الأبد....

هناك نوعان من الصدمة...صدمة مؤقتة عندما عرفت للمرة الأولى، ولا أعرف حينها ما الذي جرى ولكنني أتذكر جيداً أنني كنت متمسكاً فلم يظهر علي أي نوع من أنواع الضعف، ، كيف سيظهر وأنا هنا بعيد عشرات الكلومترات عن جثمانك؟! ماذا علي أن أفعل وحيداً في الغربة عندما أسمع خبراً كهذا لم ولن يسقط على مسمعي أشد منه في حياتي كلها! هل أبكي وسط قرية لا أعرف فيها أو عنها شيئاً؟ ماذا أفعل؟ وسط هذا الدهول ظننت أن الأمر أشبه بالحلم وأني لا أسمع عبر الشخص الذي وصل بعد يومين نبأ وفاة أُمي وأني نائم وهذه كوابيس مزعجة، فخرجت هائماً على وجهي وكان صديقي معي ولم أدعه يلاحظ أي تغير في وجهي فسألني: ما بك؟ من هذا الشخص الذي كان واقفاً معك ؟ ؟ لماذا كانت المقابلة مختصرة ولم تقل فيها سوى: اها؟ حسناً؟ حسناً؟ فهمت؟ نعم، حسناً، ثم طلبت منه الرحيل؟ ...فأجبتته وأنا أغادر: سأعود بعد قليل، وخرجت ليس لدي هدف سوى أن أسمح للهواء بأن يملأ رئتي فأخذت أسير بلا هدى إلى لا مكان، ، ، أوزع أنفاسي بين الشهيق والزفير حتى أحافظ على انتظام دقات قلبي، ، هي العناية الإلهية التي تدخلت وإلا لكان مصيري مجهولاً فشعور العجز عن القيام بأي شيء نحوك كان شعوراً قاتلاً وشعور القيد الذي يمنعي من الركض إلى حيث يمدونك للغسل كان شعوراً فاجعاً! كانت لحظات عصبية شعرت بها أنني ضئيل جداً وأني لا أساوي شيئاً لأنني أعجز عن القيام بأكثر شيء كنت أرغبه في تلك اللحظات....أما الصدمة الثانية فهي التي سأظل أعيشها بالتدريج طوال حياتي

وسأدفع ثمنها ما حييت وهي الصدمة طويلة الأمد التي أعلنت عن بداية حقبة جديدة مختلفة كلياً عن الحقبة التي كنت حاضرة فيها، كأني فجأة إنتقلت من الطفولة والبراءة إلى الكهولة والشيخوخة والحكمة والتجربة....

كنت أجمل شيء في حياتي وكانت الحياة تفتح لي أبوابها كلما دعوت لي، كانت تحدث معي أشياء عجيبة أقرب ما تكون للسحر فقط بعد لحظات من قيامي بعمل يرضيني أو بخدمة أتشرف أنني قدمتها لك....! كانت أموري تجري كالسيل الهادر في كل مكان! لا شيء يغلق في وجهي! ، ، ، كل هذه الأحداث يا أمي لم تكن لتسير بهذا الشكل لولا لقمة كنت أطعمتك إياها بسعادة أو ظفراً كنت يوماً قلمته لك عندما كنت تعجزين عن ذلك، ، هذا كله مقابل واجب كان علي أن أؤديه نحوك فكيف لو كنت أقضي ليلي ونهاري بين يديك؟! ماذا ستقدم لي الدنيا بالمقابل؟! بل ما هو نصيب من يبر أمه- في الآخرة- وينال رضاها قبل موتها؟ ؟ أتممت الماجستير وأنا أعلم في التربية دون أن أشعر بأنني طالب ماجستير، حيث أن وقتي كله كان مليئاً بك أنت يا حبيبتي، ، أنت كنت أعظم شهادة كنت أطمح للحصول عليها، ، فكنت أنشغل بك وكانت الدنيا تنشغل بتحقيق مطالبي، ، كانت تأتيني خاضعة ذليلة لأنني كنت خاضعاً ذليلاً عند قدميك، ، كل هذه العطايا فقط لأنني أحبك، ، هي ربما دعوة واحدة منك كنت ترددينها دائماً عندما كان بإمكانك تحريك شفتيك بكلمات واضحة: روح يا فلاح الله يفتحها بوجهك ويبعثلك ولاد الحلال ويبعد عنك ولاد الحرام.....

من مثلك من النساء؟ أفنيت عمرك في تربيته ورعايته والعناية بصحتي وجسدي وعقلي حتى أصبحت بحجمك مرتين ربما، ، كنت أزداد حجماً وأنت يثقلك المرض، ، كنت تذوبين وأشع، ، كنت تتراجعين لكِ أتقدم! تفعلين كل هذا بسعادة وسرور بل كنت تتمتعين بتقطيع جسدك التحيل كي نأكل منه وننمو ونكبر! أي أم كنت؟ أي عطاء ملكت؟ وأي تضحية قدمت؟ متى كانت المرة الأخيرة التي اشتريت فيها حقيبة جديدة؟ حذاء جديداً؟ متى كانت المرة الأخيرة التي أنفقت فيها قرشاً واحداً لنفسك؟ أنا سأجيبك: لم تنفقي قرشاً واحداً على نفسك، فقد كنا أنا وإخوتي كالألة التي تطحن أي شيء يلقي في جوفها، ، ولما ألقيت كلما تملكين من أموال قدمت جسدك وروحك بكل حب فقط لكِ نصبح رجالاً بالغين عاقلين متعلمين، ولكن للأسف غادرت قبل أن تحصدي النتائج، ، لم تفرحي بأحفادك، ولم تسنح لك الفرصة لرؤيتنا جميعاً على كرسي الزفاف، ولكن إن كان هذا يرضيك أو يخفف عنك فتأكدي أن لك ثمانية من الأبناء وخمسة فتيات يجهرن ويسرون لله بالدعاء لك ليل نهار أن يسكنك الفردوس الأعلى وأن يظلك في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فما قمت به لا تقوم به امرأة عادية إطلاقاً ولا تقواه امرأة عادية، وما تحملته من أجلنا لا تحمله الجبال وتعجز الكلمات عن وصفه، ، ونحن لم ندرك ذلك سوى بعد الهوة التي تركتها خلفك، وذلك الفراغ الكبير الذي حل بنا فجأة بعد غيابك وكأنك كنت العالم بأسره، ، أنت امرأة لا تنسى، وكيف أنساك وأنا كل يوم أحتاجك وأفتقد وجودك؟؟

والله يا أمي لو خيروني بين أن أعلق جميع شهاداتي وجميع ما حصدت في حياتي بل لو أن حياتي كلها جمعت في كتاب ثم خیرت بين حرقها وبين تعليق صورة واحدة لك أكون فيها أقبل أقدامك لأحرق ماضي كله واكتفيت بهذه الصورة للماضي والحاضر والمستقبل.... يا حبيبتي لو تشاهدين دموعي لرأفت بحالي ولكنني أعرف أنها لن تؤذيك ولو كنت أُمامي لأخفيت عنها فأنت لا تطيقين مشاهدة أحد رجالك يبكي ولكن تأكدي أيتها الجميلة أن هذا آخر ما أفكر به الآن وأني لن أوقف إنهمارها مهما كان فهي ملاذي الوحيد ومخرجي من ضيقي وتعاسي التي تحاصرني كلما مر طيفك دون سابق إنذار فيكتم أنفاسي ويثقل صدري....

إلى جنان الخلد أيتها الغالية ورحمك الله وأسكنك فسيح جنانه وجعلك ممن يدخلون الجنة من غير حساب وسابقة عذاب... وأسأله جل في علاه أن يمنحني القوة والصبر لأتمكن من الاستمرار...

كان الشيخ يجلس على حجر فنهض وجلس على الأرض متوسطاً القبر الكبير وموجهاً عينيه اللتين لا زالتا تنهران بالبكاء الذي لم يلحظه الفتى الذي ترك الشيخ وابتعد عنه....

وأنت أيها الطود العظيم ماذا لدي لأخبرك به؟! والدي الطيب....

تحية طيبة طاهرة معطرة لوجهك الأسمر الجميل الذي لا يغادر ذاكرتي،... قد لا توفيك الكلمات حقك بل لن تفيك، لذلك لن اطيّل بها وسأقتصرها على ما تحتاجه الآن أكثر من أي وقت مضى، الدعاء لك بأن يرحمك الله ويسكنك جنانه.... بعيداً عن العواطف الكاذبة والإحساس بالتقصير نحوك فأنا أريد ان أهمس بجانب قبرك همسة منخفضة الصوت كي لا أزعجك، ولكنني أود ان أصرخ بها على الملأ وهي: كَفَيْتِ و وَفَيْتِ.... لست سوى أصغر أبنائك وأحس بانك أحطتني بما لم تحط به جميع اخوتي من الإهتمام والرعاية.... بل لو أنني أقسم سنوات عمرك على عدد اخوتي وانت الذي أفنيت عمرك من اجلنا ووزعت جهدك وعواطفك كلها علينا لوجدت ان لي ما لا يقل عن سنوات عمري من عطائك وحبك وحنانك... لن أستطيع أن أكون مثلك، وان كانت هذه رغبتك، لا يمكنني، فسأحني على هذا التقصير في هذا الجانب... سأدعو لك ليل نهار، لن يكل لساني ولن يمل من الدعاء لك... فهي وسيلتي الوحيدة للتعويض عن تقصيري تجاه مقامك... يا أيها الرجل العظيم! أقسم أنني لا ازال أنظر إليك كما تنظر إلي (مي) ولك ان تتخيل كيف ينظر الأبناء الصغار إلى آبائهم على أنهم عظماء، كبار، جميلون، خارقون، محبوبون،... أنا لم أكبر يا والدي إلا بما علمتني وربيتني عليه.... ولكنك لم تعلمني شيئاً واحداً: كيف يفخر الابن بأبيه، لأنك لم تعطني يوماً شيئاً لهدف او لمغزى، لم تقل لي يوماً: تذكر أنني صاحب فضل عليك.... كنت تعطيني وانا الطماع الجشع وانت الكريم الذي يقطع

من لحمه ليطعمنا... صدّقي والله على ما اقول شهيد أنه لولا رغبتك برؤيتي رجلاً لوددت ان أكرر دائماً أنني طفلك المدلل... سأكون رجلاً ما استطعت وسألتزم بكل ما سمعته ورأيتك منك، بكل ما قلته، بكل ما كتبتك، بكل ما أمرتني به، بكل ما نهيتني عنه،،،،، كيف يوفي الرجال الرجال حقوقهم؟؟؟؟!! لا أقصد ان أضع نفسي ندّاً لك ولكنني أتساءل دائماً كيف أقوم بأفعال توفيك حقك؟! مرة أخرى يقف عقلي عند حاجز معين لا يستطيع تجاوزه في البحث عن اجابة لهذا السؤال.... من شقاء الحياة على الإنسان يا والدي أن تجعله يشترك للأفعال بعد ان يصبح محروماً منها، فانا كنت إلى جانبك لسنوات فلماذا لم استغلها كلها بالجلوس تحت أقدامك الطاهرة؟؟؟؟؟ أعتذر لك عن هذه الجملة فهي بلا معنى ودعك من التفكير فيها وكانك لم تسمعها... لست حزينا فأنت أبي وكفى....

أتذكر دائماً وجهك الجنوبي الذي نالت منه الشمس ما تنال من كل جنوبي يؤمن بأن الأرض لا تعطي إلا من يعطيها، ولا تكافئ إلا من خضب يديه بطينها الطاهر... فأبنيك الصغير يشعر بالحنين إليك وإلى الوطن كلما قابل مزيداً من الغرباء الذين لا يشبهون والده! نعم يا أبي فأنا لا أكذب إن قلت لك بأنني أصبحت أرى وجهك في كل الوجوه لأن لا وجه استطاع أن يبلغ ما لوجهك من وقار وهيبة وشموخ وكبرياء وعزة.....

أبي يا صامداً مثل القلاع ، يا ثابتاً مثل الجبال ، قل لي بالله عليك: هل فقط
 الفتيات يفتتنن بآباءهن؟! فإني مفتون بمجبهتك، بشيبك، بسواعدك، بزنودك،
 بأنفك، بكبرياءك.... كلما حاولت الصمود في وجه موجات الحنين إليك كانت
 تلفحني رياح الشوق جالبة أمامي كل تلك الصور الرائعة لك في مخيلتي، عارضة
 إياها أمامي كشريط يستفز صبري، ، ولعل أقرب تشبيه منطقي لشوقي إليك هو
 كمرريض يحاول طبيب مستجد شق صدره بشفرة غير حادة دون استخدام أي
 أنواع المخدرات....

أبي الطيب...لننته أولاً من الجانب الأكثر كآبة في كلامي ولعلي أمر عليه سريعاً
 لصعوبته على كلينا...رحم الله رفيقة دربك ، أنا وان كنت لم أعش بينكما سوى
 ثلاثين عاماً وهو رقم يبدو صغيراً مقارنة بإخوتي الذين يكبروني ولكنني أزعم
 أنني سمعت بأذني ورأيت بعيني ما يثبت لي بأنكما كنتما من أعظم الأزواج على
 وجه الأرض، ، ، فقد كانت، ، ، فقد، ، ، فقد، ، ، علي أن أتوقف على الفور لأنني
 أخذت على نفسي عهداً قبل أن أبدأ بالحديث إليك بأن لا أجعلك تذرف دموعاً
 واحدة فدموعك غالية...غالية...غالية يا والدي الطيب...وأخاف ان سقطت أن تعبر
 إلى قبر أمي فيتضاعف حزنهما...

لو كان بإمكانني العودة في الزمان إلى الوراء لكنت طلبت منك شيئاً واحداً فقط!!
 أن تكون أكثر قسوة في تربيتي أنا وإخوتي، فأنت كنت تفضل أن لا تقسو علينا

كثيراً، وخاصة عندما كنا نتذمر من نصائحك التي لم نكتشف قيمتها سوى الآن! فإن كنت ندمت على شيء يا أبي فهو تدمري من كلماتك التي لجهلي لم أكن أعرف أنك تريد بها تجهيزي لعالم لا يمكن الاستمرار فيه بسهولة، ، ، أما أنت أيها الرائع فكنت تقدم لنا النصح بطريقة لطيفة وبإبتسامة رجل مجرب لأنك كنت تعرف أننا سنعرف قيمتها عندما نخوض معترك الحياة الحقيقي....

كل كلمة قلتها لي يا أبي أسمعها الآن وأراها بأمر عيني! لم أكن آخذ كلامك على محمل الجد فقد كنت مراهماً طائشاً مملوءاً بالحماسة أعتقد بأنك تريد تقييد حريتي وحرمانني من كل ما أشتي كشاب يريد تجربة كل شيء لوحده وتحمل جميع النتائج وحده على أنه أصبح راشداً! ولكن اليوم يا أبي، وخاصة بعد أن ألقيتني الحياة مباشرة من البيضة إلى عالم الإغتراب فقد أيقنت أن لا أحد على وجه الأرض كان يحسب حساباً لهذه الأيام سواك وحدك فقد كنت تعدني لمثل هذه التجربة وإن لم أكن أنا في وقتها ذلك الطالب المثالي الذي يستمع القول فيتبع أحسنه...

لو تراني يا أبي كيف أبتسم أحياناً بل أضحك ثم أدعوك بقلبي أجمل الدعوات كلما مررت بأشبه رجال وكأني أنذكر قولتك المشهورة تصدح بأذني كأنك تقولها الآن: ((يابا الزلما ما بصير يكون رخو! شد حالك وخليك زلما! يابا الزلما ما بسوي هوشة بس إذا انجبر ولقي حاله بنص هوشة لازم يثبت للكل إنو زلما)) آآآآه يا

أبت، يا رجلاً نبيلاً من الزمن القديم! ليت شباب اليوم يسمعونك، ليتهم يجلسون معك لساعة واحدة حتى تلقي عليهم من ينبوع حكمتك ما يقيمون به باقي رجولتهم التي آلت إلى الخنوع والميوعة والدلال.... كانت ولا تزال نصائحك الذهبية لي ولإخوتي هي النبراس الذي يضيء لي دربي وهي سلاحي في وجه المواقف والتجارب التي أمر بها كل يوم....

لم أرى في حياتي ولم أقابل معلماً لديه أسلوبك وسحرك، لذلك لم ولن يحل أحد مكانك في قلبي! كنت في اللحظة التي تتوقف فيها تصرفاتك العملية عن تأديبي وتعليمي تبدأ كلماتك ذات الرنين المميز بالتغلغل إلى أذني ثم إلى قلبي وعقلي حيث تحتل ذاكرتي للأبد! ! كان تعليمك لي مستمراً، بالقول والفعل والنصح والقصص، لكنني كنت آخذ بعضها على محمل المزاح ظناً مني أن الحياة أسهل من ذلك بكثير وأنها لا تحتاج إلى تلك النظرة التي لا أنساها وأنت تحدد في عيني مباشرة كأَنَّك تزرع هذه الكلمات زراعة في أرض طرية ينتظرها الكثير من العواصف والرياح...

أبي العزيز، الآن أحتاجك أكثر وإن كنت قوياً وقادراً على الصمود والمواجهة بفضل تربيتك وتنشئت لي على أفضل وجه، ولكنني رغم هذا لا أزال شاباً صغيراً في مقتبل العمر يخطو ببطء نحو أحلامه الكثيرة، صحيح أن عودي اشتد ولم يعد لحمي طرياً كما في سن المراهقة، ولكن روحك تلهمني وتمنحني القوة كي أؤمن أكثر أنني أستطيع القيام بكل ما أحلم به مهما بدا مجنوناً....

لو أردت أن أسرد الأشياء التي تعلمتها منك واستخدمتها في حياتي وكان لها أفضل النتائج لما كفاني الوقوف أمام قبرك لأسبوع ، ولكنني على سبيل الفخر بك أقول بأنني كثيراً ما مارست هذه الصفات والأفعال وبغفوية ودون تكبر فما كان من الناس إلا أن أظهروا إعجابهم وإنبهارهم بما أفعل، أقوم بما أمرتني به يا أبي وبالطريقة التي علمتني إياها فيعتقدون أنه شيء يستحق الإعجاب ولكنه في الحقيقة ما ربيتني أنت عليه من صفات وخصال قائلاً لي في كل مرة أن هذه الخصال لا يمكن العيش بدونها وهي ما تربينا عليها من أجدادنا فعليكم يا أبنائي أن تتحلوا بها دون كبر أو غرور فالدنيا زائلة ولا يبقى خلفكم سوى الذكر العطر والطيب....

لا أعرف لماذا ترددت حتى الآن في رثائكما ولكن ربما لم أملك الجرأة لفعل ذلك، وها أنا اليوم بعد خمسين عاماً أو يزيد على وفاتكما يا والدي استجمع ما تبقى لدي من قوى كي أحادثكما بهذه الجرأة مع أنني أن كلامي هذا لن يخفف من فاجعتي بفقدكما والتي لم يتغير طعمها ولا ألها منذ نصف قرن ...

لم يتسنى لي المشاركة في دفن أي منكما حتى أنني لم أرى قبرك الملتصق بقبر أبي يا أبي إلا متأخراً بعد وصولي من السفر، عام واحد فقط هو ما استطعت احتماله بدون رفيقة دربك! وأنت الذي قضيت معها عشر سنوات وهي مجرد أنفاس تصعد و تهبط دون جسد يتحرك أو حواس تدرك ما يجري حولها! كانت أنفاسها هذه

كفيلة ببقائك إلى جانبها ورعايتها والاهتمام بها والدعاء لها، ولكن ما أن نزل قدر الله بها وانتقلت إلى الرفيق الأعلى حتى بدأت تنهار جسدياً وعاطفياً ولسان حالك يقول: لا طعم للحياة دونك...

مرت الأيام مسرعة عليك و بدأت الوحدة تنهش روحك الطاهرة وبدأ الفقد ينال من صبرك والشوق من ثباتك والحب من جسدك، ، لا زلت أحتفظ بلمسة يدك الخشنة عندما ودعتك للمرة الأخيرة، وقبلاتك على وجنتي وأنت توصيني بالعناية بنفسي وبعائلي لا تزال محفورة في ذهني وعقلي...لست صاحب حدس قوي فلم أعرف أنه كان الوداع الأخير فاكثفت ببضع قبلات طهرتها أنت بدموعك الغالية، ثم مضيت من عندك لأودع قبر أمي فلم ترضى أن تعود إلى البيت حتى غبت تماماً عن ناظريك...توقفت عند المقبرة واتجهت نحو قبر أمي وقرأت الفاتحة على قبرها...كان القبر إلى جانبها خالياً يا إلهي! كان ينتظارك! ما هذا الوفاء! سبقتك إلى مثواها الأخير ولكنها تركت لك مكاناً إلى جانبها لأنها متأكدة أنك لن تتركها وحيدة هناك في العتمة! وكنت أنت على العهد ولحقتها وتمدت إلى جانبها لتناما سوياً إلى الأبد...أما أنا فكان علي أن أغادر فغادرت ولم أعد لأرى قبركما المشترك إلا وقد فات الأوان على تقبيل أجسادكما فقد كانوا بكل قسوة قلب قد هالوا عليها التراب...

وأنت يا أغلى الرجال، ألسنا سبباً في تسريع ظهور الوقار وسط شعرك الجميل؟! ألم تقدم لنا كل ما تملك دون أن تنتظر شكراً أو جزاء؟ قدمت لنا أشياء عظيمة ولكن أعظم ما قدمت لنا وهو أعظم ما قد يقدمه والد للأبناء على الإطلاق: حبك لأمي... لقد جعلتماه بيتاً يشع حباً، كنت أراك كيف تعامل أُمِّي بحب واحترام وتقدير، كنت تناديهما بأحب الأسماء إليها، وتلجأ إليها عندما تواجهك مشكلة وتستشيرها بكل صغيرة وكبيرة، وهي كانت تستجيب لهذا التقدير وتبادل ذلك الحب وتقف إلى جانبك، لم تخذلها يوماً ولم تخذلك، ونحن نلاحظ هذا جلياً بينكما فكانت إشعاعات الحب تنطلق منكما وتنتشر في أرجاء البيت ونتعرض نحن لها ونكبر معها فكبرنا في بيت يغمره الحب والحنان وتحلق في أرجاءه عصفائر المودة والسكينة والایمان والطمأنينة...

لا أتذكر أنني رأيتهما تتشاجران أمامنا، ولو فعلتما ذلك لظل عالقاً في ذهني ولكنني صدقاً لا أذكر حادثة أو موقفاً رفعت فيها يا أبي صوتك-فضلاً عن يدك- على أُمِّي، كيف تفعلها وأنت تحبها؟! وأنا كذلك يا أبي لم ولن أرفع صوتي أو يدي على حبيبتي وزوجتي، فقد تعلمت هذا في كنفك ولو حاولت القيام بعكس ذلك لما استطعت....

أذكر أنكما كنتما تتقاسمان كل شيء، ليس فقط الدخل الشهري بل مصاعب الحياة ومشاكلها وهمومها وكان هذا سر نجاح علاقتكما التي امتدت لما يزيد عن

أربعة عقود مما انعكس علينا نحن الأبناء فلم يشذ منا أحد ولم يتطرف أحد ولم يرتكب أحداً أخطاء فادحة كنتك التي تكثر في العوائل المتفككة المبنية على غير الحب والتقوى ومخافة الله... يحضرنى الآن معطفك الصوفي البني يا أمي الذي لم يسبق لي أن رأيته ترتدينه! لم أكن أعرف أنك كنت تملأين خزانك بملابس تالفة لا تصلح للخروج فقط لتقنعي نفسك بأنك تمتلكين ملابس كثيرة والحقيقة أن لديك قطعتين أو ثلاثة تبدلينها على مدار الأسبوع على عكس خزائي أنا واخوتي والتي كانت تعج بآخر صيحات الموضة....

تقاسمتما كل شيء في الحياة وتقاسمتما ميثاكن بعد الموت وأبستم أن تتعد أجسادكما عن بعض أكثر من ١٥ سنة في القرية التي ضمت أجساد آبائكم وأمهاتكم عليهم وعليكم رحمة الله الواسعة ولنا من بعدكم الصبر والسلوان والكثير الكثير من الوصايا والنصائح التي تركتموها لنا حملاً ثقيلاً يعجز أمثالنا عن حمله... أحدث نفسي كل مساء بأن علي أن أصبر وأجاهد نفسي على الصبر ولكن الحقيقة يا من سكنت أجسادكم التراب أنني لا أقوى على ذلك! هذا إعترافي أضعه أمام ذكراكن وان كنت أظهار بإخفائه أمام الجميع، ، ، ففي الأعماق مشاعر تفوق القدرة على الاحتمال وفي الظاهر روح وجسد تحتلان أضعاف هذه المشاعر اكباراً لأرواحكن الطاهرة العفيفة... فبين هذا الضعف وتلك القوة أصارع أمواج الحياة وحيداً أتوسد صوركن العالقة في ذاكرتي المتعبة محاولاً ارغام نفسي على اعتياد بعدكن...

أُمِّي الغالية...أبي الغالي رحمكما الله وأسكنكما الفردوس الأعلى بما قدمتماه لنا، لن أتوقف عن الدعاء لكما لعل الله يجمعني بكم تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، يا أعظم أب وأم، يا أعظم عاشق وعاشقة، يا أعظم نبيل ونبيلة، يا أعظم وفي وفية، يا أعظم رجل وامرأة، ، ، رحمكما الله وأبدلكما أهلاً و داراً خيراً من أهلكم و داركم وغسلكما بالماء والتلج والبرد و نقاكما من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس...

كان أحمد قد عاد من جولته حول المقبرة... اقترب من الشيخ ووضع يده برفق على كتف الشيخ...

-هل أنت بخير يا عم؟! أرجو أن لا أكون قد قاطعت خلوتك؟

مسح الشيخ دموعه بطرف ثوبه ورسم ابتسامة هادئة على وجهه

-لا أبداً... ولكن يبدو أن الحقيقة التي كنت أنوي اطلاعك عليها كانت فوق احتمالي... هيا لنعود إلى الخيمة فقد تأخر الوقت...



-اصمتا أيها التفاهين، والله ان لم تصمتا لطعنتكما بهذه الإبرة حتى أمزق أجسادكما! دعوني أكمل حديثي... وبعد أن... أطفئ الضوء انه يؤثر على تركيزي... وبعد أن احتضنتها وقبلتها...

-أهاااا ماذا حدث بعد ذلك، هذا ما نود سماعه بالتفصيل

-لماذا لا تحرس؟! دعه يكمل، إذا عاد لوعيه لن نعرف شيئاً

-ماذا قلت له؟! هل تخططان لقتلي؟! أنا.... أنا... أريد أن أرقص... ولكن.... هذه الموسيقى ليست مربوطة ب....

-أحضر له يا بهاء حبلاً واربط له الموسيقى كي يرقص ههههه

-أقسم بالله أنها ليست مربوطة، حلا قالت بأنها لو كانت مربوطة لكان الحزن أقل والفرح أكبر... قالتها قبل أن تأتي السيارة مسرعة ثم يوممممم (وضرب جوالين كانا أمامه ببعضهما) ثم طارت مسافة لا تقل عن اثنين وعشرين سنتمتر مكعب... لقد قستهما... أليست المسافة تختلف عن البعد؟ طارت وارتفعت ثم هبطت وسكنت... تباطأت نبضات قلبها هكذا خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد... ثم هرب السائق، لو كنت هناك لقتلته بأسناني (عض على أسنانه بينما حدقات عينيه تزداد توسعاً... أنتم تعرفون أنني كنت سأقتله أليس كذلك؟! وكنت سأقتل والدي العزيز أيضاً ههههههه ولكنني فضلت أن أبكي فوق جسد حلا المسجي على الشارع وقد شكل خيط الدماء الذي سال فوق الأسفلت من رأسها

لوحة فنية غاية في البراعة والجمال... هل هناك أجمل من الأسود والأحمر عندما يلتقيان مع بياض وجنتيها؟! املاً كأسي... املاًه ويسكي وعرقاً وضع لي فوقه مكعبات ثلج كثيرة جداً وضع لي قليلاً من هذه البودرة معه... سنحتفل اليوم حتى الصباح بخسارة أبي نصف ثروته، هو لا يعلم أنني سأخذ الباقي لي لنذهب به أنا وحلاً لقضاء شهر العسل في جزر المالديف.... هههههه عبدالله الأحمق

بهاء (وهو يشير بيديه إلى محمد): لا تفعل! لا تفعل! انه ليس في حالة تسمح له بالمزيد، انه لا يدرك شيئاً مما يقول، ضع له كمية قليلة جداً من الويسكي واكسرهما بأي مشروب غازي من الشلاجة، بأي حال هو لن يميز طعمه... وبعد أن يشربه اصنع له دلواً من القهوة لعله يصحو...

بهاء موجهاً حديثه لأحمد الذي كان يهذي : ما بك يا صديقي؟

أحمد : كل ما عليك عندما تضيق عليك الدنيا وتشعر بالاختناق وبأنك بحاجة الى شيء يجبرك أن تضحك مهما كان سخيلاً أو تافهاً أو ليس له أي معنى أن تتخيل نفسك في منطاد كبير وأنت ترتفع فوق الكرة الأرضية وأن الله وهبك بصرآ خارقاً يمكنك من رؤية البيوت أسفل منك مرة واحدة ودون جدران أو حواجز!!! صدقتي أن شعور الاستغراب سيستمر فقط لبضعة ثوان وأنت بعدها ستبدأ بالقهقهة بجنون وقد تسقط من المنطاد من شدة ضحكك فعندها يا صديقي عش تلك اللحظة بمخافيرها وارفع صوتك بالضحك فلا أحد يسمعك هناك...

-ولكن يا صديقي من أين لنا بمنطاد؟! أليس لديك حل عملي أقرب للتطبيق؟

-أيها الغبي لا تضيع جمال الفكرة بذكاءك المحدود، استخدم أي شيء يطير، أي شيء يجعلك فوق... فوق فوق... املاً لي كأساً فهذه السوائل مثلاً تحقق لك حلمك بالتحليق فلماذا لا تجربها؟!

-هل لك بأن تستمع إلى صوت روحك يا صديقي ولو للحظات! هي ماتت، أنت لا تزال تحبها، هي ماتت، طفلات الحي أصبحت فتيات، هي ماتت، إحدى الفتيات تسألك مالي أراك حزيناً سيدي؟! ، هي ماتت، قلبك يرى في هذه الفتاة وجه حبيبتك، هي ماتت، أنت تحب هذه الفتاة، هي ماتت، أنت تريد أن تعيش، ، ، ، ، لا تغضب مني يا صديقي من طريقة سردي لحياتك بعد موتها ولكنني أريد أن أذكرك بحقيقة ثابتة واحدة فقط: الذين يموتون قدموا شهادات اخلاص موثقة أما الأحياء فلا أحد يجزم باخلاصهم الى أن يوقعوا شهادات موت مماثلة...

فجأة ودون سابق انذار نهض أحمد كالوحش الكاسر وانهال على بهاء بلجمات متتالية لم يعرف من أين جاءته الطاقة لضربها : لم تمت! هل أنت غبي؟ هي تحبني! هي فقط سافرت إلى مكان بعيد وستعود! أنت الذي ستموت الآن، خذ! مت الآن! وخذ هذه أيضاً! هل تعتقد أيها المختل أنني نسيتها وسأحب غيرها؟! خذ خذ خذ! وخذ هذه أيضاً لعقلك الميت أيها الفاشل! أقسم بالله العظيم إذا ذكرت اسمها مرة

ثانية فسأدفنك هنا تماماً! هل ترى هذه المساحة؟! سأحفرها بيدي وألقيك بها وأدفنك حياً! هل تعرف عمن تتحدث؟! انها أميرتي حلاً! انها سلطنة النساء! انها... انها... انها...

وفجأت خارت قواه فألقى بنفسه إلى جانب بهاء وغط في نوم عميق، وساعد مجد بهاء في النهوض بعد أن ترك أحمد على وجهه وجسده بضع آثار ورضوض، ثم رتب الفوضى التي تسبب بها أحمد وحمله إلى فراش في زاوية الغرفة وغطاه مجد بغطاء ثقيل لأنه يعرف أنه عندما تزول عنه آثار التعاطي سيشعر بالبرد الشديد...

-لا أعرف إلى متى ستظل حالته هكذا؟! انه يقتل نفسه! أنا أعرفه منذ كنا أطفالاً، لم أرى أحمد بهذا السوء من قبل! انه لم يعد يتعاطى لينتشي، انه يتعاطى لينسى وفي كل مرة عندما يصحو يطلب جرعة أكبر! هل يرغب في قضاء عمره كله منتشياً؟!

-ولكنك تعرف قصته! حلاً لم تتركه ولم تباعد عنه! حلاً قتلت! وهل تعرف من قتلها يا بهاء؟ قتلها من كان يجب أن يطلبها له من أهلها؟! أبوه! هل هناك قلوب بهذه القسوة يا رجل؟!

-أعرف أعرف! لو لم أعرف لما تركته يلكني كالوحش حتى كاد يحطم أسناني!

-أنت تعرف أنه ليس بوعيه!

-أعرف هذا أيضاً ولكننا نحن أصدقاءه علينا أن نساعد في تجاوز أزمته قبل أن يؤذي نفسه أو الآخرين! نحن نحتمل تعلقه بذكرها ولكنها ماتت وهو لا يزال شاباً! يجب أن تستمر الحياة يا صديقي مهما كانت هذه الحقيقة مرة!

-إن (محاولة) نسيان شخص أو اقتلاعه من ذاكرتنا تعني نزع ذلك الجزء المرتبط به في المخ وإذا كنت تعرف التركيب التشريحي للمخ فستعرف أن نزع جزء محدد منه دون إلحاق التلف بالأجزاء المجاورة محض هراء...

-حسناً اسمعني جيداً فيما سأقول لك، أعرف أنك ستقول عني بأني مجنون ولكنني سأقرأ لك نصاً أحفظه عن ظهر قلب منذ سنوات، قرأته مرة في كتاب اسمه زاد المعاد لكتب اسمه ابن قيم الجوزية، نعم أنا لا أصلي ولا أصوم وأرتكب كل المحرمات ولكنني أقرأ أيضاً كتباً دينية فلا تنظر لي تلك النظرة القاسية التي تشبه نظرة أبي عندما أتحديث في المنزل عن الأدب والأخلاق، فقط اسمع النص ثم علق بعد ذلك!

-حسناً يا صديقي الفاجر الذي تنزلت عليه فجأة سحائب الإيمان سأسمعك ولكنني فقط سأزيل هذه الزجاجات من أمامك احتراماً لقائل كلماتك وللموضوع الذي ستحدث عنه، أنت متأكد أنك تخلصت تماماً من آثار الويسكي، أليس كذلك؟

-وهل لديك شك أن آثارها ستبقى بعد اللكمات التي تلقيتها من صديقنا الملقى هناك كالجثة الهامدة؟؟! فقط استمع بقلبك لما يقول ابن القيم رحمه الله :

إن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم ارادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم، أذوه وعذبوه، وإن وافقهم، حصل له العذاب والأذى، تارة منهم وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم الا بموافقتهم، أو سكوتهم عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم، سلم من شرهم في الابتداء ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخاف

فه ابتداء لو أنكرك عليهم وخالفهم، ، ، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم.....ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدعة على بدعهم هرباً من عقوبتهم، فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عدوانهم ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، ، ، ولما كان الألم لا محيص منه البتة، عزى الله سبحانه وتعالى من اختار الألم اليسير المتقطع على الألم العظيم المستمر بقوله {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم} فضرب لمدة هذا الألم أجلاً لا بد أن يأتي، وهو يوم لقاءه، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم لأجله وفي مرضاته وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله والله، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقاءه، ليحمل

العبد اشتياقه الى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيبه الشوق الى لقائه عن شهود الألم والاحساس به، ولهذا سأل النبي عليه الصلاة والسلام ربه الشوق اليه فقال في الدعاء (اللَّهُمَّ اني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق، أحييني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر الى وجهك، وأسألك الشوق الى لقاءك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللَّهُمَّ زينا بالايمان واجعلنا هداة مهتدين) فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير الى محبوه، ويقرب عليه الطريق، ويطوي له البعيد، ويهون عليه الآلام (والمشاق...)

ما يمكن اسقاطه من هذا النص على حالة أحمد كثير ولكنني سأخذ نقطتين واستفيض بتحليلهما، الأولى أن أحمد انسان والإنسان مدني بطبعه فأحمد شاء أم أبى سيختلط بالناس وسيتذكر حلا بسبب احتكاكه بالناس الذين تسكن حلا وجوهم وتصرفاتهم، والأمر الثاني أن أحمد عليه أن يصبر على ألمه ويقاومه بتذكير نفسه بأن حلا عند ربها تنتظره وستكون له وأنه مأجور على صبره في الدنيا، وما سيناله في الآخرة خير له من كل ما يشتهي به بالدنيا ويعذب نفسه لأنه حرم منه....

-هل تريدني أن أطلب من أحمد أن ينسى حلاً لأنها تنتظره في الجنة؟؟! ما الذي أصاب عقلك يا رجل؟! أحمد كفر بوالده ووالدته وكل من حوله! هل تريد أن يؤمن بكلامك هذا؟! ثم من الذي سيحدثه به؟؟

بهاء الذي لا يصحو من سكرته إلا إذا كان ذاهباً لمقابلة إحدى عشيقاته أو إذا تعرض للكم!

-إذا استمرت بسخريتك هذه فلن يشفى أحمد وسيموت بجرعة زائدة!

-بهاء يا عزيزي، يا صديقي، يا حبيب قلبي، يا مهجة فؤادي! أحمد لم يدخل المسجد في حياته ولو بالخطأ! حتى قبل أن يدخل المدرسة عندما كان طفلاً كان أبوه يحذره من الدخول إلى المساجد ويزرع هذه القناعة في أعماقه لأنها مليئة بالكسالى الذين لا يجدون شيئاً لفعله فيذهبون لقضاء ساعات النهار ينتظرون الصلوات والبقية لم تنههم صلاتهم عن فاحشة أو منكر فهم منافقون يصلون في الصف الأول ولا يتورعون عن أكل الربا والكذب وشهادة الزور، ، كان الدخول إلى المسجد محرماً على أحمد! ثم صار أحمد إلى ما صار إليه اليوم، فكيف ستغيره بغضة عين؟! قد يكون الرجل السكران أكثر ابداعاً من الرجل الغير سكران ولكن الرجل الغير سكران يقدم أفكاراً صالحة للسكران وغيرهم أما السكران فمدة صلاحية أفكاره تنتهي بمجرد صحوه...

وهذا ما ينطبق عليك تماماً ففكرتك صالحة وقابلة للتطبيق إلى أن تصحو، بعدها ستكتشف مدى حماقتك!

-ان امرأة العزيز وهي من هي عندما قالت الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه ارتقت لمصاف القديسين فاعتبرني في احدى لحظات الإعتراف تلك وتوقف عن السخرية مني ولا تحاول أن تفهم كلامي على غير مقصوده، فأنا لا أطلب منك دعوة أحمد لإعتناق الإسلام! ما أردته بذكر هذا النص أن أحمد بحاجة لصدمة تعيده إلى الحياة وليس بالضرورة أن تكون دينية أو اجتماعية فهذا النوع من الصدمات قد يقابل بالعنف وقد يبدي أحمد تجاهه ردة فعل عكسية تزيد حالته السيئة سوءاً، ولكنني أؤمن أن النفس جامحة وعلينا ترويضها ولو بالقوة؛من ذلك أن نجبرها على احترام سماع الحق ممن نكره

-ولكن لا تنسى يا صديقي أننا لا ننظر ان كان قاتل أحبائنا يرتدي قفازات عندما ارتكب جريمته؛نحن نفقد حاسة البصر كاملة؛نتخلى عنها لصالح حاسة الانتقام؛يصبح حاستنا الوحيد التي تربطنا بالعالم الخارجي

-هذا بالضبط ما أتحدث عنه، تفريغ الأفكار الإنتقامية التي تسكن رأس أحمد هي الخطوة الأولى لإعادته للحياة، ربما نفكر بشيء آخر لمستقبله ولكن يجب أن

نضع جل اهتمامنا في إعادة توازنه، وربما أصعب مهمة في هذا الجزء هي محاولة اقناعه بأن يقلع عن تعاطي المخدرات فهي تقتله تدريجياً...

-أنا سأساعدكم في ذلك!!

التفت بهاء ومجد إلى مصدر الصوت فإذا هو يصدر عن شيخ طاعن في السن يكاد وجهه يشع نوراً، إلا أن أثر السفر باد عليه، لم يكن لديهم وقت كاف لترتيب المكان فهم لم يحسوا بقدوم شخص عبر الباب رغم أنهم متيقضون دائماً لئلا تداهمهم فرق مكافحة المخدرات إلا أنهم في هذه المرة عجزوا حتى عن سماع صوت الباب وكأن الشيخ دخل دون أن يفتحه...

-منذ متى وأنت تقف هنا أيها العجوز؟! لماذا لم تطرق الباب؟ من أنت ولماذا جئت إلى هنا؟

-هل تسمحان لي بأن أجلس فأنا قادم من مكان بعيد؟

ووفقاً لأنه من الواضح أن هذا الشيخ لا يشكل خطراً أو تهديداً والواضح أكثر أنه لم يأتي لأمر يتعلق بالمخدرات...

-أنا صديق أحمد لحقته بعد أن فقدته في الصباح عندما أتيت لأيقظته، تتبعت آثاره فقادني إلى هذا المكان، لا يهمني ما الذي تقومون به ولكنني أريد أن أتأكد

بأن هذا الصبي لن يلحقه أذى خلال فترة اقامته لدي... لا بد أنه أخبركم أن والده أحضره إلي لأعتني به، أنا الشيخ فلاح، والآن أرجوكم أن تسمحوا لي بأن أغادر أنا وأحمد قبل أن يحل الظلام...

زالت نظرات الاستغراب من على وجوههم وتذكروا كل ما قاله أحمد لهما عن الشيخ والعلاقة التي بدأت بالتحسن بينهما، ودون أن يتكلما بدا أن ذات الفكرة خطرت لهما معاً بأن يطلبوا من الشيخ مساعدة أحمد....

-بالتأكيد يا عم، سألني على الاستقبال غير اللائق ولكن كما تعلم فنحن لا نتوقع زواراً أكثر في مكاننا هذا، أرجو أن تقبل اعتذاري وتفضل بالجلوس هنا إلى أن يستيقظ أحمد،، هو متعب من السفر أيضاً ونام منذ أن وصل...

-يا بني، أنا شيخ كبير في السن فما الفائدة من الكذب علي؟ عبر التاريخ كله لا يوجد ما يحطم الحضارات أو الأحلام أو حتى البناء الأخلاقي سوى الكذب....وكنتيجه حتمية لهذه الحقيقة فإن دولة أو حضارة أو خلقاً لا يمكن أن يبنى في المستقبل على أساس الكذب....قد يبدو كلاماً بسيطاً ولكننا نعتقد من جهلنا أن علينا أن نكذب لبنينا!!! أعتقد أن الطينة التي يجب أن توضع بين كل لبنة ولبنة في أي بناء حضاري هي طينة: الصدق.....هذا الكلام ينطبق على البناء

العمودي والأفقي فكيف لو طبقناه على بناء الجسور بين البشر؟؟؟ 47 ماذا كنت ستخسر لو أنك أخبرتني بحقيقة أن أحمد نائم لأنه تعاطى المخدرات وشرب الكحول ثم غاب عن الوعي؟! وبعد كل هذا تظن أن بإمكانك مساعدته؟! هل تريد إطلاق رحلة مساعدة صديقك بالكذب عليه وغشه وخداعه؟

سقطت كلمات الشيخ على رأس بهاء كالصواعق ولم يعرف بم يرد ولكنه ربما ازداد يقيناً بأن الشيخ لديه من القدرات ما تؤهله لمساعدة أحمد...

-أعتذر يا عم ولكنني لم أرغب بتشويه صورة أحمد لديك فهو شخص جيد لولا هذه العادة السيئة...

-عادة؟ حسناً سأرى ما يمكنني فعله بشأن هذه العادة! ولكنني ربما أحتاج مساعدتكما في بعض التفاصيل اللاحقة... في البداية عليكم أن تساعدوا أحمد أن يكف عن مراكمة الذكريات فإن تظاهر الإنسان بأن الأمور على ما يرام وأن كل هذه الأحداث المتراكمة المتوالية من حوله لا تدعوه للدهشة، سيكلفه قريباً خسارات كبيرة وسيدفع الثمن غالباً وبشكل مفاجئ... 48 أحمد يتظاهر بأنه بخير بينما هو يحترق من الداخل بل يتحين الفرص ليلقي الوقود فوق ناره التي تقضي على روحه وجسده معاً... قد يكون لدي أفكار كثيرة ولكنني لا أعرف مدى صلاحيتها مع أحمد فليس المهم أن تكون الفكرة جديدة أو قديمة...المهم أن

تكون صالحة فأنسب الأماكن للإختباء تحت الشمس تماماً أمام الباحثين
عنك...

-نحن مستعدون للتضحية بكل ما نملك فأحمد صديق الطفولة ولن نسمح
بحدوث أي مكروه له

وسط هذا النقاش استيقظ أحمد من فراشه ولا تزال على وجهه آثار الشرب ونظر
إلى الشيخ ما بين المصدق والمكذب...

-الشيخ فلاح! كيف لحقتني؟! كنت أعتقد أنني سأتمكن من العودة قبل أن
ترجع مع الأغنام عند الغروب! أعتذر عن خروجي دون إذن...

كان من الواضح استغراب مجد وبهاء تصرف أحمد المؤدب مع الشيخ وتبادلا نظرات
مفادها أن أحمد لا يزال تحت أثر الشرب ولكنهما رغم هذا كانا سعيدين بأن
صديقهما يستطيع أن يكون مؤدباً حتى لو بشكل مؤقت.

-لا تنسى يا بني أنه ليس لي سلطة عليك سوى ما يسمح به حسن أخلاقك
ورغبتك في انقضاء وعد والدك فأنا لن أجبرك على القيام بشيء لا ترغب بفعله
بعقلك وقلبك

-بين الحين والآخر نشعر بيقظة غريبة، أقرب للصفعة! نحتاج معها لصمت طويل قبل أن نتمكن من لمس أثرها في تصرفاتنا... ربما كان وجودي معك الفترة الماضية سبباً في هذه اليقظة ولعلي الآن بانتظار لمس أثرها... عندما تصادف بعض المشاعر ونجد أنها لذيذة نكتشف أن حياة واحدة لا تكفيها لتجربتها جميعاً... لأن الصدفة تعني إختيارك دون غيرك، والإختيار لن يقع عليك دائماً... قبل أن أقابلك كنت أظن أن متعة العطاء تكون فقط في انفاق المال وتوزيعه ولكن ها أنت أعطيتني ولا تزال تعطيني الكثير دون أن تنفق قرشاً واحداً!

-على الأغلب من يميلون لتبذير الأموال لا يملكون شيئاً آخر لينفقونه، فسبحان من وزع أرزاقه بالعدل كي لا يحرم أحداً لذة العطاء... لربما كان رزقي في هذه الحياة كلماتي...

-البعض تشعر بأن كلماته تحمل عصا كتلك التي كانت ترعبنا ونحن صغار فتجبرنا أن لا نرفع أعيننا في عين المتحدث.... ولكن الفرق أننا نعشق هذه العصا فلو أزيلت لما عدنا نستمتع بهذه الكلمات... كانت كلماتك تصطاد ما كان يحتاجه قلبي وعقلي!

-الصيد ليس فقط في البر، ليس فقط في البحر، ليس فقط في السماء...هناك صيد في الزمان حين توجه سهمك ليأتي مباشرة بين عقربي الشوق والحنين فلتقي فريستك جثة هامة بكلمة واحدة...

-لم تكن كلمات عادية، كانت مراهم علاج لأخطائي التي لا أزال أصر على ارتكابها رغم الألم الذي تسببه وستسببه لي!

-ليس العيب أن تصر على خطأك لعشرين أو ثلاثين عاماً...العيب أن تعتقد أن بقية عمرك-وإن كانت يوماً واحداً-لا تكفي لإصلاح خطأك... أنت لست سيئاً يا أحمد، قلبك شفاف مليئ بالمشاعر الجميلة ولكن الناس يدفعونك لأن تكون شخصاً آخر، هناك مراتب للمشاعر ودركها الأسفل في السوء أن يجبرك الآخرون أن تثبت لهم قدرتك على الإيذاء...

-لن تصدق يا عم كم شعرت بالراحة عندما ابتعدت عن والدي الفترة الماضية! شعرت بطاقة ايجابية كأنني كنت بحاجة لقوة خارجية تجبرني على السيطرة على أفكار السلبية

-البعد الجسدي لا يمنع شيئاً سوى إرتكاب الحماقات، ، ، أما سواها من الأخطاء فبإمكانك ارتكابها أينما كنت...

- ولكنها كانت فرصة لمراجعة قناعاتي ومبادئتي التي كنت أقدمها وأراها صحيحة دائماً... لقد كان حجم سعادتي بهذه التجربة حتى الآن كبيراً

-لهذا جئت لتحتفل بهذا النجاح بتعاطي المخدرات؟!

-هيا يا عم لا تكن قاسياً إلى هذه الدرجة! لا يمكن التوقف عن التعاطي بين ليلة وضحاها، ولكن صدقني ان قلت لك بأنني وخلال الأسبوع الذي قضيته معه لم أشعر أنني بحاجة مع أنني كنت معتاداً على تعاطيها بشكل يومي! انها المرة الأولى التي أقضي فيها كل هذه الفترة دون أن أتعاطى أي شيء... يبدو أنني كنت منتشياً بنصائحك وكلماتك!!

-اها، تريد أن تضحك علي كالأطفال لأنسى حجم خطأك وأفرح بكلماتك اللطيفة!

-هههههه ليس الأمر هكذا تماماً، هو مزيج من هذا و ذاك...والآن أخبرني ماذا ستشرب؟!

-ها أنت عدت مرة أخرى لمشاكساتك الطفولية! هل تريدني بعد هذا العمر أن أشرب وأفقد بقية وقاري وهيبتي؟!

-هههههه أقسم أنني لم أقصد ذلك، لدينا هنا أيضاً كل ما قد يخطر ببالك من مشروبات، هي بالتأكيد ليست بلذة ابريق الشاي الذي تصنعه على الحطب ولكنك ضيفنا ويجب أن نقوم بواجب ضيافتك... سيقوم مجد وبهاء على خدمتك بينما أجهز نفسي للمغادرة معك...

روح الحنان

-صباح الخير، أرى أنك لا تزال في فراشك، هل هذا من أثر سفر البارحة؟ ألن ترافقني اليوم؟ يا لكم من شباب يبعث اليأس في النفوس! عمري جاوز السبعين ولم يسبق لي أن بقيت نائماً لما بعد الرابعة صباحاً! حتى لو سهرت أو عملت في الليلة السابقة لوقت متأخر، أنتم جيل يضيع ثلثي عمره في النوم!

-صباح النور يا عم، أصبحنا وأصبح الملك لله، هل ستبدأ بتلقيني دروس الحياة القاسية قبل حتى أن أفتح عيني؟! اصبر حتى أتناول افطاري وبعدها قد أسمع و أعي ما تقول! أنا معتاد في القصر على أن يأتيني الإفطار الغني بالبروتين إلى فراشي، لا تتوقع أن أعتاد على هذا التغير بسرعة!

-نعم، الفطور الذي تعده الخادمة ولا أحد يعلم بما هو غني أيضاً إضافة إلى غناه بالبروتين!

-لدينا في القصر عشرون خادمة و ثلاثة طبّاخين وبستانيان وخبيرة تغذية ، كلهم تم استقدامهم خصيصاً من أفضل دول العالم كل حسب تخصصه...

-وحسب جماله أيضاً! فأبوك يريد أن يفتخر أمام زواره بأن لديه فريقاً من العاملين في منزله يتمتع بأعلى مستويات الجمال والفخامة والخبرة...

-الخبرة نعم ولكن الجمال؟ لا أعتقد أن أبي يهتم بهذه الخصلة فيمن يعملون معه...

-الأثرياء يهتمون بمظهرهم أمام الآخرين، كل شيء في حياتهم يجب أن يناسب أذواق الآخرين... مساكين

فجأة صرخ أحمد ووضع يده على كعب قدمه وضغط بشدة

-ما بك يا أحمد! لماذا تصرخ؟!

-شيء ما لدغني، هنا هنا بالضبط اااااي، أرجوك أن تفعل أي شيء يا عمي! أرجوك! سأموت! الألم يمزقني!

-اهدأ ولا تتحرك! ابق كما أنت!

نهض الشيخ وتبين الأمر فوجد أنها عقرب صفراء طولها حول الخمس سنتيمترات لها كلابين يميلان إلى اللون الأحمر، أزالتها ثم هوى عليها بحجر كانت قريبة منه، وأمر أحمد أن لا يتحرك ونهض وعاد بعد دقيقتين معه وعاء وقطع قماش...

-لا تقلق توقف عن الصراخ لن تقتلك الصفراء المحببة، توقف عن التصرف كالفتيات!

-المحبة؟! أحس بالألم سيوقف أنفاسي وأنت تراه موقفاً يستدعي السخرية؟!

-لا أسخر منك ولكننا فعلاً نسميها الصفراء المحبة وهي ليست سامية، سأضع لك بعض الخلطات من الملح والسكر والتمر وأبدلها كل ربع ساعة ولن يبقى أي أثر للألم أو حتى الجرح الذي تركته على قدمك

-هل أنت متأكد من فعالية هذه الخلطات؟! ألا يجب أن نستخدم ترياقاً أو مصلاً ما لإزالة السموم من جسي؟!

-لا تهول الأمور أيها الفتى! قليل من الحنظل والبابونج والثوم والليمون كفيلة بشفائك، هل تعتقد أن البدو كان لديهم الوقت أو الإمكانيات المادية للذهاب للعلاج في المستشفيات؟! مات منهم الآلاف قبل أن يكتشفوا فعالية هذه الأعشاب والنباتات! ثم تخيل لو أنني قلت لك بأنها نملة هي التي قرصتك فهل ستكون خائفاً إلى هذا الحد؟!

بدأ الشيخ بمزج الأعشاب ودهن قدم أحمد بها ثم ربط فوقها قطعة قماش وطلب منه أن يستلقي...

-هذه المرة الثانية التي تنقذ فيها حياتي، شكراً لك

-أرجو أن لا يسمعك أحد وأنت تسمي لدغة القرب خطراً يهدد الحياة! !

-لم تخبرني يا عم من أين تعرف كل هذه المعلومات عن العقارب وكيفية علاج لدغاتها وأنواعها؟! لو حصل الموقف ذاته معي لم أكن لأتصرف كما تصرفت أنت، ربما أرتبك، بل من المؤكد أنني سأرتبك! ربما أركض جيئةً وذهاباً وأنا أولول وأنحب... أما الإسعاف فأنا كنت أراهم في الأفلام يركضون نحو العضو المصاب ويمصونه ويفسرون ذلك على أنه سحب للسم لمنع انتشاره للأعضاء الأخرى...

-أما ردة فعلي العادية فسببها الإعتياد فقد حصل هذا الموقف معي عشرات المرات وعندما يتكرر الموقف لا يعود له نفس الأثر في دواخلنا، وبالخبرة عرفت طرق العلاج الأولية، أما أن العقارب تنتمي لفصيلة العناكب وأن لها ما بين الست والثمان عيون وأنها تعتمد على حاسة السمع وأن السم يوجد في ذيلها فهذه معلومات عرفتُها بالتعلم في الجامعات فأنا حاصل على شهادة الماجستير في الأحياء، أعرف أنك قد تستغرب ذلك ولكن أبي وأمي كانا أميين فكانت رغبتهما شديدة في أن أكمل أنا وإخواني وأخواتي جميعنا تعليمهم... وكان لهما ما أرادا برغم صعوبة ظروفهم المادية...

-وهل اخترت تخصصك رغبة منك فيه أم أن الظروف قيدتك به؟!

-سؤالك هذا لم يكن له قيمة تذكر حينها فقد كان الهدف من الحصول على الشهادة الرغبة في الحصول على مسمى اجتماعي أولاً وثم من أجل الحصول على

وظيفة تدر علينا المال... بعد أن درس أخي الكبير وحصل على وظيفة بدأ يساعد العائلة كلها، وهكذا حتى أكمل الذي يليه... لهذا تأخروا في الزواج، أما أنا فقد كنت محظوظاً فقد كانت تكاليف دراسي وزواجي موزعة على الجميع فلم أثقل كاهل أحد... أو هكذا كنت أعتقد... تذكر دائماً يا بني أن لا أحد يقدم لك خدمات بالمجان، فهو ان لم يطلب منك شيئاً بالمقابل فإن ذكرى مساعدته لك ستظل تحوم بأجواء جلساتكما وحواراتكما مهما مضى عليها من الزمان...

-لا بد أن عائلتكم كانت من أوائل العائلات التي ترسل أبنائها للتعليم؟

-بل الأولى! لقد احتفت القرية كلها بتخريج أخي الكبير وأقام أي الأفرح والولائم لمدة شهر كامل، وجاءنا الضيوف من القرى المجاورة وأصبح أخي مستشاراً لكل أهل القرية ومن حولها... يسألونه عن كل صغيرة وكبيرة! وعندما يقول لهم بأنه لا يعرف يستشيطنون غضباً ويصرخون بوجهه مستغربين عدم معرفته عن طريقة تزواج الأغنام التي تجعلها تنجب دائماً توائم رغم أنه متعلم وذهب إلى الجامعة! كانوا يوسعون له في المجالس ويقدرونه ويحترمونه... ولكن الأمر اليوم مختلف فلا يوجد أحد في أي مدينة أو قرية أو ريف لا يستطيع أن يتعلم ويلتحق بالجامعة، بل ان الحاصلين على شهادات عليا أصبحوا بالآلاف أما الحاصلين على الشهادة الجامعية الأولى فيعتبرون أميين....

-وما الفائدة إذا لم يجعل هذا العلم من العالم مكاناً أفضل للعيش؟ أعداد المتعلمين في ازدياد وأعداد المجرمين في ازدياد.. الجامعات في ازدياد والسجون

كذلك... مع كل اختراع جديد يحاول تسهيل حياة البشر هناك اختراع يسهل موته...

-لا أريد أن أكون متحيزاً لتخصصي ولكنه ساعدني كثيراً في تغيير نظرتي للحياة وجعلني أكثر فهماً لما يجري حولي وبالطبع أكثر ايماناً و يقيناً بعظيم خلق الله... ان دراستي ولمدة تزيد عن ست سنوات لجسم الإنسان وتركيبه وطريقة عمل أجهزته جعلتني أقف مبهوراً أمام القدرة الإلهية على تنظيم عمل هذه الأجهزة بدقة وإتقان ليس لهما مثيل... وعندما نظرت من زاويتي الخاصة وجدت أن الحياة تشبه أجسامنا وأنا إذا أردنا أن نطور أنفسنا علينا أن نستفيد من دراسة عمل أجهزة الإنسان و ثم محاولة تقليدها...ستذهلك النتائج! هل أعطيك أمثلة بسيطة على التشابه الكبير بيننا وبين جسم الإنسان؟ الغشاء البلازمي وفي بعض الحالات قد يتحول إلى الحالة الصلبة إن لم تكن الخلية بحاجة إلى تبادل المواد بينها وبين المحيط الخارجي، حتى ولو كان خلية أخرى! لو أننا نمتلك نفس الجرة لحافظنا على توازننا الداخلي

-ولكن الغشاء البلازمي لديه طريقة آلية لا نمتلكها نحن البشر لمعرفة حاجتنا إلى التفاعل مع المحيط الخارجي!!

-لديك الماضي! ألم تكن لك تجربة سابقة سببت لك الألم؟! لماذا لم تتصلب بعدها حتى لا يقترب أحد من قلبك مرة أخرى ويؤذيه؟!

-يا عم أنت تتحدث عن أجهزة مبرمجة لا تحس! تعمل بشكل آلي، نحن لسنا آلات! مهما تظاهروا بالقسوة أحياناً فنحن لنا قلوب تتدخل شئنا أم أبينا بتصرفاتنا وقراراتنا!

-وهل سينفعك قلبك عندما يصيبك مرض عضوي ان خذلك أحدهم بعد أن وثقت به دون العالم أجمع، حسناً لأعطيك مثال آخر على تشابهنا مع عناصر الطبيعة، الماس يظهر شفافاً مع أنه مكون من الكربون وذلك فقط لأن جزيئاته متراسة بحيث تسمح للضوء بالمرور من خلالها فلا تحجزه ولا تعكسه ولا تمتصه....هذا حالنا مع حوادث الدهر: البعض يمتصها والبعض يعكسها والبعض يحتجزها ولكن هناك أرواحاً شفافه كالألماس تسمح لها بالمرور لتظل بيضاء نقية صافية...

-ما أجمله من تشبيه، فعلاً نحن نحتاج لأن نسمح ببعض المواقف بالمرور من خلالنا كي لا نغيرنا ولا نترك فينا نكتاً سوداء تجعلنا إذا تراكمت أشخاصاً آخرين...

-هل تطبق هذا في حياتك يا أحمد؟!

-هل سأكذب عليك وأقول لك بأنني أطبقه؟! لا، لا أطبقه ولكنني أتمنى لو كان بإمكانني ذلك،

-وما الذي يمنعك؟!

-كبريائي ربما! في كثير من الأحيان وعندما أحاول أن أسامح أو أنسى أتذكر قدرتي على الأخذ بثأري وأن تسامحي يظهرني بمظهر الضعيف وأنا لا أحب أن يراني أحد بهذه الهیئة...

-حسناً هذا مفهوم في حال كان الموقف مشهوداً من الآخرين ولكن ماذا عن أمر من الماضي، هل تسمح له بإقلاقك ومنعك من ممارسة حياتك بشكل طبيعي؟!
-هل تعرف يا عم أنني لم أفكر يوماً بهذا الأمر!!! ان كنت قادراً أم لا!!!

-لا عليك، دعني أساعدك أكثر بما أننا لا نزال نبحر في الحديث عن التشابه بيننا وبين نظريات الطبيعة، اسمع ماذا تقول هذه النظرية في الجيولوجيا : نظرية الصفائح التكتونية تقول بأن الأرض مكونة من ٧ صفائح رئيسية تتقارب وتتباعده وتتحرك بالنسبة إلى بعضها البعض دون أن يتغير شيء من مساحة اليابسة! حدود بناءة من الأمام يعادها حدود هدامة من الخلف! هذه النظرية قد تفيدنا في التفكير في بعض العلاقات التي نعتقد أننا هدمناها وننسى أن علاقات سواها- تعادها بالضبط- قد تأسست على الفور.

-ليتك اكتفيت بتشبيهنا بالأغشية! أراك الآن تشبهنا بالصخور!

-فقط في قدرتنا على التوازن! فما تحسره في مكان تكسب مثله تماماً في مكان آخر، حتى تأتي اللحظة التي ينهار هذا التوازن للأبد بالموت....

-وهل برأيك يستطيع هذا التوازن أن يحكم سيطرته على علاقتنا مع الآخرين! أي يجعلنا جميعاً أندادا لبعضنا البعض؟! لا أتخيل أن الأمر بالسهولة التي وصفتها به...

-ذكرتني بقانون فيزيائي يقول بأن محصلة ضرب القوة الأولى بالمساحة الأولى على الطرف الأيمن يساوي محصلة ضرب القوة الثانية بالمساحة الثانية على الطرف الأيسر بهذا القانون البسيط تستطيع مضاعفة القوة على الطرف الأيسر للمعادلة آلاف المرات عن الطرف الأيمن، وبتطبيقه عملياً تستطيع رفع آلاف الأطنان بقوة بسيطة تتناسب عكسياً مع مساحة السطح...ليس بالضرورة أن تكون ندأ بحجم أفكارك للطرف الآخر فهدفك ليس كسره أو هزيمته ولكن المهم أن تكون صادقاً وعندها ستري كيف تتضاعف آثار كلماتك القليلة الصادرة من قلبك...

-قلبي؟! أنا أعرف عنه أيضاً حقيقة علمية! فالإضطراب في الرقم الهيدروجيني يؤدي إلى حرقه في المعدة، ما دون ذلك من إضطرابات تؤدي إلى حرقه في القلب

-اها، إذن أنت متفوق في دروسك! ماذا تعرف أيضاً؟!

-حسناً لا تعتقد أنني أحفظ فقط القوانين التي أحس أنها تشبهني ولكنني أؤمن فعلاً بأن هذا القانون يسري علينا تماماً! إحدى الطرق التي يتم فيها حفظ

الأوراق النباتية تكون بوضع أوزان ثقيلة على الأوراق لعدة مرات متتالية حتى يتم ترسيب جميع المواد التي يمكن أن تتعفن ولا يبقى سوى المادة القابلة للحفظ والتجفيف... هذه العملية تشبه إلى حد كبير محاولتنا للنسيان حيث من السهل تسرب الأحداث نفسها ولكن ذكرها محفورة لا تزول!

-إلا إذا زدت كتلة الأوزان فإنها ستتحطم للأبد... ذكرتني بالقانون الفيزيائي الذي يقول بأن الجسور تمتد فوق الموانع على أن تكون أطرافها مثبتة فوق قوالب متينة، يمكنك أن تبني جسوراً جديدة مع المستقبل ولكن ركز على أن تكون الأطراف مثبتة فوق قوالب متينة... ليست مطاطية...

-الأمر أنني أنا لست قادراً على تغيير عاداتي السيئة وصفاتي السلبية!

-لأنك لم تتعرض كالصخور -لا أعتذر عن ضرب المزيد من الأمثلة على دورة حياة الصخور -للضغط والحرارة الذان يولدان دائماً أجمل الأشكال الجيولوجية!!!، ، أجمع العلماء على أن تلك الناتجة عن تجوية ميكانيكية وكيميائية-تغير التركيبة الأصلية للصخر-يلبها دائماً عملية ترسيب في مكان آخر! ! كأنها حتى لم تعد تطبق العيش مع تلك التي لم تجرؤ على خوض تجربة التحول.... إذا سمحت للحياة بأن تجويك فستترسب في مكان آخر شخصاً جديداً جميلاً... ولكن تذكر دائماً أن محصلة قوتين متعامدتين على جسم تساوي مجموع مربعيهما وباتجاه منطقة

بينهما....فالقوة كمية متجهة تحدد بالمقدار والاتجاه فإحذر أن تكون أنت المقدار
ويحصد غيرك الاتجاه...

-لم أفهم!

-أقصد أنك ان حاولت أن تسمح للحياة بأن تقسو عليك فلا تجعل هذه القسوة
تذهب لصالح غيرك! فلا تحاول مثلاً أن تصادق الفقراء كي تشعر معهم ثم تنفق
عليهم أموالك من باب الشفقة فيستفيدوهم وتتضرر أنت!

-أحاول دائماً أن أكون ذا قيمة حقيقية ملموسة لمن حولي! أحاول تحقيق ذاتي بأي
طريقة، أعترف بأنني استخدم المال أحياناً لتحقيق هذه الرغبة ولكنني دائماً أفكر
في وسائل أخرى....

-العلاقة بين الكتلة والوزن علاقة طردية، وكأنك بإزدياد ما يحتويه جسمك من
مادة تزيد تمسك الأرض بك فتبذل قوة أكبر لتجذبك إلى مركزها...كل ما عليك
فعله أن تزيد كتلتك من المعرفة والثقافة والعلوم والأخلاق وستجد أن الأرض
تتمسك بك أكثر....

-يبدو أن ما بيننا يشبه ظاهرة الرنين و هي ظاهرة علمية مبنية على أن لكل جسم تردد جزيئات محدد وبناء عليه إذا صادف اهتزاز جسم معين تردد جسم آخر فإنه سيهتز تلقائياً دون أن يلامس الجسم الأول ومن الأمثلة عليها انهيار جسر عند مرور كتيبة من الجيش يسرون بانتظام فوقه حيث وافق تردد أقدامهم تردد الجسر فانهيار.....هذا تماماً ما يحصل لي عندما أسمع كلماتك....تهزني

روح الخيانة

-طوال الليل وأنا أحاول الإتصال بك، لماذا لم تجيبي على اتصالاتي يا ربي؟! كم مرة أخبرتك أنني عندما أتصل عليك أن تتركي كل شيء وتجيبيني على الفور!

-وكم مرة أخبرتك أنني لست متاحة لإشباع رغباتك طول الوقت يا عبدالله؟! أنا امرأة لدي التزامات نحو زوجي ودراستي! هل تتوقع مني أن أرد على اتصالك البارحة عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأنا مع زوجي في السرير؟! متى ستفهم حدود علاقتنا!

-لعنة الله عليك أنت وزوجك! عندما أتصل تجيبين فوراً هل فهمت ذلك؟! سيأتي اليوم الذي أقتل فيه زوجك وأتزوجك وعندها ستصبحين خادمة في بيتي للأبد!

-حسناً لا بد أنك في حالة سكر، عندما تعود لرشدك اتصل بي، سلام!

-ألو! ألو! ألو! تباً لك يا ابنة ال... انقطع الإتصال

طلب رقمها مرة ثانية وثالثة ولم تجب... أجابت في المرة الرابعة

-ماذا تريد؟! أنا في طريقي للبيت وسيأتي زوجي ليقطني في أي لحظة، أرجو أن تقول كل ما لديك بسرعة!

-أنا آسف يا ربى أرجوك سامحيني ولكنني اريدك الآن! أرجوك أنا بحاجة!

-لا أفهم ما بك ولكن صدقني لا يمكن أن أراك الآن، زوجي في الطريق، لقد أنهيت محاضراتي للتو وسأذهب معه للمنزل ثم سأنذهب لزيارة أهله... ربما لن أستطيع رؤيتك قبل أن يذهب بعد يومين إلى دوامه

-لا لا لا هذا مستحيل سأمر الآن وأخذك لتذهبي معي إلى أي مكان عام لنجلس فيه، اتصلي به وأخبريه أن صديقتك قابلتك في الطريق وأنت لم تريها منذ فترة طويلة وأنكما ستذهبان للجلوس في المقهى لساعة واحدة ثم ستوصلك بنفسها للمنزل... هيا أنا في طريقي إليك يا حبيبتي وشمعة حياتي! أعدك بأنني سأحضر لك هدية لم تحصل عليها أنثى قبلك، فقط افعلي كما أخبرتك، سيصدقك هذا الساذج بسرعة فهو يحبك كالمراهقين...

-لا بد أنك جننت! بالتأكيد لن أفعل هذا! لن أكذب على زوجي! قلت لك منذ بداية علاقتنا أنني سأخصص لك فقط وقت فراغي وأنت وافقت أما أن تأخذ من وقت عائلتي وزوجي فهذا شيء لن أسمح به أبداً!

-سأتصل بك عندما أكون قريباً من الجامعة...

خرج عبدالله بسرعة كالمجنون لمقابلة عشيقته المتزوجة التي كان يزورها ويستغل غياب زوجها وينام عندها ويمارس معها كل ما توقف عن ممارسته مع وجدان منذ عدة سنوات.... هي الوحيدة بين عشيقاته الكثيرات التي استمرت معه حتى الآن،

كان يحبها ويطلب منها دائماً أن تترك زوجها لأجله... يحضر لها كل ما تطلبه ورغم هذا لم يشعر يوماً بأنها تستغله فما تقدمه له لا يقدر بثمن برأيه، تلك الفتاة العشرينية سلبت عقله وقلبه فهي بارعة في الحب، كانت تسيطر عليه، عندما يأتيها في المساء متعباً مثقلاً بهموم العمل كانت تستقبله بأبهى صورة ولا تتركه عند الصباح إلا وقد عادت إليه حيويته وكأنه شاب في العشرين من عمره، كان يجد عندها راحته ولكن زوجها كان يقف عائناً أمام زواجه منها اضافة إلى خوفه من أن يؤثر ارتباطه بها على وضعه الاجتماعي فعلاقته بها بهذه الطريقة لا تضع عليه أي التزامات تذكر،،،،

وصل إليها وبدأ يسير إلى جانبها بسيارته وفتح النافذة وطلب منها أن تركب معه

-أرجوك أن تذهب يا عبدالله! لا تضعني بموقف محرج!

-اصعدي الآن لن نتأخر

-عبدالله هل جنت؟! أرجوك ابتعد! الناس بدأوا بالتحديق بنا! هل تجده أمراً عادياً

أن تقل فتاة من قارة الطريق بسيارتك الفارهة!؟

-سأنزل وأخطفك أمام الناس! لا تدفعيني للقيام بأعمال جنونية! تعرفين أنني قد

أفعلها ان استمررتي بالرفض!

راقب أحد المارة المشهد فتوقف ليشاهد ما سيحدث فصرخ عبدالله في وجهه وهدده بأنه إذا لم يلتفت لشؤونه فسينزل من السيارة ويلقنه درساً، ولعلم ربي بمدى جنون عبدالله فتحت باب السيارة وركبت إلى جانبه وألقت دفاترها في الكرسي الخلفي وطلبت منه أن يغادر بسرعة قبل أن يسبب لها المزيد من المتاعب، انطلق عبدالله بسرعة جنونية ووصل إلى مقهى فخم لم تحلم ربي يوماً بالمرور بجانبه، حياه صاحب المقهى بعد أن عرفه وسار معه إلى طاولة خاصة بعيدة عن الضوضاء، طلب منه عبدالله كأسين من الليمون وأخبره بأنه لا يرغب بأن يزعجه أحد، جاء النادل فوضع الكأسين فأعطاه عبدالله عشرين ديناراً وطلب منه أن لا يعود لأخذ الكؤوس الفارغة...

-ستضيع نقودك بتبذيرك هذا، هل تعرف أن هذه النقود تكفيني لأسبوع؟!

-ولماذا يا حبيبي التقتير؟! أنفقي ما تشائين وأين ما تشائين، هل سبق أن طلبتي شيئاً ولم أحضره لك؟! فقط اطلبي وتدلي

-دعنا من هذا الحديث الآن، هل كان عليك أن تجليني إلى هنا بهذه الطريقة وكأنك خطفتني! هل يمكن أن تقول ما لديك بسرعة!

وقبل أن يبدأ بالحديث رن هاتفها

-ألو، أهلاً يا حبيبي، نسيت أن أتصل بك لأخبرك بأن صديقتي صفاء قابلتني بالطريق ودعتني إلى مقهى قريب لمناقشة مادة الإختبار النهائي، كيف لا تعرفها؟!

صفاء صفاء التي تحضر معي مادة الإقتصاد الجزئي! اه يا حبيبي لقد أصبحت تنسى كثيراً! سأبحث عن رجل آخر إذا لم تتحسن ذاكرتك، ههههه ها هي صفاء تضحك عليك، هل ترضى بذلك؟! لا لا هي ستوصلني بعد قليل إلى المنزل، لا تأتي، حسناً لا تخرجني بهذا الكلام سيصبح وجهي أحمرأ أمام صديقتي!! وأنا أيضاً أحبك، إلى اللقاء...

- ما أجراك في الحديث عن رجل آخر أمام زوجك وأنت تجلسين معه! !

- ان أكثر الأماكن أمناً للإختباء تحت الشمس تماماً...

- إلى متى ستستمرين بالإختباء؟! !

- استمتع بانتهاك القوانين الحالية الى أن يستوعب العالم قوانينك تدريجياً

- ولكنني لا أستطيع الإختباء أكثر!

- النساء المتعلقات يتعاملن مع قلوبهن كأنهن سرقة من منزل مهجور ويوماً ما

سيأتي صاحب المنزل مطالباً بممتلكاته المسروقة في غيابه.....مع أنه ليس نادماً

على تركه دون حراسة

- ولكن هذا ظلم كبير متى سترأفين بحالي؟! انظري إلى جسدي النحيل! لقد

قتلني صدودك!

-الأوطان والنساء لا تؤمن بالكلمات ايمانها بالدماء.....-هل تريدن أن أقتله من أجلك؟! سأفعلها! أقسم أنني سأفعلها

-تماسك قليلاً يا حبيبي! ألا يمكنك أن تكون خلاقاً أكثر! هناك ألف طريقة للتخلص منه دون قتله! ثم أن زوجي ليس العائق الوحيد أمام نجاح علاقتنا

-أخبرني بها واحدة واحدة وأنا سأزيلها كلها، لا يمكن أن تتخيلي سعادتي وأنا أقترب من تحقيق حلمنا!

-أولاً أنا بحاجة إلى المال من أجل دراستي ومن أجل عائلتي أيضاً، ثانياً أريد أن تطلق زوجتك، ثم تكتب لي إحدى الشركات بإسمي، وبعدها يتبقى تفاصيل صغيرة سنهتم بها في وقتها، نعم صحيح قبل أن أنسى متى كانت آخر مرة أهديتني فيها شيئاً ثميناً؟!

-كل هذا سيحصل، طلباتك أوامر، هل ترضيكي ماسة في الوقت الحاضر؟

-كلالنساء يعشقن الرجل المخلص الذي يحضر لهن في كل سهرة لأولوة جديدة ولكن ان لم يكن مخلصاً...يصبح اللؤلؤ ضرورة

-ماذا تقصدين يا ربي؟! أنت تعرفين مدى اخلاصي لك! أنت أمنية حياتي التي أريدها أن تتحق الآن قبل الغد!

-هههههه أضحككتني يا رجل! وأنا أريد أن تتحق أمانى هذه اليوم قبل الغد وإلا فلن تحصل على ما اعتدت على الحصول في كل زيارة تأتي بها إلى منزلي..

-لا أرجوك، سيتحقق كل شيء تطلبينه، ربى أنا أمر بأزمة حادة في العمل، أكاد أخسر كل ما أملك، لا أحد لي ألجأ إليه سوى أنت! كوني حنونة معي، إذا خسرتك فقد خسرت كل شيء، أريد أن أكون قريباً منك وحسب، فقط اشعري معي، أرجوك!

-أرجو أن لا تكون تلميحاتك هذه تشير إلى أنك ستقصر في شيء من أشتائي التي طلبتها؟!؟

-لا لا لا طلباتك محفوظة من المساس بها فأنت على سلم أولوياتي

-اذن متى ستعطيني دفعة من المال، اقترب التسجيل للفصل الجديد

-عندما نخرج سأمر على الصراف الآلي وأسحب لك المبلغ الذي تحتاجينه، فقط لو أفهم كيف يعتقد زوجك الأحمق أنك تدرسين وتشتري فساتيناً جديدة وتنفقين بإسراف ودخله لا يتجاوز الأربعمئة دينار؟!؟!

-أنت قلتها! أحمق....سيدي بعض النساء كفراشة متوحشة، كجهنم تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى

-حقاً أنك ماكراً وشريرة، لا بد أنك تستخدمين دموعك في كثير من الجولات لإلقاءه صريعاً!

-النساء لا يختلفن في الدموع، ولكن الأجل أكثر ايلا الفعل

-ولكنني لا أحتمل رؤية دموعك حتى لو كانت غير حقيقية، وسأفعل ما أستطيع لمنع سقوطها

-سلاح المرأة الأخير الذي تعتقد أنها برميها تكون خسرت المعركة هو قدرتها على اقناع الرجل بانها لا تزال بالنسبة له جزيرة غير مكتشفة....وذلك يتضمن أن عليه ان يستخدم مصطلحات لها وحدها....ثقافة لغوية تناسب عظمتها....تصرفات تلائم تفوقها على بقية النساء....قوة ملاحظة تجعل من كل حركة تقوم بها ظاهرة يجب عليه ان يدرسها....لذلك أيها الرجل تابع التفاصيل قبل أن تغوص في صلب الوصف...كن مبهمًا في وصفها كأنك على شفا العجز عن ادراك كينونتها....هي تتكشف أمامك أكثر كضباب يخترقه شعاع كلما أمعنت في (قبل)و(بعد)الفعل

-دون أن تلمحي للأفعال فأنا لا أفكر سوى بإحتضانك والبكاء فوق صدرك كلما ضاقت علي الأرض! فأنا أحبك وكل ما أطلبه منك أن تبادليني هذا الحب الذي أموت بسببه كل يوم!

- لم أصل بعد لهذه الدرجة من اليأس

-هل شككتي يوماً بحبي لك؟

-المرأة كالعطر لا تغفر لمن لا يجيد تذوقها ... إن سمحت لك امرأة بأن تتنفسها فعليك أن تبتلعها حتى آخر رممق...فقط شهيق مستمر حتى تحتنقا معاً...المرأة كالوردة إما أن تقطفها بأشواكها وتظل تتنفس شذاها حتى تجف لوحدها وإما أن لا تقترب من الحقل أصلاً...إياك وتذوق العطور...إياك والتجربة...إياك وازدراء زهرة حساسة...إياك تفضيل احداها...فقط وجهة واحدة بقوة...نحو الموت ممسكاً بيدها...

-لا تقارني قدرتي على التعبير عن حبي بقدرتك على التعبير عنه فأنا أملك قلبي وأنت تملك قلبي وقلبي

-المرأة بحاجة إلى الرجل إلى أن يخبرها بذلك... فأنا بحاجتك لقضاء أشياء كثيرة ولكن ما أن تبدأ باستغلال ذلك فلن تجدني إلى جانبك أبداً... حاول أن تفهم ذلك.. أنا أعرف أنه دائماً ما تأتي القرارات الغبية بعد الراحة فلذلك فلن أجعلك تذوقها معي أبداً... سأظل المستحيلة في حياتك!

-ما هذه بتصوير واقعنا! أنا أرى مستقبلنا واعدأ جداً

-لا يمكن أن تكون بشعاً وأنت تصف ما يحدث؛البشاعة أن نصوره بأنه جميل

-ليس هذا ما جئت لأحصل عليه يا ربّي، أنا أريد من يسندني ويدشد على يدي وليس من يذكرني بصعوبة الطريق! الأمر كله بيدك، أنت تستطيعين ان شئت أن تنتهي هذه المغامرة بأفضل النتائج، فقط فكري بما قلته لك وأعلميني بأسرع وقت لما توصلتي إليه... والآن هيا لأحضر لك النقود وأوصلك إلى منزل ذلك الأحمق...

-حسناً سأفكر، في المرة القادمة حاول أن لا تتصل بي قبل أن أخبرك بأن الوقت مناسب...

روح الانتقام

-صباح الخير أيها الشيخ!

-أهلاً بخالد، أراك عدت بسرعة!

-أحضرت الأغراض التي طلبها مني أحمد، هل بإمكانك رؤيته والسلام عليه قبل أن أذهب؟

-طبعاً ولكنه لا يزال نائماً، لماذا لا تأتي لتشرب الشاي معي حتى يستيقظ؟

-حسناً لا ضير في ذلك، بالتأكيد لن يفتقدني عبدالله فهو مشغول مع عشيقاته...

-تفضل خذ هذه الكأس وأخبرني ما سر حقدك الدفين على عبدالله

-لست حاقداً عليه، حاقداً على ما أوتي هو وكل من على شاكلته بلا أدنى جهد يذكر! انظر إلي! شاب بدأت من الصفر ورسمت طريقي لوحدي دون مساعدة من أحد وكنت متفوقاً وكنت أعمل وأدرس في نفس الوقت! صنعت لنفسي اسماً من لا شيء، أنا قادم من قاع الفقر يا عمي، وماذا تتوقع أني وجدت بعد كل هذا؟! وجدت نفسي مضطراً للعمل لدى الآخرين يتحكمون بي!

-اذن هو حقد طبقي!

-سمه ما شئت ولكنني ولدت هكذا عنيداً مشاكساً لا أَرْضى بالمهمات السهلة، أنا أرى أن من حقي أن أكون مثل عبدالله بل أفضل منه!

-ولكن يا بني الحياة لا تؤخذ بالقوة! أو لأكن صادقاً معك، لا تؤخذ بهذه القوة! لا يمكنك أن تغير كل شيء لا يعجبك، لقد خلقنا الله باستعدادات تناسبنا فإن نحن قاومناها تعبت أرواحنا وأجسادنا قبل أوانها، فنحن ولدنا وكوكب الأرض جميل....كلنا نتوقع أن أداءنا سيكون أفضل لو كان أجمل... أعطني شخصاً واحداً سعيداً بما هو عليه ولا يبحث عن الأفضل، كلنا بطريقة ما نلعن حاضرننا ونريد تغييره ظناً منا أن السعادة في مكان آخر ومع أشخاص آخرين... يجب عليك أن تصل إلى مرحلة الرضى التي يقول عنها تولستوي في روايته سيروا في النور ما دام النور معكم((وبفضل الله نحن محصّنون ضد أشد هذه الآلام رهبة، لأن السعادة التي ننشدها ليست في الحصانة من الآلام الجسدية ومن الموت بل في الحفاظ على الرضا بجميع صعوبات الحياة وتنمية هذا الرضا، في الإقناع المعزّي بأن كل ما يصيبنا مستقلاً عن ارادتنا فهو لا بد منه، وهو من أجل راحتنا، ولا سيما في اليقين بأننا مخلصون لضميرنا وعقلنا، وهما المشعلان اللذان تمسك بهما الحقيقة كدليلين للإنسان))كل ما يصيبنا لا بد منه! يالها من عبارة مذهلة تستحق التأمل!

هل تصدق أنك ذكرتني بأبي يا خالد! فلطالما التقطني أحد العابرين أمام منزلنا وأنا جالس أنا وهي أطعمها بالملقعة وألملم ما تساقط من فمها هنا وهناك. ولطالما سمعت كلام المديح الذي ينتقل بسرعة في القرية بأن فلاح (رضي والدين) وأن النساء يعتقدن بأنني مبارك وأنها محظوظة تلك الفتاة التي سترتبط به لأنه سيكون حنوناً معها..... ولكنهما سببان فقط في الحقيقة يجعلاني استمر بما أفعل وهما: ١: المتعة الخالصة؟: استشعار حماية ورعاية وحفظ الله لي في كل ما أفعل، وأي سبب دون هذين السببين هو محض شعور عابر لا يسمن ولا يغني من جوع..... صدقني ولن أكون قاسياً ان أخبرتك: لا مديحهم يعنيني ولا نقدهم يؤذي، ولا شيء أتقرب به الى الله سوى صدقي معه في الجهر والعلن..... كنت حينها أعيش حالة من الرضا بأن ما أصابها كان لا بد أن يصيبها! وعندها سكنني شعور من الطمأنينة والراحة لما يحدث لها، وبدأت استمتع بالظروف التي أوجدني الله وسطها لأنني على يقين أنني الأنسب لها وأنها الأنسب لي، ان فقه الابتلاء علم عظيم من تبحر به وجد خيراً كثيراً وطمأنينة تسكن أعماقه وإيماناً ويقيناً يغمر روحه، فمن الذي كان يتوقع أن تبتلى مريم في عفتها وهو أكثر ما تميزت به؟؟ ومحمد عليه الصلاة والسلام في عرضه؟؟ ويوسف في جماله؟ وداود في فهمه لغة الطيور؟ ونوح في ابنه العاق؟ وإبراهيم في ذبح أعلى أولاده؟؟ وكليم الله ببني اسرائيل؟ وعيسى بن مريم بأن جعله قومه وأمه الهين من دون الله؟؟ ان أعظم عبادة تقاعسنا هي هي عبادة التأمل وفتح كتاب الكون وكتاب الله والابحار فيهما لعلنا نغترف منهما ما يعيننا على زيادة الوعي والفهم والادراك.....علينا أن نحرر

عقولنا و نثور القرآن كما قال عثمان رضي الله عنه، ونستخدم حواسنا للاتصال بالله والتقرب منه بمعرفته حق المعرفة وليس نصفها أو ثلثها أو ربعها، ، فلا نعرف الرحيم ونترك شديد العقاب، ولا نعرف الغفور ونترك أنه ذو انتقام، ونعرف الهادي ولا نعرف الرازق،،،،،

-رحمها الله، لا بد أنه كان ابتلاء عظيمًا، أنا أؤمن بأن الإنسان عليه أن يقاتل من أجل حياة أفضل فأنا أيضاً جربت الابتلاء وخبرته، لذلك تجدني ناقماً على كل من هو غني و ثري، قلت لك بأنني من عائلة فقيرة، عندما أبصرت عيني العالم على حقيقته وبدأت ألمس ما يمكنني الحصول عليه فيه داهمني شعور بأن الوقت قد تأخر وأن علي أن أغترف من الدنيا ما استطعت كرجل جائع وجد نفسه فجأة أمام مائدة عظيمة مليئة بالملذات وأمامه وقت محدود ليتناول منها ما استطاع! وجدتني أهجم عليها كالمتموحش أريد أن ألتهمها كلها! انه الحرمان بأقصى صورته يا عم!!

-انظر الى الأغبياء كيف يمتلكون ثلاثة أرباع الدنيا.....مع ذلك يتدافعون معنا لمنعنا من الربع الذي نستمتع به.....هم يطمعون لربعنا ونحن نطمح لمنحهم إياه.....هذه هي السعادة الحقيقية هل فكرت يوماً بأن لديك شيئاً يتمنى عبدالله أن يمتلكه مقابل كل ثروته؟!

-لم أفكر يوماً بما يمتلكه الآخرون، أنت لم تفهمني، أنا أرى أن من حقي أن أحصل على الأفضل وسأقاتل لك أحصل عليه ولن أضيع يوماً آخر من حياتي

فقيراً، لو أنني أفكر مثل الآخرين لتبعت الطريقة التقليدية وتقدمت لوظيفة حكومية وتسلسلت فيها لأجد نفسي بعد ثلاثين عاماً على باب دكان أطلق النكات الساخرة على المارة ولكن هذه ليست حقيقة خالد، خالد ولد ليصبح انساناً عظيماً ولن يعيقه أحد عن الوصول لحلمه...

-يا لها من جلسة هادئة، كيف تستطيع يا عمي أن تجلس معه وقد كان قبل يومين فقط يحاول قتلك أو يحاول تهديدك عالأقل بأنه سيعذبك أشد العذاب!

-اجلس يا أحمد وتوقف عن كيل الإتهامات لخالد، هو ضيفنا اليوم وقد أحضر لك أشياءك التي طلبتها منه، لماذا لا تشكره على تجشمه عناء السفر وتجلس لتشاركنا كأس الشاي ومن ثم...

-من ثم تحاول رأب الصدع بيننا أنا وخالد أليس كذلك؟! لا أظن أن ذلك سيحدث! فخالد سيوصلني بسيارة أبي الفارحة التي ينتقل بها دائماً والمملوءة بالوقود دائماً إلى مكان قريب ثم يعيدني قبل المساء ان شاء الله

-ولكن يا أحمد والدك بانتظاري ولا يمكنني أن أتأخر عليه!

-نعم وإذا تأخرت سيضطّر لاستخدام أحد سيارات الأجرة للتنقل بها! لن تذهب قبل أن ترافقني في رحلتي هذه! سيتدبر أبي أمره!

-ولكن يا بني ألن تخبرني أين ستذهب؟

-لن نطيل الغياب، سأبيت الليلة عندك ان سارت الأمور كما هو مخطط لها...

-بدأت تقلقني يا أحمد!

-اطمئن يا عم...هيا بنا يا خالد، ضع الأغراض في الخيمة ودعنا ننطلق....

أنزل خالد الأغراض على عدة دفعات بينما كان أحمد يشرب الشاي مع الشيخ وفي كل مرة يمر أمامه يبتسم له أحمد ويرفع كأس الشاي في وجهه ويقول له : ما ألد شاي الحطب، ليتك تجد الوقت لتناوله معنا يا خالد ولكننا على عجلة من أمرنا.... حاول الشيخ أن يردع أحمد عن تصرفاته الصبانية ولكن دون جدوى، ، وضع خالد آخر دفعة من الأغراض وركب السيارة مودعاً الشيخ، ركب أحمد إلى جانبه وأمره أن ينطلق بسرعة...

-هل أحضرت هاتفي؟

-تفضل

-والنقود؟!

-في الحقيقة في الخلف

-هل سألك أبي عن أحوالي؟

-قلت لك بأنه مشغول في مشاكل مالية، أعتقد أنه نسي تماماً أنك هنا

-وأمي؟

-لا أعرف ماذا أخبرها والدك عن مكان وجودك ولكنها لم تسألني عنك، كأنها مطمئنة أنك بخير

-وهل كانت لتكثر لو كنت غير ذلك؟؟؟؟!!

-أين سذهب؟!

-إلى مضارب الشيخ سليمان!

-أين تقع؟ ولماذا نذهب إليها؟ وماذا سنفعل هناك؟

-لا بد أنها إحدى القرى القريبة، سنبحث فيها كلها حتى نجد شاباً اسمه سالم، هو ابن الشيخ سليمان، سألقنه درساً صغيراً في الأدب ثم نعود، ويا حبذا لو كان أصدقاءه معه ليحلوا اللقاء!

-ولكن يا أحمد! كيف ستهاجم على قرية كاملة وحيداً؟!

-لست وحيداً فأنت ستقتحم القرية معي!

-ولكن ولكن ولكن

-لهذا أحضرت حقيبة الأموال، أنا أعرف أنك قد تهاجم دولة كاملة مقابل نصف ما في الحقيبة

-فقط أخبرني ماذا فعل لك سالم هذا؟!

-الآن أصبحت مهتماً بالتفاصيل؟!-

لم يجبه خالد الذي لا يكره شيئاً في الحياة كرهه لصراحة أحمد وجسارته، ولم يكن يعرف ما الذي يجعله صابراً على تصرفاته! ضغط أحمد على بعض أزرار هاتفه باحثاً عن رقم ما واتصل به

-هل أنتم جاهزون؟ سأرسل لك الآن موقعي عبر الواتس اب لتنطلقوا، أنا لا أعرف أين المكان الذي سنتجه إليه بالضبط ولكن تعالوا إلى هذا الموقع وقبل أن تصلوا برقع ساعة اتصلوا بي، هل أحضر محمد شاحنة والده الكبيرة؟! ههههه سيكون يوماً ممتعاً يا الله ما هؤلاء الأصدقاء المجانين الذين لدي! هيا فلتذهب إلى الجحيم أنت وإياه هههههه

-لم تخبرني أن هناك من سيأتي معنا!

-اطمئن، لن يقتسموا الأموال معك!

دارا في السيارة على أغلب القرى المحيطة وكانا يستفسران عن بيت الشيخ سليمان حتى دلهما عليه أحد أصحاب الدكاكين وعندما وصل أطراف القرية اتصل أحمد مرة أخرى ببهاء وأكد له الموقع وأخبره بهاء أنه لا يزال أمامهم نصف ساعة للوصول، لم يكتثر أحمد وقرر الدخول إلى القرية هو وخالد قبل أن يصلا...

دخلا القرية ببطء وسارا عبر شوارعها الترابية و بعد مسير خمس دقائق قابلهم تجمع كبير لسيارات شرطة ترافقها سيارة اسعاف، كان الجميع متجمعين حول شيء ما، طلب أحمد التوقف ونزل بسرعة، وانتبه لخالد الذي وضع يده على سلاحه ولكن أحمد حذره من الإتيان بأي حركة ما لم يأمره بها... اقترب أحمد من الحشود وخالد بقي بعيداً يترقب... بدا واضحاً من الأصوات أن هناك شخصاً ملقياً على الأرض والبعض يحاولون اسعافه... شعر أحمد بالإنارة فقرر أن يقترب أكثر فكانت صدمته كبيرة عندما شاهد سالم ممدداً على الأرض والدم يخرج من أكثر من مكان في جسده حتى باتت ملامح وجهه غير واضحة ولكنه عرفه! بالتأكيد سيعرفه فأحمد لا ينسى أعداءه، أكدت جميع الردود على أسئلته بأن أحد أعداء سالم الكثيرين قرر أن يضع حداً لطغيانه فجاء لمنزله وطعنه عدة طعنات ثم هرب... تذكر أحمد قول الشيخ بأن من يترفع عن انتقامه يأتي شخص آخر ليتمه له، كان وجهه يبتسم ابتسامة انتصار بغير شماتة فكان دروس الشيخ كانت بحاجة لتطبيق عملي كي يؤمن بها... تراجع إلى الخلف ووقف إلى جانب خالد وأخبره بأن عليهما أن ينتظرا قدوم مجد وبهاء قبل أن يغادرا كي لا يشك أحد في أمرهم، طلب منه خالد أن يغادرا ويتصلا ببهاء ولكن أحمد رفض مبرراً رفضه بأن المهمة لم تنتهي بعد....رن هاتف أحمد فوصف المكان لبهاء وفعلاً لم تمر خمس دقائق وإذا بهما يصلان إلى المكان، كانت الشاحنة ملفتة للأنظار فابتعدا عن الحشود المشغولة بإسعاف سالم وأشار لهم أحمد بأنه وعد الشيخ بأن يعيد له

أغنامه! استغرب الجميع من طلبه ولكنهم لم يقطعوا هذه المسافة ليعودوا دون مغامرة مثيرة...

اتجه أحمد إلى البوابة الخلفية لمنزل سالم وقفز بحفة إلى الساحة التي كان فيها الكثير من الأغنام وبدأ بسحب رؤوس الأغنام كأنه ولد في مزرعة لتربيتها! حاول بهاء مساعدته ولكنه أمره بأن يتوقف فهو لن يأخذ سوى أغنام الشيخ والتي كان يعرفها جيداً رغم عدم مشاهدته له سوى مرة أو مرتين في القرب من خيمة الشيخ! أتم الجميع المهمة وانطلقوا في الشاحنة خلف سيارة خالد ووصلوا القرية متأخرين وكان الشيخ قد نام... وقف أحمد عند رأسه وقال له : قلت لك بأنني سأعيدها لك... نم مطمئناً

روح الخذلان

ما أن ظهرت قدي وجدان وهي نازلة عبر السلم اللولبي الذي يتوسط المنزل حتى نهض عبدالله وكأنه يستعد للنزال الأخير، أخذ نفساً عميقاً وتقدم ليقابلها عند نهاية الدرج...

- إلى أين أنت ذاهبة

- منذ متى تهملك وجهتي؟!

- منذ اليوم!

- سأخرج مع صديقتي لغداء عمل!

- لن تخرجي إلى أي مكان، عودي إلى غرفتك واخلي ملابسك وانتظري حتى يحين موعد الغداء وانزلي لتناوله مع زوجك، أنا أهم أولوياتك!

- اااا يا إلهي! عبدالله يرغب بممارسة قوامته على زوجته، سامحني يا زوجي العزيز لم استطع أن أخفي دهشتي! ولكن لماذا لا تترك لزوجتك حرية الاستمتاع بهذا اليوم المشرق ومرافقة صديقاتها اللاتي ينتظرنها!

- وجدان! ما الجزء الذي لم تفهميه؟ قلت لك عودي إلى غرفتك وغيري ملابسك! ستتناولين الغداء معي!

-أوووه ألن تكف عن ازعاجي! قلت لك بأنني مدعوة للغداء! أنت أخبرني ما الجزء الغامض في كلامي!

-وأنا أقول لك بأنك لن تذهبي إلى أي مكان وأنتك من الآن وصاعداً ستخبريني بمجدول أعمالك وسأوافق على ما يناسبني وسأرفض الباقي...

-حسناً هذا النقاش بدأ يأخذ منحى غريباً بعض الشيء! هل تقصد أنك حلمت البارحة بشيخ يأمرك بترويض والسيطرة علي واليوم بدأت بتفسير الحلم! أنت شخص تسير حياتك على الأحلام والكوابيس، ولنا في تجربة أحمد خير برهان!

-وجدان توقفي عن الفلسفة الزائدة!

-لن أتوقف عن شيء! ما هذه المهارات التي تحاول افساد صباحي بها!

-انها المهارات التي سيسير هذا المنزل وفقها منذ هذه اللحظة!

-لن ينطبق ذلك علي...

وسارت أمامه تدرع الأرض بكعبها ولكنه أمسكها من ذراعها وشدها إلى الكنبه التي تتوسط الصالة، لم يدرك كيف أتته القوة والجرأة لفعل ذلك ولكنه كان مصمماً أن يغير كل شيء بعد هذا الموقف... نظرت وجدان إليه مشدوهة وخانتها الكلمات فلم تقل سوى : عبدالله! ماذا تفعل؟!!

-أفعل ما كان يجب علي فعله منذ سنوات! اسمعي يا وجدان دعينا نتحدث بصراحة وليقل كل واحد منا ما لديه لنضع النقاط على الحروف، ولنتوقف عن خداع أنفسنا ولنسمي الأشياء بمسمياتها وليعرف كل واحد منا مكانته في حياة الآخر... لقد مللت من هذه المسرحية...

-حسناً، ليكن! هل تحب أن نبدأ بعشيقاتك اللاتي لا حصر لهن؟! أم ترانا نتحدث عن اهمالك لي كزوجة ووضعي على هامش أولوياتك؟! ألم أكن أنا دميته التي تزدان بها حفلاتك وسهراتك؟! ألم تفكر يوماً بشعوري كأنتى عندما تنتقص من قيمتي وتعاملني بلا انسانية وتسخر مني أمام أصدقائك فقط لتحصل على صفقة مالية تزيد من ثروتك؟! ما مفهوم العائلة لديك يا رجل؟! متى كانت آخر مرة قلت لي فيها أحبك؟! أتحسبني بلا مشاعر ولا أحاسيس! لقد كنت أموت كل يوم مئة مرة! أحبس نفسي في غرفتي وأحتضن وسادتي وأبكي طول الليل وحدي وأتمزق وأنا متيقنة أنك تتقلب في أحضان فتياتك اللاتي كنت تفضلهن على زوجتك وابنك الوحيد!

كانت وجدان تتحدث ودموعها تسح فوق وجنتيها وقد ألقت حقيبتها ورفعت وجهها تحديق مباشرة في وجه عبدالله الواقف بصلاية كأنه يستمع لأغنية كلاسيكية مملة... ابتعد إلى الخلف قليلاً وبدأ يصفق بيديه كمن يحيي فرقة موسيقية لم يستمتع بأدائها...

-أحسننت أحسننت أحسننت لم أكن أعلم أنك بارعة إلى هذا الحد في التمثيل والإدعاء! أيتها الملاك البري! أيها الحمل الوديع! أين كانت كل هذه المسكنة عندما كان أحمد يضيع من بين يدينا؟! هل كنت تعرفين مع من يخرج وأين يخرج؟! بالتأكيد لا فأنت مشغولة بمساهماتك المجتمعية! عشيقاتي كن يمنحني ما أنت لم تكوئي تمنحني إياه! كنت تريدني بنكاً متنقلاً لفساتينك ومجوهراتك! هل تريدني أن أتحدث عن المكانة التي حصلت عليها بسبب زواجك مني؟! هل أذكرك كيف يعامل والدك الفتيات في عائلته؟! ألم أخرجك من ضيق حياته إلى سعة قصوري وسياراتي الفارهة؟!

-هل تمن علي الآن بأنك كنت تنفق علي؟! هل هذه مكافأتك لي بعد هذه السنوات التي كنت أقف خلالها إلى جانبك وأدعمك وأساندك؟!

-عبدالله لم يساعده أحد! ليس لأحد على وجه الأرض حق علي ولا منة! أنا صنعت هذه الثروة بنفسني وحافظت عليها حتى أصبحت بهذا الحجم!

-الثروة التي ورثتها من أمك التي لم نعرف من أين جاءت بها!

-اخرسي! اياكي أن تتفوهي بكلمة واحدة عن أُمي فهي أظهر وأشرف منك ومن عائلتك كلها!

-استمر بإساءاتك أكثر فما الذي سيخرج من رجل مثلك يفتقد حتى لأبسط معاني الشهامة

-دعيني أعبر عن ما بداخلي فأنا أكاد أختنق من صمتي طول هذه السنوات! هل تعرفين من أنت حقيقة؟! أنت الشيء الوحيد الذي كان يعطل فرحتي! انظري إلى حنجرتي (رفع اصبعي السبابة والإبهام ووضعهما على حنجرتي من الخارج) أنت كنت تقفين هنا دائماً كلقمة تمنعني من الاستمتاع بتناول طعامي! كالغصة! تكبليني عن الإنطلاق والنجاح! كل فشل تذوقته في حياتي كنت أنت سببه الرئيسي! كانت أمنيتي يا وجدان، أمنيتي أن أعيش معك كزوج وزوجة طبيعيين، نتبادل الحب ونقتسم الأمل، ولكن كيف سأتوقع من فتاة مثلك قادمة من بيئة منغلقة أن تعي هذا الشيء! هذا هو الفرق الذي كان يسبب الفجوة بيننا والتي كانت تزداد كل يوم... كنت صابراً على أمل أن تتغيري ولكنك كنت تزدادين سوءاً يوماً بعد يوم...

-وما الذي كان يمنعك من بصق هذه الغصة من فمك؟ ما الذي جعلك تحتملها عالقة في بلعومك؟! اعترف بأنك كنت خائفاً على مكانتك الاجتماعية وقلقاً من ردود أفعال وسائل الإعلام على انفصال رجل الأعمال عبدالله عن زوجته! كنت خائفاً على انخفاض أسهم شركاتك أكثر من انخفاض منسوب انسانيته! لم تمتلك يوماً قلباً في صدرك! لقد ورثت هذه القسوة من أمك واستبدلت قلبك بحجر أصم وعقلك بحاسبة تتابع زيادة الأصفار في ملايينك! وتعبرني الآن بأبي وعائلتي الذين ربوني أن لا أخون ولا أنافق ولا أخدع! أنا ابنة رجل شريف عفيف وطاهر لم يدنس عرضه يوماً ولكنك أنت من لم تدرك قيمة الكنز الذي أهداك إياه أي ظناً منه أنك رجل وستقدر قيمة هذا الكنز وتحافظ عليه! كل ما يعينني لأنني ابنة

كرام أن تكون متأكداً أن جسدي هذا لم يمسه رجل سواك وأنا لن أخن عهدنا وميثاقنا، أما أنت فلا أعرف ان كنت تستطيع اثبات اخلاصك لهذا العهد وليس لي فأنا بالتأكيد لا أرتجي منك شيئاً...

- وكل تقصيرك نخونا أليس خيانة؟ لماذا لم أشعر يوماً بأنني متزوج! بالله عليك أخبريني كيف سأطيق قيودك التي كنت تريدني ربطها حول معصمي؟ هل تريدني أن أظل حبيس البيت أقدم لك قرايين الطاعة وأمتثل لأوامرك، أنا أيقونة اجتماعية لا يمكن لي أن أعتزل الناس! هل تريدني تدمير مستقبلي من أجل حياة الرتبة والملل التي تحاولين دائماً فرضها علي! أنا روجي لا تقبل القيود! حرة تحب التحليق في السماء وفوق الغيوم! ماذا قدمت لهذه الروح؟! هل شجعتني على التحليق أم أنك وقفت في طريق كل ما يسعدني ويجعلني فعلاً أشعر بالحياة و الحب؟! نعم أنا أحب نفسي وأموالي وأفسو على كل من يقترب منها ولكن أنت ماذا فعلتي لتأقلمي مع زوجك وتبلي رغباته؟! ماذا كان ينقصك لتقومي بدورك كزوجة تجاه زوجها؟!

- كان ينقصني الاهتمام! أنا أنثى! هل تعرف ما الذي يجعل أي أنثى تزهر أو تذوي؟! انه الحنان والاهتمام! سنوات شبابي كلها ذابت تحت قدميك والآن تأتي لتقول لي بأنني مقصرة بواجباتي كزوجة! وأنت ماذا قدمت من واجباتك التي هي حقوقي؟! لقد كنت أناضل من أجل عائلتنا وأقول في نفسي غيمة صيف عابرة وستمر! لا بد

أن شعلة الحب في قلبه ستتقد من جديد عما قريب! وهذه المؤسسات والإجتماعات والندوات كلها لم تكن إلا إشغالاً لنفسي بسبب قلة اهتمامك بل عدمه، وقتك كله للعمل! كنت أسلي نفسي بهذه الجلسات النسائية التي أحس بها بمكانتي وقيمتي، الكل يحترمني وينظر لي نظرة اعتزاز وإكبار! ولكن كل هذه المشاعر ما كانت لتعوضني عن حبك! أسائل نفسي دائماً: ما الخلل الذي يجعله يبتعد عني! الناس ينعتونني بالجميلة والأنيقة والرائعة وزوجي الذي أريد أن أسمع هذه الكلمات منه يقتلني ببروده وعدم اكتراثه! لم تعلق يوماً على لباسي وذوقي في وضع مساحيق التجميل، كنت أحاول دائماً لفت انتباهك واثارتك وأنت في كل مرة تزداد قتلاً لمشاعري... يخبرني الآخرون بأنني جميلة ولكن هذا لا يحرك في مشاعري شيئاً لأنني أنتظرها منك أنت! لقد حطمت ثقتي بنفسي واعتزازي بشكلي وهيئتي وجعلتني معقدة نفسياً أنظر في المرأة طول اليوم وأدور حول نفسي عشرات المرات باحثة عن الخلل الذي يجعلك تراني قبيحة عكس كل الناس! ليس هذا فحسب بل أنك بكل نبل وشهامة تجامل هذه وتلك أمامي وعلى مسمعي...

-أنظري إلى نفسك أيتها المرأة أنت في منتصف العقد الرابع من عمرك! ما الذي تتحدثين عنه؟! هل تريدين أن تعيشي مراهقة متأخرة وتعيشي الحب كالأطفال؟! أنت ربة بيت لديك ابن في السادسة عشر من عمره! هل تعتقدين أن الحب يبقى كما هو كلما تقدمنا في السن؟! الحب يتغير بحسب مراحلنا العمرية فنحن لسنا في شهر العسل وللسنا ولهناين نكتب رسائل الحب ونحرقها ونبكي طوال الليل

كالمجانين! الحب لمن هم في مثل سننا هو حب تصرفات ورعاية وأمان وليس حب كلام وغزل وأشعار!

-وهل تطبق هذه النظرية على فتياتك؟ أم أنك تكون كالحمل الوديع والعبد الذليل تحت أقدامهن؟؟ الآن تزدري جسدي وتذكرني بعمرى؟! أنا التي أفنت شبابها في خدمتك أنت وابنك! قدمت لك كل ما أملك، ما ذنبي أنني لم أكن على قدر توقعاتك! بذلت قصارى جهدي لإنجاح هذه العلاقة الزوجية، استخدمت كل أساليبي، غيرت جميع عاداتي السيئة وصفاتي السلبية التي كنت أشك أنها قد تزعجك وتعكر مزاجك! أعد تشكيل نفسي في القلب الذي ظننت أنه سينال رضاك، تعلمت الأشياء التي تحبها وأنواع الطعام الذي تحبه، كنت أكل وأشرب على ذوقك، وألبس كما تأمرني، وأنفق ما تعطيني دون تذمر أو طلبات....حملت طفلك في رحمي تسعة أشهر ثم أرضعته وربيتة وسهرت ليل على رعايته بينما أنت تسهر خارج البيت حتى الصباح ومن ثم أمرتني أن أكتفي بطفل واحد وأنا المرأة التي تعيش لترى أطفالها من حولها ومن ثم...

-ونعم التربية!!!

-أتعلم شيئاً، لن أحتمل المزيد من تجريحك، هل لديك شيء تقوله لي قبل أن أصعد إلى غرفتي؟!

-نعم لدي، أنت طالق يا وجدان...

روح الحب

-ألو، مرحباً خالد، كيف حالك؟ حبيبي متى ستعود إلى المنزل؟

-أهلاً أسماء، أنا في العمل يا حبيبتي، ما الأمر؟

-لا شيء يا فقط أردت أن أطمأن عليك، كنت أشعر بوجع خفيف أسفل بطني ولكن لا بد أنها أمل تركل بطني وتخبرني أنها موجودة و تسألني ان كنا أعددنا لها سريرها الصغير وملابسها التي ستفسدها كل يوم بحليها وطعامها

-أسماء صوتك ليس طبيعياً، هل أنت متأكدة أنك بخير؟!

-نعم يا خالد لا تقلق لا تقلق قلت لك الأمر مجرد مجرب... ااااا خالد أرجوك ااااا

-أسماء! أسماء؟! تحدثي إلي!

كل من كان حينها في ذلك الطابق تركوا أعمالهم وتجمعوا ليعرفوا مصدر الصوت الشركة وقفوا ينظرون لخالد وهو يصرخ كالمجنون بإسم زوجته، انتابته حالة هستيرية من الغضب حتى أنه عجز لبضع ثواني عن الإتيان بأي تصرف سوى أن يضرب يديه على مكتبه كالمجنون ويمزق الأوراق ويلقيها تحت قدميه، ومن سوء حظ عامل البوفيه أنه كان يقف أمامه في تلك اللحظة فكأن خالد يلومه على ما حدث لزوجته- والذي لا يعرف ما هو حتى الآن -فأمسك الصينية التي كان يحملها العامل وألقاها على الأرض وهو يصرخ ويطلب منه أن يغرب عن وجهه...لم

يأت العامل بأي ردة فعل سوى أنه بدأ يجمع زجاج الكؤوس التي حطمها خالد، الجميع في الشركة يعرفون أن خالد لا تتنابه هذه الحالة إلا عندما يخسر صفقة مليونية وعندما تصيبه لا يجرؤ أحد على الإقتراب منه حتى يهدأ ولكن غضبه هذه المرة يشير إلى أن غضبه كان لسبب أكبر بكثير.... اخترق الحشود الواقفة وهو يهزرب بكلمات غير مفهومة...

عم الصمت أرجاء الشركة ولم يقطعه سوى صوت ابراهيم يطلب من احدى زميلاته بأن تتصل بعبداالله وتخبره بما حدث وأن خالد خرج ولحقه ابراهيم وهو لا يعرف أين ذهب...

بالتأكيد لم يكن هناك من يجرؤ على اللحاق بخالد سوى ابراهيم، صديقه الحقيقي الوحيد، ليس بنفس مكانة خالد الوظيفية ولكنهما كانا يتشاركان الكثير من الصفات، أهمها أن كلاهما نشأ في بيئة فقيرة واستطاع أن يقاوم ظروفه حتى يصل إلى ما هو عليه الآن... كان خلافهما الوحيد والذي لا تظهر آثاره في العمل أن ابراهيم لا يحب أسلوب أحمد في استغلاله لخالد، ولطالما قال له بأننا يجب أن تبقى أيدينا نظيفة ونحن لا يمكن أن نكون فاسدين مثلهم ونحن لا نغيرنا الأموال ولا يمكن أن نبيع مبادئنا من أجل المال، ولكن خالد كان يسمع هذا الكلام ولا

يسمح له بأن يتجاوز أذنه الخارجية لأنه يخالف ابراهيم في هذه النقطة الأساسية ولولا أنه صديقه المقرب لما سمح له بأن يناقشه بهذا الشأن على الإطلاق...

انطلق خالد بسيارته نحو منزله الذي كان يبعد ربع ساعة عن مكان عمله إلا أنها قد تتضاعف إذا كانت هناك أزمة مرورية، حاول ابراهيم أن يلحقه ويأخذه بسيارته كي لا يؤذي نفسه ولكن خالد كان قد قطع نصف الطريق، اتصل به ليعرف أين مكانه بالضبط وبدأ يقلق عندما زادت رنات الهاتف دون أن يأتي صوت خالد

-أجب! أجب! هيا هيا هيا! أرجوك أجب!

-ابراهيم أنا متجه نحو المنزل لا أعرف ما الذي أصاب أسماء ولكنها كلمتني وفجأة صرخت بصوت مرتفع! الحقني هناك! لا أعرف كيف سأصرف! ولا أعرف أين سأخذها! لا أعرف ان كانت حية أو ميتة!

كان ابراهيم يسمع الشتائم التي كانت تتخلل كلام خالد والتي كان يوجهها لسائقي السيارات أمامه والذين يعطلون مسيره، ويحاول تهدئته

-حسناً يا خالد كل شيء سيكون على ما يرام فقط أرجوك انتظرنني ولا تدخل البيت قبل أن أصل، اتفقنا؟

-حسناً... قالها ورمى الهاتف على المقعد بجانبه وأمسك المقود بكلتا يديه وهو يعزم على أن لا ينفذ وعده لإبراهيم، كيف سيقف أمام المنزل دون أن يدخل ليرى زوجته! لا بد أن إبراهيم مجنون ليطلب طلباً كهذا من خالد!

كانت هناك في مدخل بيته ثمان درجات قفزها بخطوتين بعد أن نزل مسرعاً من السيارة وهي تعمل وترك بابها مفتوحاً... دخل من باب البيت وهو يصرخ بإسم زوجته ولكنها لم تجبه...ركض إلى المطبخ فوجدها ممددة على الأرض والهاتف ملقى بعيداً عنها والدماء بين قدميها بعضها على شكل كتل متجلطة، كان ترتدي قميص نوم وقد تلتطخ أغلبه بالدماء وكانت إحدى يديها خلف ظهرها، أفزعه المنظر ولكنه وضع يديه أسفل ظهرها وركبتيها وحملها وكانت الدماء لا تزال تنزل منها وركض بها تجاه السيارة وقابله إبراهيم عند الباب فصدم هو الآخر ولكنه لم يسأل خالد سوى عن وجهته فأجابه صارخاً : إلى المستشفى! أين سأذهب بها! واستمر بالجري نحو السيارة إلا أن إبراهيم ركض إلى داخل البيت وعاد ومعه شال أبيض وجده في الصالة ولحق خالد وألقى الشال على رأس أسماء وهي بين يدي خالد وقال له بأن يغطي به رأسها بعد أن يضعها في السيارة، نظر إليه خالد نظرة امتنان ممزوجة بالإعتزاز ولأن الوقت ليس مناسباً الآن لهذه اللحظات العاطفية أكمل خالد ركضه إلى السيارة وكأنه لا يحمل شيئاً وفتح المقعد الخلفي ومدد فيه أسماء ووضع يده على جبينها وقال لها : لن أتركك...

انطلق نحو المستشفى وأشار لإبراهيم بأن يلحقه، وصل بوابة الطوارئ وفتحها بقدمه وصرخ وسط الممر: أريد طبيباً! أين الأطباء! أنقذوا زوجتي! إنها حامل في الشهر التاسع! ركضت بإتجاهه ممرضة ملهوفة ربما بسبب حسها الإنساني وربما خوفاً من أن يتسخ بلاط المستشفى بدماء أسماء، ساعدته بوضعها على النقالة وسارت بإتجاه أحد الأسرة وسحبت الستار لكنه لحقها وأصر على حمل زوجته ووضعها على السرير، طلبت منه الممرضة أن يغادر فلم يعد بيده شيء يقدمه لها وأن الأطباء سيصلو فوراً فقد استدعتهم حال رؤيته يدخل باب الطوارئ...

انسحب خالد اتجاه أقرب حائط ووضع ظهره عليه وسمح لنفسه بالإنزلاق عليه حتى وصل الأرض منهكا بالكلية وغط في سبات عميق لدقيقة شاهد خلالها ظلال المرايل البيضاء وهي تتدافع للدخول إلى زوجته في محاولة لإنقاذها...

بعد خمس دقائق وصل إبراهيم حاملاً مجموعة من الأكياس المملوئة بالأطعمة والعصائر المختلفة، شاهد خالد ممدداً على الأرض فإتجه إليه وساعده بالنهوض وأجلسه على أحد مقاعد الإنتظار وأخرج علبة عصير وقدمها لخالد الذي رفضها بدوره متحججا بأنه لا يستطيع تناول أي شيء حالياً... تركه إبراهيم وذهب لغرفة الطوارئ ثم عاد وقال له: يقول الأطباء أنها بحاجة إلى عملية طارئة... لم يصدقه خالد وجن جنونه وحاول أن يذهب إلى غرفة الطوارئ إلا أن إبراهيم

أمسكه بقوة من كتفيه ووضع عينيه في عيني خالد وقال له : خالد أنت رجل مؤمن بالله وبالقضاء والقدر، احتسب أمل عند الله عز وجل فقد اختارها إلى جواره عصفورا من عصافير الجنة، والأطباء الآن يحاولون انقاذ أسماء... ادع لها يا صديقي بأن يتمكنوا من ذلك وان شاء الله ربنا يعوضكم خيراً...

انهار خالد وكاد يسقط وتمتم قائلاً برباطة جأش: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، هل بإمكانك أن تحضر لي كأساً من الماء، وقبل أن أنسى هل يمكنك الاتصال بعبداً لله وتخبره بأنني ربما أقضي الليلة هنا إلى جانب زوجتي لأقرأ لها قصة ما قبل النوم؟!!

لم يشك ابراهيم للحظة بأن خالد بدأ يهلوس فأخبره بأنه سيفعل ما طلبه منه وأقنعه بأن عليه أن يستريح الآن...

بعد ساعتين مرتا كأنها سنتين خرج طبيب يضع الكمامة على فمه ومعه مجموعة من الأطباء والمرضين الذين كان أغلبهم ملطخين بالدماء وتقدم نحو خالد وعندما وصل إليه وقف خالد ونظر إلى الطبيب دون أن يتفوه بكلمة واحدة، وضع الطبيب يده على كتف خالد ولكن خالد أنزلها بعنف...

-أين زوجتي؟! أريد أن أرى زوجتي الآن-

-ستراها بعد أن تفيق من المخدر، هي بخير اطمئن، لقد تعرضت زوجتك لإجهاض متأخر وهو الإجهاض بعد الأسبوع الرابع والعشرين، قد يكون له أسباب كثيرة منها الانخفاض المفاجئ في ضغط الدم الذي قد يؤدي إلى نقص في وصول الأوكسجين إلى الجنين عبر الدم أو ربما سوء تغذية أثناء فترة الحمل أدى إلى فقر دم حاد أو ربما كانت هناك مشاكل في الرحم كأن يكون شكله غير طبيعي أو به أورام أو...

أمسك خالد بمريلو الطبيب وهزه بعنف وكأن السبب الذي يتحدث عن سوء التغذية مس كرامته : سوء تغذية؟! ولكنني كنت أحضر إلى البيت جميع أنواع اللحوم والفواكه والخضروات وكانت أسماء تزور الطبيبة كل أسبوعين وتصف لها فيتامينات كنت أحضرها كلما طلبتها! هل أنت طبيب أم أنك اشتريت شهادتك من دكان لبيع الشهادات؟! من هي الواسطة التي عينتك في هذا المستشفى؟! ألا يفترض أن هذا مستشفى خاص يعين فقط الكفاءات البارعة؟! أستم تأخذون رواتب فلكية لتعالجوننا؟!

أمسكه ابراهيم وأجبره أن يترك الطبيب الذي يتحدث بمقائق علمية وأقنعه بأنه ليس السبب فيما حدث لأسماء وما قد يحدث واعتذر إلى الطبيب نيابة عن خالد ورجاه أن يكمل حديثه...

-سيد خالد، تأكد بأننا بذلنا ما بوسعنا لإنقاذ زوجتك وهذا واجبنا الذي أقسمنا عليه ولم يتبقى لنا ولك سوى الدعاء بأن يلطف الله بها، ، بعد عشرة دقائق سأسمح لك برؤيتها ولكنها لن تستيقظ قبل ساعة من الآن... ربت على كتف خالد وقال له : تمالك نفسك يا صديقي لن يحدث إلا ما كان يجب أن يحدث...

دخل خالد إلى غرفة أسماء بعد عشر دقائق كما طلب منه الطبيب، كانت مغمضة العينين وساكنة تماماً كالأطفال، اقترب منها وجلس على ركبتيه وأمسك يدها التي كان المغذي مربوطاً بها، وضع يده الأخرى على جبينها وبدأ يمسح عليه برقة

-أسماء! حبيبتي كيف حالك؟ أسومتي! تسمعيني أليس كذلك؟ لقد سمح لي الطبيب بالدخول ولم أدخل عنوة لأنك لا تحبين عصبيتي وتقولين لي دائماً بأنني سأموت بنوبة قلبية، لا يهم يا حبيبتي ان مت أنا، المهم أن تكوني أنت بخير، وأنت بالتأكيد ستكونين

شد بأصابعه على أصابعها ...

إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالخوف، فكرة افتقارك مرعبة يا أسماء! ستنهضين الآن وأنا أتكلم معك وسنعود معاً للمنزل وتملأ ضحكك أرجاءه، ولكننا للأسف سنكون وحدنا، لن تكون أمل معنا فهي الآن ترقزق في الجنة، هكذا قال

لي ابراهيم، انه ينتظرني في الخارج، انه صديق جيد، لقد أحضر لي العصير ولكنني رفضت شربه، كيف سأدخل شيئاً في جوفي ليس من اعدادك، هذه الأصابع كانت تعد أشهى العصائر الطبيعية فلن أخلط معها عناصر صناعية، أنا أحبك يا أسماء، لن أسمح لك بأن تغادري الآن، أحلامنا سنحتفل بتحقيقها معاً، وسندخل بيتنا الجديد معاً، هيا استيقظي، هيا سنغادر هذه الغرفة المليئة برائحة الموت ونعود إلى بيتنا المليئ برائحتك... هههههه وسأحضر لك الستائر باللون الذي اخترتيه، من الآن وصاعداً لن أجادلِكَ في شيء، سيكون كل شيء على ذوقك، أليس هكذا يتعامل المحبون مع بعضهم البعض؟ حسناً سأقرأ لك الآن قصة لتنامي بهدوء

-كان يا ما كان في قديم الزمان

-خالد...خالد...

عندما سمع صوتها الضعيف ينادي بإسمه بكى كالأطفال ورمى رأسه فوق صدرها حتى بلله بدموعه وهو يقول: أخيراً يا حبيبتي... الحمد لله الحمد لله



روح النقاء

-لقد جلبت لنفسك المصاعب بإعادتك للأغنام! عليك الآن أن ترعاها معي

-بالتأكيد يا عم وهكذا ستضمن ضياعها مرة أخرى

-عندما سرقها سالم اعتبرتها لن تعود وتأقلمت مع العدد القليل الذي تبقى لدي،
هكذا أواجه خسائري، أتخيل أنها لم تكن لي يوماً!

-أحاول أن أكون مثلك ولكن هناك أمور لا أستطيع تطبيق هذه النظريات
عليها...

-ستصبح هذه النظريات يوماً ما حقائق في نظرك، فقط دع الأيام تمضي بحلوها
ومرها... لا شيء يعلمنا كالوقت، ولكن دروسه كلها باهظة الثمن...

-حسناً لنبدأ التعلم من اليوم، أخبرني كيف تعرفك هذه الأغنام وتعرفها فتطيعك
ولا تعصيك وتعود معك ولا تفر منك؟! أسمعك في بعض الأحيان تتكلم معها
كأنها عاقلة، وهي تستجيب كأنها فهمت! أشعر أحياناً أن بينكم انسجاماً حقيقياً
بل أحس أنك تحبها وتحبك!

-بل الأمر أبسط من ذلك، كل ما عليك أن تجعلها تشعر معك بالأمان، الأغنام كائنات لطيفة تحب من يعاملها بحنان، نعم عليها أن تثق بأنك لن تؤذيها وأنك ستحميها لو داهمها خطر! مع الوقت تنشأ علاقة أبوية بينك وبينها فتجدها تركز إليك كلما جئتها حاملاً لها الطعام فتبدأ بالدوران حولك ومسح رأسها بملابسك والقفز حولك، ألم يسبق لك رؤية طفلة تتقافز حول أقدام والدها؟! كل من يثقون بنا يتعلقون بنا! هل تعتقد أنه قد يخطر ببال الطفلة للحظة واحدة بأن والدها سيخذلها ولن يجلب لها الحلوى والدمى؟؟؟ كذلك عندما يثق بنا من يحبنا، يشعر بالأمان والطمأنينة فيأتي ملقياً رأسه فوق صدرك باكياً ليفرغ كل ما أثقل قلبه وروحه قبل أن يلتقينا.... لا يوجد انسان ليس بحاجة للحب والإحتواء، في البداية نكون متعطشين فنقترب فتعرض للخيانة والخذلان فنشعر بالإحباط فنبتعد ثم يظهر شخص نعتقد ونشعر بأنه مختلف وأنه سيعوضنا عما مضى فنقترب محملين بأوجاعنا فتكون صدمتنا بهذا الشخص مضاعفة فنبتعد لفترة أطول ثم مرة ثالثة ورابعة وخامسة نعود كل ما لمحنا بريق أمل بأن هذا الشخص ستنتهي عنده كل أحزاننا... نقترب ثم نتعرض لنفس الصدمة، هذا لا يعني أننا أغبياء وأننا لا نتعلم، لا أبداً، بل يعني أننا لا نستطيع العيش وحدنا وأننا ولدنا نحن وشخص آخر ككتلة واحدة وبناء واحد وأننا انفصلنا بعد الولادة وذهب كل واحد منا في سبيله، وهكذا نشعر منذ ولادتنا بحاجة لهذا الشخص الذي سيكملنا وإلا فإننا سنظل في حالة من عدم الاستقرار....

-هل هذا ما يسمونه الحب؟!

-الحب لا تعريف له ولا أنواع، عندما تحس به تعرف أنه هو هو!

-وهل يقتل الحب؟!

-ولماذا سيفعل ذلك؟!

-ألا يجب أن يتعلم كيف يدافع عن نفسه؟!

-هذه مشكلة الحب الكبرى، أنه لا يقوى على الإتيان بأي تصرف مؤذ أو جارح، إنه لا يمتلك أي مهارة من مهارات البقاء في عالمنا، والأجمل فيه أنه لا يكثرث لما يجري في حياة هذين الشخصين عندما يقرر أن يدخلها ويبعث هدوءها، هكذا دون مقدمات يقرر أن يقلب حياتهما رأساً على عقب وتبدأ الرحلة محلوها ومرها، وتبدأ الحياة بالتدخل لمنع اتمام سعادة هذين الشخصين ويتدخل الحساد والشامتون، ويتدخل الكبرياء، وتأتي نصائح الأصدقاء بالاستمرار أو بالتعقل، ثم مرحلة الإشتياق والبعد مهما كانت الظروف، ثم تصبح مضطراً لسماع أخبار حبيبتك عن طريق الغرباء، ثم تبدأ بكتابة الشعر والتحول تدريجياً لملك يرى كل الناس طيبين، وتقسم أن الرأ بين الحب والحرب دخيلة، ولكن الحب لا يكون في كل مراحلهِ يسيراً، وهذا لا يعيبه، بل يعيب من يدعونه، فالحب فن كبقية الفنون يحتاج إلى عبقرية ودهاء واستعداد وقوة للاستمتاع به، فكيف يمكنك أن تدرك كيف ومتى وأين يحتاج حبيبك هذا الشعور؟! وكيف يمكنك أن تدرك كم يحتاج منه حتى لا تقتله بجرعة زائدة!

- (ماذا شاهد هذا الرجل في حياته؟! هل عاش عمراً قبل عمرنا ليعرف كل هذا؟)
وهل يستطيع الحب أن يصمد في زمن الحرب؟!

- أولاً لن يكون بإمكانك تأجيله حتى تنتهي الحرب ويعم السلام، ثانياً الحب
يستطيع أن يتأقلم في ظروف أصعب من الحرب بكثير...

- ألا يمكن أن ينجو الحب من كل هذه العواصف؟ (لا، حتى لو أجبتني بنعم فأنت
لا تعرف عن حلا إلا ما أخبرتك به، لا بد أنك تعتقد أن فقدان المحبوبة أمر
يسير)

- ولكن هذه العواصف والأهوال والمخاطر تشذبه وتعيد تشكيله حتى يخرج
كالماسة النقية الصافية... كل ما في الأمر أن على الطرفين اتقان قيادة سفينة الحب
وعدم السماح لأي كان بالتدخل في مسار رحلتها...

(هيا نذهب من هذه الطريق أعرف منطقة أبرد وفيها عشب أكثر)

- ولكنني أرى وأسمع أن أغلب مشاكل الحب من المحيطين به وليس من
الأشخاص المتورطين به!

رفع الشيخ حاجبيه استنكاراً

-بل على العكس تماماً، صدقني لو كان الطرفان يفهم كل واحد منهما اختلاف الآخر عنه لما استطاعت قوة على وجه الأرض أن تنال من أسطورة حبهما، ولكن من وجهة نظري أن الاختلاف والخلاف بينهما هو ما يجعلهما غير قادرين على استيعاب ما أدخله الحب من تغييرات على حياة كل منهما... كما قلت لك، الحب ليس مفهوماً عظيماً كما يبدو للبعض وبعض التجارب الفاشلة لا تعني أن الحب شيء مرعب ومخيف.... من أبسط وأوضح التعاريف للحب أنه الشعور الذي يخرسك عن الكلام.... الحب أن لا تستطيع أن تخبر الآخرين عن مشاعرك.... إذا كان الحب كذلك فمعناه أنك تحب كل شيء في حبيبك حتى لو كان شيئاً مخالفاً للفطرة.... لا يمكن أن يمحصر الحب في موسوعة أو كتاب لأن ما تعتبره حباً هو في الواقع محض جنون بنظر سواك.... الحب أن تضيق بك العبارات لوصف شعورك فتقول أنا فقط أحب!

رفع الشيخ نظره إلى السماء كأنه ينظر إلى أبعد نجمة فيها.

الحب في الأساس يدخل ليغير حياة الناس للأفضل فإذا حوله أبطاله لساحة نزال يحاول كل منهما القضاء على الآخر فوقها بالضربة القاضية فإنه ينسحب فوراً ويحل مكانه القلق والتوتر والشد والمناكفة، أما الكبرياء فهو مقبرة الحب! فعندما يتعنت كل واحد لرأيه ويبخل على الآخر بمشاعره ويتظاهر بعدم الإشتياق لأن كبرياءه يرفض بأن يبدأ هو بالإعتراف فإعلم أن هذا الحب لن يصمد طويلاً! تخيل كم

نضيع من اللحظات الجميلة بسبب عنادنا الذي ليس له معنى! الحب الحقيقي أن تشتاق لحبيبك وهو معك ملتصق بك! أن تستحضر عطره في غيابك، أن يسكن مسامات روحك بحيث تحس به كلما تنفست شهيقاً أو زفيراً، أن لا تفرط بلحظة واحدة دون أن تعيشاً معاً أقصى درجات الحب وأكملها، الحب بركان متفجر لا يمكن السيطرة على حرائقه! نفترض دائماً أن الشعور والنقيض يلغي أحدهما الآخر مع تطور العلاقة الا في الحب فانك كلما ازداد حبك لشخص ازداد كرهك بالتوازي لمن سواه أو كرهك لذاتك لأنك لا تستطيع أن تستحوذ عليه....تصبح تلقائياً افساناً أناًانياً!

كان أحمد يحدق مباشرة في عيني الشيخ كأن الكلام يخرج منهما وليس من شفثيه

-أتخيل إذا أن الحب دائماً مظلوم من الأطراف المعنية أساساً بالإرتقاء به؟!

-لا يمكنك أن تتخيل كم يقاوم الحب لينتصر أطرافه! لو ترى كيف يتسلل في الليل إلى عقل وقلب أحدهما ان كان غاضباً من الآخر ولا يتركه حتى يجبره أن ينهض من فراشه ويتصل بحبيبه ويخبره بأنه مشتاق إليه وأنه لم يتمكن من النوم قبل أن يسمع صوته! نعم! ويفعل أكثر من ذلك! ألا ترى كيف تبدو قلوب العاشقين مشرقة دون سواها من قلوب البشر؟! وبعد كل ما قلته لك عن الحب يأتي شخص ساذج ويقول بأن أجمل ما في الحب هو التواصل الجسدي! يالفقر

أخذ الشيخ نفساً عميقاً وهو يحرك بعضاه سطح الأرض فيغير مكان التراب ثم يعيده بحركة آلية

الحياة يا أحمد لا تقوم على العموميات بل تتكون سعادتها الحقيقية من مجموع الجزئيات والتفاصيل الدقيقة البسيطة التي لا نلقي لها بالاً ونحن نمارسها، فمثلاً من يريد أن يشعر بلذة السعادة عليه أن يصنعها على وجه طفل بخمسة قروش، أو بلمسة دافئة على رأس يتيم، أو بكلمة شكر لعامل النظافة الذي يزيل القمامة من أمام المنزل كل صباح، لا يمكن الاحساس بالحب الا بالتفاصيل فحتى بعد أن ينتهي اللقاء عليك أن تعيد النظر فيه لتعر

ف أين كان مكن سعادتك في اللقاء؟ هل سررت بأنها قالت لك: أحبت لون ربطة عنقك؟ هل شعرت بالسعادة عندما دفع الكرسي الى الخلف وقال لك: تفضلي سيدتي؟ الحياة بتفاصيلها الدقيقة، لذلك على الانسان أن يجد في كل يوم مر به شيئاً جميلاً مهما بلغ صغره يجعل منه دافعاً للاستمرار ومحفزاً يقول له: هل تريد أن ترى الأمل الذي زرعته في وجه ذلك الطفل مرات كثيرة وفي وجوه أطفال كثر؟ إذن انهض وقاوم ألمك وضعفك وشد على جراحك وابتسم فسعادتك تسعدهم ولكن ألمك يؤذيك وحدك،،،

-(الشيخ يتحدث كأنه عاشق! لماذا لا يبوح لي بقصة الحب التي يعيشها أو عاشها في الماضي!) وهل يختار الحب دائماً أبطله أقوياء حتى يتمكنوا من حمله؟!

-لو كان هذا يحدث لما وجدت الفقير يقع في حب الغنية أو العكس، ولما وجدتنا نحب من يحب سوانا، ولما وجدتنا نحب من يستحيل علينا أن نحصل عليه، ولكن يكمن تعقيد الحب في عشوائيته فهو يمنحنا قوة وهمية تجعلنا نجرؤ على الإقتراب من هؤلاء الذين لن يكونوا يوماً من نصيبنا! نحن متأكدين من ذلك ولكن سطوة القلب أقوى من أن تفهم ذلك! تجعلنا نؤمن بأن الأمل موجود! والفرصة سانحة! فتبدأ مشاعرنا بالتصديق! ونسقط! ولك أن تتخيل عندها ألم حب شخص لا يملك تجاهك أي مشاعر! ماذا تفعل بالنيران المشتعلة في صدرك؟! هل تعترف له بها وتواجه قسوة رده بأنه لا يفكر بك وأنت لا تحتل أي مكانة في قلبه وأنه لا يسهر ليله ليفكر بك! وهكذا عندما نقع في حب شخص مستحيل أن يكون لنا إلا أننا لا نملك قدرة السيطرة على التوقف عن حبه! قوة هائلة تطبق على قلبك وتتحكم به فلا يعود لك حول ولا قوة عليه! ولكن تأكد أن لا أحد يخرج من الحب أضعف، تماماً كما أن لا أحد يخرج من الحرب أضعف.... الحب أوله احتراق وآخره احتراق وما بينهما اشتعال، ، ، ، ، بقية المشاعر الانسانية تستنزف الجسد والروح دون حتى أن تستهلك عود ثقاب واحد!

رفع أحمد جبينه إلى السماء حاجباً أشعتها بساعده ثم أنزل يده ومسح عرقه بطرف كفه والتفت إلى الشيخ وهو يضحك : أتعرف يا عم ما أجمل ما مررت به هنا معك؟! مخالفة القواعد، لا أقول لك بأنني كنت ألتزم بها وأنا في المنزل ولكنني عندما كنت أخرجها كنت أعد نفسي لسلسلة من الإرشادات والتعليمات بأن

علي المحافظة على صحي والإلتزام بالأوامر الصادرة من ادارة المنزل بشأن عدم الدخول إلى المنزل بالأحذية وعدم تناول الفواكه قبل غسلها وعدم مسح العرق بمصاننا كما فعلت أنا قبل قليل هههههه، لا أعرف كيف أصف لك الشعور ولكن البادية تعجبنى بأنها لا تفرض عليك أي قانون ولا تقيد حريتك، وتتركك لتتعلم من أخطاءك وهذا ما كنت أعاني من نقصه في بيتنا حيث كل شيء يسير بنظام وتخطيط! ولا يسمح لك بأن تأتي بتصرف فردي خارج عن مؤسسة الأسرة ودستورها! أنا سعيد جداً معك يا عمي.... ومن فرحتي سأركض وأقفز في الجو ثم ألقى بجسدي فوق الرمال الذهبية وأقلب فوق حباتها حتى تملأ مسامات جسدي كله حرية وانطلاقاً...

روح الظلم

-هل أنت الشيخ فلاح؟

-نعم تفضل من أنتم؟

كان الشيخ وأحمد يتناولان افطارهما المعتاد من الحليب والسمن والخبز الذي يعده الشيخ بنفسه كل صباح ويحتفظ بما تبقى منه حتى المساء تحت غطاء سميك يحميه من الحشرات والقوارض حين داهمهما مجموعة من الرجال يرتدون زيّاً عسكرياً كاملاً ويضعون الأقنعة على وجوههم ومدججين بالأسلحة الرشاشة، لم يحس الشيخ بقدمهم رغم أنهم جاءوا بسيارتين ذات دفع رباعي وزجاجها مظلّل بالأسود الغامق...

بدا الخوف واضحاً على وجه أحمد وإن حاول اخفائه بينما كان الشيخ متزناً من الداخل والخارج، فتحت أبواب السيارة الثمانية في نفس الوقت وقبل أن تتوقف، نزل من السيارة التي في الخلف أربعة رجال جسام تكاد الأرض تهتز من وقع أقدامهم فوقها، ، ، ، أما السيارة التي في الأمام فنزل منها اثنين فقط وبقي السائق والشخص الوحيد الذي لا يضع قناعاً على وجهه والذي يبدو أنه قائد العملية وصاحب أعلى رتبة عسكرية في الموجودين...

أحاط الستة رجال بأحمد والشيخ وبعد أن أجابهم الشيخ بإسمه الكامل سمع أحمد أحدهم يقول أخبر النقيب محمد أنه هو!

رفع الشخص الذي سأل الشيخ عن اسمه صوته كي يسمعه الشخص الذي لا يزال جالساً في السيارة : سيدي انه هو ماذا نفعل؟

نزل النقيب محمد من السيارة وسار بخطوات بطيئة نحو الشيخ وعندما وصل أخذ نفساً من سيارته ووجه كلامه للشيخ : لم تكلف نفسك عناء الهروب والإختباء، وجدناك بسهولة! وجه الكلام للرجال الذين كانوا يحيطون بالشيخ وهو يدير ظهره عائداً للسيارة : كبلوه وألقوه في السيارة، سنأخذه في رحلة عمل سريعة، ،،،

قفز أحمد أمام الشيخ وفرد يديه وقال موجهاً كلامه للجميع : ستأخذوني معه!

نظر الشيخ إلى أحمد الذي كان يقف بينه وبين الرجال نظرة شفقة وافتخار وقال له : لا عليك يا أحمد، انهم رجال محترمون ولن تطول الرحلة معهم، اعتني بالأغنام حتى أعود، ،،، ومد يديه نحو أحد الرجال الذي كان أخرج القيود وجهازها لوضعها حول يدي الشيخ

التف النقيب نحو الشيخ وهو عند باب السيارة : لم تعرفنا على البطل المغوار الذي يحاول الدفاع عنك دون خوف من ستة رجال مدججين بالأسلحة!

-لا عليك انه ابن صديق لي وهو يقيم عندي بشكل مؤقت، هيا دعونا نذهب بسرعة، ثم التفت إلى أحمد: سيكون تحقيقاً بسيطاً، سأخبرك بما سيحدث معي عندما أعود...

لم يكثرث أحمد لما قاله الشيخ والتصق به أكثر وأصبح أكثر عناداً بكلامه : لن تأخذوا أبي إلى أي مكان...

أصاب الجميع الذهول خاصة الشيخ فلم يتوقع ردة الفعل هذه من أحمد

النقيب هو الوحيد الذي لم يهمله ما قال أحمد وقال بإصرار : أحضروا الشيخ وإذا أبدا الطفل الشجاع أي مقاومة اضربوه، لا أريد أطفالاً في غرفة العمليات...

تقدم أحد الرجال من الشيخ وعندما حاول أحمد منعه أخرج صاعقاً كهربائياً كان يضعه على جنبه وصعق فيه أحمد فبدأ جسمه يتشنج بشكل متسارع ثم خر على الأرض ممدداً دون أي حركة... ووضع الرجل القيد على يد الشيخ ودفعه بالقوة نحو السيارة وتحركوا مثيرين خلفهم عاصفة من التراب وابتعدوا في الصحراء...

أفاق أحمد بعد عشر دقائق وعرف أن الشيخ ذهب مع النقيب ورفاقه، دخل الخيمة وأحضر هاتفه واتصل بخالد على الفور...

-خالد، هناك أمر ضروري عليك القيام به من أجلي على الفور

-ما الأمر يا أحمد أنا لم أذهب إلى العمل اليوم فقد تعرضت زوجتي بالأمس ل...

-توقف عن الكلام انها مهمة من النوع الذي تفضله، وأنت متورط فيها شئت أم أبيت، هل تذكر عندما ذهبنا لنتقم من سالم الذي اعتدى علي وعلى الشيخ وسرق أغنامه؟

-نعم ووجدناه مضرخ بدماءه قبل أن نصل وأخذنا الأغنام وعدنا

-بالضبط، لقد جاءت مجموعة من الرجال المثلثين اليوم واقتادوا الشيخ لا أعرف إلى أين...

-ماذا تقول، متى وكيف؟ هل عرفتهم؟!

-خالد انه ليس وقت التوتر الآن، كان معهم شخص واحد مكشوف الوجه، سمعت أحدهم يناديه بإسم النقيب محمد، أسمر وعريض الكتفين، يدخن الجولواز الفرنسي،،، أريده عندي هنا مقيد اليدين قبل الرابعة عصرًا! هل فهمتني؟!

-أحمد! هل جنت؟! نحن في دولة قانون ومؤسسات! هل تعرف ما هي عقوبة اختطاف رجل أمن واقتياده إلى الصحراء؟! لن أقوم بتصرف من هذا النوع على الإطلاق! أنت متأثر برويتك للشيخ وهم يعتقلونه ولكن الأمور لا تحل بهذه الطريقة الفوضوية! دعني أجري اتصلاقي، لا بد أن هناك خطأ ما وربما تشابهاً بالأسماء جعلهم يعتقلون الشيخ!

-ومنذ متى تقيم وزناً للقوانين والأنظمة يا خالد، هل تريد أن أذكرك كم مرة خرقتهما أنت وأبي من أجل الحصول على تجاوز هنا أو عطاء هناك؟! اسمع يا خالد! الشيخ بالنسبة لدي لم يعد شخصاً عادياً وسأبذل ما بوسعي لإعادته اليوم إلى خيمته وأغنامه! لم ترى كيف اقتادوه كأنه مجرم تسبب بتدمير الإقتصاد الوطني يا رجل؟! شيخ طاعن في السن ما الخطر الذي يشكله على المجتمع؟! هل يستحق أن تتوجه من أجله سيارتان مصفحتان وثمانية رجال؟! ثمانية رجال ليعتقلوا شيخاً لا يستطيع السير سوى بمساعدة عصاه؟! كم مرة قمنا أنا وأصدقائي بمصائب وكما ارتكبنا مخالفات كادت تؤدي بحياة أبرياء ولم نتعرض يوماً لهذه المعاملة اللاإنسانية! أنت تعرف من يقف وراء هذه المهزلة، عليهم أن يعرفوا أن هذا الشيخ الجليل خلفه رجال يستطيعون الدفاع عنه وليس فقط الشيخ سليمان من له أذره في الدولة!

-حسناً ولكن...

-من دون لكن! أقسم بالله العظيم ان لم يحضر هذا النقيب اليوم صاغراً عندي ويعتذر من الشيخ لأكلمن أبي وأطلععه على كافة التفاصيل وأخبره كيف استخدموا ضد ابنه الصاعق الكهربائي وهو يحاول الدفاع عن مستضيفه الأعزل... قال أحمد كلماته الأخيرة وهو يشعر بالحنق الشديد و الدموع تكاد تنفر من عينيه، ولكن وقبل أن يحس بها خالد أغلق الهاتف بعد أن وعده خالد بأنه سيقوم بالمهمة...

أخذ أحمد يذرع الأرض بقدميه جيئةً وذهاباً والقهر يكاد يقتله حتى أنه لم يعد يحس بأنه يتصبب عرقاً من أشعة الشمس اللاهبة وبعدها انتبه دخل إلى الخيمة وجلس فيها وبدأ يضرب الأرض بيديه لتفريغ غضبه...

يبدو أن الحياة مليئة بالأمور المعقدة التي لم أكن أدركها وأنا أعيش في قصر أبي... هل يعقل أن يكون هذا العالم مليء بهذه الوحشية؟! هل يحس الأشخاص الذين ظلمهم أبي بنفس شعور الغبن الذي أحس به أنا الآن؟ هل الحياة تعاقبني على ماضي أبي؟! ولكن لماذا يجب أن يقع الظلم على المساكين الذين ليس لهم حيلة في الدفاع عن أنفسهم؟! ترى ماذا سيحصل للشيخ لو تم اعتقاله وأنا لم أكن موجوداً؟! ربما كانوا سيلصقون التهمة به ويلقونه بالسجن إلى الأبد! تبا! أنا الذي كنت أعتقد أن أكبر تعرضت له هو حرمانني من الحذاء الجديد الذي أحبه لأنني لم أنهي واجباتي المدرسية! لقد حبست نفسي لأسبوع حينها وأغلقت هاتفي ورفضت الذهاب إلى المدرسة ولم أنهي اضراي قبل وعد من أبي بأنه سيحضره لي! لقد أخذوا الشيخ إلى السجن وهو يتسم مع أنه متأكد من الظلم الواقع عليه! كيف اكتسب كل هذه الثقة بالنفس والطمأنينة؟! لقد كان أبي يحيل البيت إلى بركان مشتعل إذا أحس أن أحد سيأخذ منه صفقة بالتحايل والمكر، مع أنه هو سيحصل عليها بالطريقة ذاتها؟! ألا يشعر الشيخ بالغضب من أجل شيء؟! منذ انتقلت للعيش معه لم أره يوماً إلا مبتسماً ضاحكاً! كيف يستطيع الإنسان الوصول إلى هذه الدرجة من الطمأنينة والراحة النفسية؟! هل يعقل أن يكون

السبب أنه ليس لديه شيء يخسره؟! أو ربما هي تجاربه الكبيرة المتنوعة؟! ليتني أعرف كيف كان الشيخ في شبابه؟ هل كانت له نفس ردود الفعل الهادئة هذه؟! الآن فهمت قول الشافعي : لا يمكن الرجل حتى يبتلى! كنت أسمع هذه العبارة كثيراً ولكنني الآن أراها ماثلة أمام عيني في هذا الرجل! يا إلهي حتى أنا تغيرت طريقة حديثي مع نفسي! منذ متى أحدثها أصلاً أو أخذ برأيها؟! هل أحتمل كل هذه الدروس في هذه الفترة القصيرة؟! أشعر بتشويش في رأسي!

نزل النوم على رأس أحمد مرة أخرى ولم يوقظه سوى صوت سيارة خالد الذي أحضر النقيب محمد مكبلاً كما طلب منه أحمد... أنزله خالد الذي كان مغطياً وجهه بالكامل موجهاً مسدسه إلى رأس النقيب: تفضل ها هو بين يديك هل انتهت مهمتي الآن، واقترب من أحمد وهمس بأذنه : أقسم بالله أن جنونك أضعاف جنون والدك، ستذهب بك هذه التصرفات الصبانية إلى الهاوية! هل تعتقد أن حادثاً كهذا سيمر بسهولة؟! حتى لو أطلقت سراح النقيب فأنت اختطفت رجل أمن! رد أحمد بسخرية واضحة : ولكنك لم تقم بذلك أثناء عمله الرسمي أليس كذلك؟ لا تقل لي بأنك كنت لهذه الدرجة من الحماسة وخطفته من مكان عمله؟! هذا ذنبك اذن! والآن اهدأ وكف عن التذمر وإلا ناديتك بإسمك الرباعي أمام حضرة النقيب وعندها سيكون من السهل عليه تعقبك والإنقام منك!

عاد أحمد إلى النقيب الذي كان جاثياً على ركبتيه فوق الرمال التي تكاد تتبخر من شدة الحر: ما رأيك أن نجعله حواراً قصيراً فأنا أحترم رتبتك العسكرية ولا أريد أن تبقى لفترة طويلة تحت أشعة الشمس ولكنك أنت التي لم تحترمها بإعتدائك على شيخ أعزل لا حول له ولا قوة!

-مراهق أهوج!

-المراهق الأهوج جلبك مكبلاً بعد ساعتين من اعتدائك عليه... أنت حشرت أنفك في لعبة أكبر منك بكثير، على الأقل كان يجب عليك أن تختار أن تلعب مع الفريق الأقوى، لن أقول أن تقف مع الحق!

-نحن ننفذ الأوامر، الشيخ متهم رئيسي بمقتل سالم وكان يجب جمع المتهمين قبل نهاية اليوم فقد أولى رئيس المديرية قضية سالم أهمية كبيرة، لا نسأل عندما نتلقى الأوامر، فقط نكمل المهمة بكل احتراف ومهنية

-ههههه أضحكنتي يا رجل! احتراف ومهنية؟! أنت في وسط الصحراء معك سبعة رجال تحاولون اعتقال شيخ لم يبدي أي نوع من أنواع المقاومة! عن أي مهنية تتحدث؟ عن استخدام القوة المفرطة ضد طفل عمره ست عشرة سنة؟! ان الطريقة التي اقتحمت فيها الخيمة توحى بأنكم تدهمون خلية إرهابية أو عصابة مسلحة! أنتم فقط تحبون ممارسة القوة! تحسون بالنشوة! عندما تمارسون هذا النفوذ الوهمي وهذه السلطة الظاهرية تحسون بأنكم ملكتم العالم! انه نقص في الثقة بالنفس ومرض داخلي عميق مزمن.. انكم تحققون ذواتكم بالاستعلاء على

الضعفاء واستبدادهم وممارسة الطغيان عليهم... فعلاً أنتم لستم مذنبون ولكنكم ضحايا من حيث لا تشعرون!

-نحن نحافظ على الأمن من الفوضويين أمثالك والذين يحاولون زعزعة أمن واستقرار هذا الوطن الغالي

-من المفترض أن يضحكني كلامك ولكنه آلمني ومزق قلبي! لأنك تقول هذا الكلام وأنت تصدقه! تقوله كأنه حقيقة! يؤلمني أنهم نجحوا بإقناعك بذلك! أنت لست آلة يا صديقي وليس عليك أن تقول نعم دائماً، عليك أن تعرف لماذا تعتقل هذا وتطلق سراح هذا! لماذا قضية سالم ذات أهمية قصوى وقضايا الفساد والسرقة ذات أهمية دنيا؟! هل تعرف من أكون أنا؟! هل تعرف أنك لن تستطيع إلحاق الأذى بي حتى بعد أن أحررك؟ أنا أحمد ابن رجل الأعمال عبدالله صالح!

أكمل أحمد رغم ملاحظته لإرتعاده النقيب:

هكذا تسير الأمور هنا! هناك دولة وقوانين ومؤسسات وأنظمة ولكنها لا تسري على الجميع، تطبق فقط على الضعيف! على من لا سند له! وأنتم يا سيدي أدوات التأكد من التزام الضعفاء بتطبيقها وأدوات تصفية الحسابات بين الكبار...

-إذن فمشكلتك ليست معي، إذا رأيت أنك تستطيع تغيير شيء فاذهب وقم بما عليك فعله واطركني أقوم بما علي فعله...

اقترب أحمد من النقيب ووضع المفتاح في القيد وحرره وساعده على النهوض بينما خالد يراقب مذهولاً من بعيد...

-مشكلتي ليست معك ومشكلتك ليست معي فعدوي وعدوك واحد، أفهم عدم استطاعتك على الرفض للأوامر التي تتلقاها ولكن دائماً هناك مساحة انسانية يمكنك التحرك بها بحرية وليس لأحد عليها سلطة سواك... لا أعرف كيف سيتغير ما نحن عليه ولكن إلى ذلك الحين علينا أن نقاوم في حدود استطاعتنا أن لا نكون سيئين....

كان واضحاً الأثر الذي تركته كلمات أحمد على النقيب ولكن لسبب ما كان يقاوم أن يظهره... ربما لكبريائه وربما لأن أحمد أصغر منه وربما لأنه يعرف مدى صعوبة تطبيق كلام أحمد....

نادى أحمد خالد وطلب منه إعادة النقيب إلى بيته وأثناء سيرهما نحو السيارة التفت أحمد نحو النقيب مبتسماً : هل أتوقع عودة الشيخ الليلة؟ بادله النقيب الابتسامة وقال له : إن شاء الله...

روح التغيير

-أرى أنك استيقظت قبلي يا أحمد

-لقد أردت أن ترتاح فتركتك نائماً، هي المرة الأولى التي تنام فيها إلى هذا الوقت، يبدو أنك تعبت من سفر البارحة، لقد أخذت الغنم لوحدي واتجهت به نحو المراعي الخضراء ولك أن تتخيل كم بذلت جهداً كي لا أفقد احداها، هي تحتاج لوقت أطول كي تعتادني

-هذا أمر يستحق الإحتفال! ما رأيك أن نشوي احداها بهذه المناسبة السعيدة؟!

-فكرة رائعة! ولكن هل سنأكلها لوحدا؟!

-لا أعرف عن قدرتك ولكنني أستطيع تناول نصفها لوحدي! لا تستغرب فهذا أحد أسرار محافظتي على صحتي وأنا في هذا السن!

-إذا بقي لك نصف فتناوله! لا تراهن على جسدي النحيل! هيا نبدأ بجمع الأخشاب، أو دع هذه المهمة لي وأنت اذهب واختر لنا جدياً صغيراً وجهزه بينما أشعل أنا النار لأنني أفضل أن لا أحضر مراسم الذبح والتقطيع!

بدأ أحمد بجمع الأخشاب من كل مكان حتى صنع منها كومة كبيرة تكفي لإنضاج خروف كامل وليس مجرد جدي، هكذا اعتقد أحمد إلا أن الشيخ عندما جاء كان يحمل معه كيسين كبيرين من الحطب...

-أنت لم تكن تنوي أن تشوي خروفاً بهذه الأخشاب، هذا تصرف غير مقبول حتى من أبناء المدينة! لا يعقل أن لا تميز بين الحشب المخصص للتدفئة والحطب المخصص للطهي!

-سامح جهلي يا عم فهذه المرة الأولى التي أقوم فيها بطهي خروف في الهواء الطلق! -حسناً يا أحمد هناك عدة أنواع للحطب تتفاضل فيما بينها حسب سرعة اشتعالها وكمية الدخان التي تتصاعد منها وطول الفترة التي تستمر خلالها وهي مشتعلة بعد أن تتحول إلى جمر، لن تجدها كلها في صحراءنا هذه لذلك أنا استخدم هذا النوع الذي أحضره خصيصاً من المدينة اسمه حطب الغضى أو الفضا وهو مقطع إلى قطع متوسطة الحجم يتم اشعالها لمدة ساعة على الأقل مع هذه الأخشاب التي جمعتها أنت، هناك أنواع أخرى تستخدم للتدفئة والطهي ولكنها لا تعطي حرارة كالغضى ومنها الرمث والسمر والقرض، بعد أن تهدأ النار ولا يبقى سوى الجمر نقوم بوضع مركبين صغيرين على أطراف الجمر الذي نوزعه بشكل طولي كي تتوزع الحرارة بالتساوي على الخروف، هذين المركبين كالأقماع تقريباً نقوم بوضع عمود حديد عليها بعد أن نقوم بتثبيت الخروف عليه وربطه من يديه وقدميه بحبال مقاومة للنيران، نثبت يديه إلى رقبته ونربط قدميه معاً... نستمر بتقليبه

كل عشرين دقيقة تقريباً لمدة ساعتين إلى ثلاث ساعات وهكذا نحصل على خروف مشوي لذيد...

-ولماذا لا نطبخه على الفرن في المطبخ ونرتاح من كل هذا التعب؟

ضحك الشيخ من محاولة أحمد لإختصار الجهد والوقت

-ولكن المتعة تكمن في الإعداد لهذه العملية وليس في العملية ذاتها أو في أكل الخروف، ان جمع الحطب وإشعال النار والانتظار حتى يتحول الحطب إلى جمر أحمر ساكن هي المتعة الحقيقية! إن جلوسك أمام النار وهي تأكل بعضها بعضاً حتى تحمد يجعل روحك تستكين، هكذا هي الصحراء كل ما فيها يدعوك للسكينة والهدوء ويسحب منك أوجاعك وهمومك وآلامك، أينما اتجهت في الصحراء تجد اتساعاً ومدى، في سماءها، في رمالها، حتى في أشواكها الجارحة تجد راحة غريبة تتسلل إلى روحك، إنها الطبيعة الساحرة مهما كانت قاسية وجافة إلا أن لها سطوة على الإنسان وقوة غريبة تجعله يتأمل فيها ويرتشف جمالها ويصب منه في روحه العطشى، فكما أن الغابات والأشجار والأنهار في النصف الغربي من هذا العالم تأسر الأرواح وتذهب بالألباب فإن الصحراء في شرقنا تجبرك أن تهدأ وتستسلم لهدوءها وعذوبتها وعذريتها....

-أنا عكسك تماماً فأنا أحب المدن التي لاتنام، أحب الضجيج والفوضى والشوارع التي لا تستريح، الأضواء والحركة التي لا تهدأ، أليس هذا معنى الحياة؟! الاستمرار! إن هدوء الصحراء مرعب يجعلك تحس بأن الصمت المطبق هذا آخره موت مفاجئ!

-أليس أفضل من موت المدينة حيث تقبل التعازي صباحاً لساعتين للرجال ومساء ساعتين للنساء؟؟! بعد أن سارعوا بتكفين الحب ها هم يسرعون بتكفين الموت! هيا ساعدني بتثبيت العمود الحديدي على المركبين فمعدتي بدأت تنادي وتقول أين أنت يا لحم الكتف!

جلس كل منهما على حجر وقد بدأت الشمس تميل إلى المغيب وأصبحت الجمرات ذات لون أحمر قاني والنسمات تهب برفق لتحمل رائحة اللحم المشوي إلى أنف أحمد مثيرة أيضاً بعض السنة اللهب من الجمرات المتقدمة ثم تعود لتهدأ...

-ذكرتني هذه الألسنة بالسنة الحب التي حدثتني عنها يا عم، ترى أيها أشد ايداء؟! أيها تترك أثاراً أوسع وأعمق على الجلد بعد أن تضربه؟!

-أنت أخبرني!

ارتبك أحمد ولم يتوقع هذا السؤال المباغت من الشيخ

-ماذا تقصد؟ أنا لا أحب، فقط كنت أتمنى أن استفيد من خبراتك وحكمتك التي علمتك إيها التجارب

لم تنفع هذه المراوغة مع الشيخ

-ولكنك جربت الحب يوماً! أخبرني هل سياطه أشد من السنة النار هذه؟!

نجحت خطة الشيخ في إيقاع أحمد في شرك البوح

-حسناً يا عم اعلم أنك أول شخص أتحدث معه بهذا الإنفتاح عن حلا...ولكنني أشعر بالحاجة لتفريغ مشاعري حول هذا الأمر، ، أنت تعرف أكثر التفاصيل ولكن ما لا تعرفه لأنني لم أخبر به أحداً من قبل هو أن حب حلا كابوس يلاحقني و يمنعني من ممارسة حياتي (تنهد تنهيدة عميقة)، نعم، لا أستطيع نسيانها ولا أستطيع أن أغفر لنفسي أو لأبي موتها بتلك الطريقة...

-ولكنك تعرف أيضاً أن هذا الأمر غير صحي وغير طبيعي، قد يبدو كلامي قاسياً ولكن عليك أن تسمعه وتردده بينك وبين نفسك، عليك أن تنسى حلا(ارتعش أحمد كأن الحجر التي يجلس عليها نقلت له ذبذبات سرت في كل جسمه ولكنه لم يبد أي ردة فعل سوى أنه شبك أصابعه ببعضها كأنه يحاول اخفاء توتره واستمر بالاستماع للشيخ) ان الوهم الذي يصدقه الجميع أن الحب مقاوم للألم، لديه مناعة ضد الحزن والأسى، وهذا ظلم كبير، الحب الحقيقي ليس جرعة من السعادة يعطيها شخص لآخر أو حتى يتبادلها شخصان، الحب أعمق من ذلك،

الحب يحرك من أنانيتك ويربطك بمفهوم المعاناة الإنسانية، ملهاة الإنسان الكبرى، حيث تتحول من شخص عادي جداً إلى شخص يرتبط بدمعة الموجهين وصرخة المقهورين في كل مكان... أن تبكي من أجل صورة على التلفاز، يهزك خبر عن كارثة انسانية... الحب يغمرك من أخصص قدميك حتى قمة رأسك ثم يدخل من هناك إلى روحك ويلفها ويحيطها بدفئه وسكينته...

-ولكن قبل هذا يجب أن تتغير حياتهما بالبداية! أن ينعكس الحب على أرواحهم من الداخل...

-واذا لم تجر الأمور كما يشتهيان؟! كما قلت لك الحب لا يسير دائماً كما نشتهي، دعني أساعدك بأمر قد يعينك على فهم هذه النظرية، الإنسان عندما يولد يمر في مسار رحلته مع الحب عبر عدة مراحل ومحطات... كل واحدة لها مميزاتها، وكل واحدة يجب أن تأخذ حقها بالإهتمام والرعاية وأي خلل فيها سيترك أثراً على جميع تجارب الحب التي سيخوضها هذا الإنسان لاحقاً، أول هذه المراحل مرحلة الأمومة حيث يعيش الطفل الحنان والأمان في أحضان أمه حين يرضع منها وينام في حجرها وتكون هي عالمه كله، وعندما يكبر ينتقل إلى حب الأب لأنه مصدر الأمان والقوة والثقة، وبعدها يتحرر منهما ويبدأ البحث عن شخص يجمع بين حنان أمه وقوة أبيه في هيئة جسد يستطيع تلبية كل رغباته... هذه مراحل الحب الطبيعية الفطرية التي يسلكها الإنسان عبر تقدمه في السن... أي خلل فيها

سيجعله يقع في علاقات غير صحية تستنزفه روحياً وجسدياً وتنهكه، كالتعلق المريض مثلاً، إن الحب الذي يجعلك تفكر بإسعاد شخص واحد ليس حباً بل علاقة تكافلية أو تعايشية بأفضل الأحوال... عندما ننشأ في أسر غير متوازنة فإن هذا يجعلنا أكثر خوفاً في التعبير عن حبنا وهكذا تتراكم المشاعر في داخلنا ومع الوقت تصبح المشكلة مزمنة في التعبير اللغوي عن مشاعرنا! تخيل أن لا تعرف ما هي الكلمة المناسبة لشعورك نحو زميلتك في العمل؟! هذا شيء طبيعي لأنك لم تكن تسمع والدك يخبر أمك بأنه يحبها ولم يجلسا معك سوية ليعلمانك حدود العلاقات بين الناس...

-هل تكون علاقتي مع حلا تعويضاً لنقص عانيت منه في صغري؟!

-بالتأكيد وذلك لأن المرحلة التي لا تأخذ حقها تترك أثراً عميقة في الإنسان ولا يستطيع أن ينتقل إلى المرحلة التالية بسلاسة واطمئنان....

-ما الحل؟!

-الحل أن تكتب لها رسالة أخيرة وتحرقها وسط هذه الجمرات... سادعك تخوض تجربة فريدة، هل سبق لك أن كتبت على رق جلدي؟ انه يصنع من جلود العجول حديثة الولادة ويتميز بأنك تستطيع الكتابة على وجهيه كما أن كشط الكتابة عنه

وتعديلها سهل على عكس ورق البردى، وإليك هذه اللطيفة التاريخية عن بدء صناعته في القرن الثالث قبل الميلاد حيث اشتهر في كتابة الأسفار والوثائق المهمة حيث أنه يتميز بقدرته على احتمال تقلبات الطقس فقد كان يدوم قرناً دون أن يتلف... يقال بأن نشأته جاءت بسبب أن ملك مدينة برجاموس أراد توفير مادة للكتابة بدلاً من ورق البردى الذي امتنعت مصر عن تصديره لأوروبا بأمر من حاكمها بطليموس الخامس الذي كان يتنافس مع ملوك برجاموس في انشاء المكتبات وتأليف الكتب... لا أعرف ما عمر هذه الرقعة التي بين يديك ولكنني قررت أن أعطيك إياها لتكتب فوقها ما تشاء لحلا ثم تلقيها وسط النار، ولإنها جلدية ستطول فترة ذوبانها ولكنها ستختفي وتختفي معها كل ذكرياتك السيئة...

أخذ أحمد الرقعة بحماسة وبدأ يكتب فوقها وبدأت تقاسيم وجهه ترتاح تدريجياً، كان يضغط على الريشة أحياناً وأحياناً يرخي أصابعه عنها... يرفع رأسه إلى السماء ثم يكتب بضعة أسطر... ثم يحرق بالجمر وهو يحترق فيعود لكتابة عدة أسطر أخرى، ثم عندما انتهى طواها وأخذ نفساً عميقاً ونظر إليها ثم قال : أحببتك كما لم ولن أحب أنثى ولكنه وقت الفراق... وألقاها في النار وأخذ يفرك بأصابعه وهي تذوب وتضمحل وسط النيران...

-هذا الجانب النظري للفراق ماذا تنوي في الجانب العملي...

-سأريك الآن...

نهض ودخل إلى الخيمة وأحضر هاتفه واتصل بأمه وأخبرها بنيته في مساحة أبيه
وفتح صفحة جديدة...

-ماذا تقولين؟؟؟!



روح الحقيقة

-أعددت لك الإفطار اعتذاراً عن اضطراري يوم أمس لترك المنزل بعد يوم واحد فقط من خروجك من المستشفى، أعدك بأنني لن أتركك مرة أخرى حتى تعود لك صحتك بالكامل، هيا دعيني أساعدك بالنهوض قليلاً إلى الأمام كي أستطيع اطعامك

أمسك خالد يد زوجته اليمنى ووضع يده الأخرى خلف ظهرها وساعدها لتسندته إلى السرير وأحضر الصينية المليئة بأنواع الطعام المغذية والمفيدة والتي اختارها بعناية ليساعد أسماء على استعادة صحتها، جلس على طرف السرير وبدأ بوضع قطعة خبز داخل صحن العسل ثم رفعها أمام فم أسماء : هيا يا صغيرتي دعيني أرى كيف ستتناولين افطارك كالأبطال، سنتناول كل هذه الأصناف!

رغم محاولات خالد لرسم البسمة على وجه زوجته إلا أن ملامحها ظلت بلا معنى ولم يرسم فوق وجهها أي دلالة لمزاج جيد أو متعكر... ظن خالد أن السبب خروجه بالأمس وهي بأمس الحاجة إليه، وهو يعتقد أيضاً أنها بحاجة إلى فترة زمنية لتجاوز فقدان أمل التي كانوا أعدوا كل شيء لاستقبالها... كل هذه الظروف جعلت خالد يتفهم أزمة زوجته النفسية التي جعلتها لا تتحدث مع أحد ولا

تستقبل زواراً ولم تخرج من غرفتها منذ عودتها من المستشفى... لذلك رأى خالد أن من واجبه مساندتها والتخفيف عنها...

-شكراً حبيبي أحس بأن معدتي لا ترغب شيئاً هذا الصباح، ضعه على الطاولة وربما أتناول بعضه فيما بعد، شكراً لك على مجهودك لم تكن مضطراً لإعداد هذا كله من أجلي...

أبعد الصينية واقترب منها وأمسك يدها بكلتا يديه وضغط ضغطة خفيفة عليها : على العكس يا حبيبتي هذا أقل شيء يمكنني تقديمه لك، أريد أن تفهمي شيئاً مهماً يا أسماء، أنا إلى جانبك وأدعمك وأساندك ولن أتخلي عنك يوماً، ولن أتركك تواجهي أي شيء لوحده، نحن نستطيع معاً مقاومة أي مشكلة أو ظرف يواجهه عائلتنا الجميلة، سنشد أيدينا معاً وسنهزم كل المصاعب فأنا أحبك ولا أخشى شيئاً وأنت معي...

رفع يدها وقبلها وأعادها إلى السرير

-أعرف يا حبيبي أنك لن تتركني فأنت سندي ورجلي الذي أعتمد عليه وألجأ إليه كلما اشتدت الأزمات ولكنني... ولكنني... كل ما في الأمر يا خالد أنني لم استوعب خسارة طفلي التي مكثت في أحشائي تسعة شهور...

-أحس بخسارتك يا حبيبتي، لا عليك سنتجاوز هذا الأمر معاً..

انفجرت أسماء بالبكاء كأنها كانت تنتظر هذه الكلمات لتخرج غضبها وحرزها وألمها دفعة واحدة

-لا، أنت لا تحس! هل جربت أن يركلك أحدهم في بطنك وأنت نائم؟! هل جربت أن تستفرغ ما في معدتك عندما تشم رائحة البهارات من بعد مئة متر؟! هل جربت شعور القلق والخوف بلا سبب؟! أن تتوتر ولا تطيق نفسك ولا جسدك؟! هل جربت ألم الظهر في الشهر الثامن؟! أن تشتهي الأشياء الحلوة أو الحامضة في غير موسمها فقط لأن كائناً داخلك يكبر ويحتاج إليها؟! أنت لا تعرف شيئاً عما عانيت في الأشهر الماضية، هل تعتقد أنني أشكو إليك هذه الأمور؟! طبعاً لا فأنا أم! أنا كنت استمتع بتلك الركلات، كنت أضع يدي فوق بطني متمعدة ازعاجها لتستيقظ ونلعب معاً وألاحق تحركاتها داخل رحي، كنت أنام على جانب واحد طوال الليل كي لا أؤذيها، منذ الشهر الرابع وأنا أحادثها كأنها ولدت! روح حية كانت تعيش معي 24 ساعة لمدة أربع وثلاثين أسبوعاً هل تعتقد أنك تحس بفقدانها كما أحس أنا؟!

-أرجوك أن تتوقفي يا أسماء! كوني مؤمنة بقضاء الله وقدره! هذا ما أراد الله لنا فلنحمد الله عليه، هناك من لم يرزقهم الله أطفالاً وهناك العقيم وهناك من ينجب أطفالاً مشوهين، فلنحمد الله على ما آتانا...

-ولكنك أنت من قتلتها!-

ارتعش خالد وابتعد إلى آخر السرير مصعوقاً كأنه لم يصدق ما سمعته أذناه، حتى أنه لم ينفعل ولم يغضب كعادته بل قال بكل هدوء: ماذا قلت يا أسماء؟ أنا قتلت ابنتنا؟! أنا قتلت من كنت أنتظر قدمها بفارغ الصبر لأصبح أباً؟ أنا يا أسماء الذي ملأت البيت فساتيناً ودمى من شوقي لرؤية طفلي أقتلها؟!

لم تتوقف دموع أسماء عن النزول فوق خديها وأجابت والقهر يقطر من كلماتها : وقتلتني! وقتلت أسرتنا كلها، دمرتنا بطمعك وحشعك! تجمع المال لا يهتمك من أين تجمعه! أدخلت في معدتي وجوفي مالاً حراماً فلم تستطع روح أمل الطاهرة وجسدها الطري الغض أن ينبتا فوقه... لم تحمل ابنتك أن تنشأ على مال حرام! لقد ابتلاك الله يا ببتك أفلا تعتبر؟!

في هذه الأثناء وضع خالد رأسه بين يديه وأنزله أمامه محدقاً بالأرض وكلمات أسماء لا تزال تنزل عليه كالرصاص من كل مكان

-هل كنت تحسب الله غافلاً عما تسرقه بعلم عبدالله وبغير علمه؟! رفضت العمل بالقطاع العام لأنه رواتبه لا تلي طموحاتك واحتياجاتنا! ونسيت أن الله يضاعف الحلال ويقصم الحرام! قلت لك ألف مرة يا خالد اتق الله فينا! قلت لك من اليوم الأول الذي عرفت فيه أنني حامل أن روحاً ثالثة في طريقها إلى هذا المنزل فلا تجعل لقماتها الأولى حراماً ولا تجعل طعام أمها الذي سيتحول إلى حليب

يغذيها حراماً... قلت لك بأنني أطيق الفقر والجوع ولكنني لا أطيق غنى وشبعاً مغمساً بالشبهات... لا أطيق أن يسري في دمي الذي سينتقل إلى طفلي عبر المشيمة لقمة واحدة حصلت عليها بطرق ملتوية... والآن يا خالد حرمتني من كلمة ماما! حرمتني من أن أضم صغيرتي إلى صدري وأرضعها حتى تشبع... حرمتني من شعور وعاطفة وحنان الأمومة الذي لا تكتمل المرأة إلا به... هذا ما جنيته على نفسك وعلينا...

-لم يفعل خالد شيئاً سوى أنه ضمها إلى صدره بقوة بينما هي تحاول منعه وهي تبكي، وعندما لم تستطيع الإفلات منه بدأت بضربه على ظهره ووجهه وهو يشدها أكثر، إلى أن شعرت بالتعب من البكاء واللحم أرخت يديها ووضعت رأسها على كتفه الأيمن وبدأ نشيجها يخف بالتدريج حتى أصبح صامتاً بلا صوت... لم يعد لديها أي طاقة للكلمة أو حركة أخرى... أبعداها خالد عن صدره وساعدها بالاستلقاء على السرير ثم غطاها وقبل أن يكمل رفع الغطاء إلى كتفها كانت تغط في نوم عميق كالأطفال... حمل خالد الصينية وخرج من عندها بهدوء كي لا يزعجها...

جلس خالد على الشرفة يتأمل كلام أسماء فقد كان بحاجة إلى هواء بارد يخفف عن روحه ما سقط عليها من غضب أسماء الذي كانت تفوح منه رائحة الكراهية والحقد والغل الممزوج باليأس والإحباط...

هل يعقل أن كلامها صحيح؟ ولكنني كنت أفعل هذا من أجلنا كلنا، لست طماعاً كما اتهمتي، لست أنانياً، أنا أفكر بها وبطفلتنا قبل أن أفكر بنفسي! هي لا تعرف ما أعانيه بعلمي مع عبدالله وابنه المتغرس أحمد! هي متأثرة بخسارتها لأمل... لا يمكن أن يكون هذا الكلام من قلبها... هي طفلة بريئة أنا أعرفها جيداً ومتسرة ولكن قلبها أبيض... ليس علي أن ألومها... ستعود كعادتها لتعتذر بعد عدة أيام... ربما يجب علي أن آخذها في رحلة استجمام لتنسى ما مر بها من أيام عصيبة... لو لم أكن أعمل عند عبدالله هل كان بإمكانني أن آخذها في هذه الرحلة؟! بالنساء كيف يفكرن بقلوبهن!!

لا يا خالد الحياة ليست كلها حول المال والإنفاق! عليك التفكير من الآن وصاعداً عن الأموال التي تجلبها للبيت، كلام أسماء فيه جانب كبير من الصحة... هي تحبك فلا تفقدها بسبب طمعك! لا تسمح لعنادك وكبريائك أن يعمي بصيرتك! هذه المرة كانت الضحية طفلتك وقد ترك أثر فقدها في قلب زوجتك جرحاً لا يبرأ فهل ستستمر بما تفعله وتنتظر مصيبة أكبر؟؟! تأمل كلام أسماء بعقلك وقلبك معاً وأوزنه واحتمل قسوة الحقائق التي فيه...

وضع رأسه بين يديه ورفعته إلى سقف الشرفة وأخذ يهزه بعنف كأنه يريد لهذا الحوار أن يتوقف وقبل أن يعاود صوته الداخلي لومه غادر الشرفة والمنزل باحثاً عن طريقة للتخلص من حالته الكارثية التي هو عليها...

اتصل بإبراهيم وأخبره بأنه سيمر عليه ليذهبا معاً في جولة قصيرة بالسيارة لأن أموراً خطيرة حدثت وستحدث وأنه يريد أن يناقشه حولها... تفهم ابراهيم حاجة خالد الملحة للحديث والبوح فاتفق أن ينتظره في الشارع ليقله بعد خمس دقائق....

وصل خالد بعد دقيقتين فقط بسبب السرعة التي كان يقود بها السيارة ووقف أمام ابراهيم الذي كان ينتظره، أنزل زجاج النافذة ودون أن ينظر إليه دعاه للصعود بسرعة...

-بل أنت ستنزل!

-ابراهيم! قلت لك لا أريد الجلوس بين الجدران! أنا أختنق! أريد أن أملاً رثتي بالأوكسجين

-أنا لا أدعوك للجلوس في منزلي، أنا آمرك أن تترك مقود السيارة وتجلس إلى جانبي، لن أدعك تقود وأنت بهذه الحالة!

-أنا بخير!

-لست بخير! أنت بأسوأ حالاتك منذ عشر سنوات، لا تكثر الجدل! انزل واجلس إلى جانبي، هذا سيعطيك حرية أكثر لتحريك يديك وأنت تشرح لي ما يزعجك!

-هل عرفت الآن لماذا أفضل رؤيتك عندما أكون غاضباً؟ ؟! لأنك لا تخشى غضبي! يبدو أن الإنسان يتعلق أكثر بمن يقولون له لا، ولا ينصاعون لأوامره!
صعد ابراهيم خلف المقود وجلس أحمد إلى جانبه وانطلقا دون أن يعرفا إلى أين هم ذاهبان...

-من قال لك إنني لا أخشاك! أنت لا تعرف كم تكون مرعباً عندما تغضب! أوردت الدماء في رقبتيك ووجهك تكاد تنفجر، عينك تتحولان إلى أشعة ليزر ثاقبة تحرق وجه من ينظر إليها، تنفخ صدرك وتتأهب للإفتراس... أنت مخيف حقاً يا صديقي ولكنني أتعجراً على الحديث معك وأنت غاضب لأمنعك من التصرف وأنت على هذه الهيئة... أنا أنقذك من نفسك دائماً...

تبسم خالد عند نطق ابراهيم للعبارة الأخيرة : نعم فأنا كالأطفال قد أؤذي نفسي إذا لم تعتني بي يا صديقي الحنون...

-لست متأكداً ان كنت حنوناً ولكنني متأكد أنك طفل، خاصة بعد أن شاهدت ما فعلته مع زوجتك في المستشفى...

-حسناً هذا ما طلبتك للحديث عنه، أسماء يا ابراهيم تتهمني بأني سبب وفاة أم! تخيل؟! تقول بأن عملي مع عبدالله هو الذي جلب لنا كل هذه المصائب! منذ

أخبرتني بهذه الكلمات وأنا منزعج جداً ولا أعرف ما الذي يجب علي فعله! لا يمكنني أن أصف لك وجهها وهي تتحدث! لقد كانت في قمة الإحباط!

- اسمعني يا خالد أنا صديقك قبل أن أكون زميلك في العمل وتأكد بأنني عندما أقسو عليك فأنا أفعل ذلك لمصلحتك، ونحن مهما تقدمنا بالسن نظل بحاجة للنصيحة، ما حدث لأمل هو أمر مكتوب عند الله قبل أن نأتي إلى هذا العالم، وفلسفة الموت صعبة التفسير حتى في حالات موت المرضى أو كبار السن فنحن عندما يموت شخص يعاني منذ سنوات من مرض مزمن لا يجرى علاجه تجدنا نبكي ونغضب ونعترض ونرفض ونسخط! فما بالك ب وفاة جنين قبل ولادته بأسبوع! استغفر الله من هذا التفكير ولكنك قد تقول لماذا خلقه الله وعذب أمه بحمله طوال هذه المدة إذا كان سيقته قبل أسبوع؟! وتحت تأثير الغضب قد تحاول رسم سيناريوهات أفضل لموته! لماذا مات في هذا اليوم؟ لماذا بهذه الطريقة؟ لماذا ليس في يوم العطلة؟ والكثير الكثير من الأسئلة التي تدخل في صلب الإيمان والعقيدة، لذلك أجد أن من الصعوبة الربط بين عملك وموت أمل فالله أرحم من أن يعاقب أسماء وأمل بسببك... وأرحم من أن يوجه عقوبة مباشرة بهذه الطريقة بسبب ذنوبك التي قد تقلع عنها في أي لحظة... فإن كان قصد أسماء أن تهتك بشكل مباشر فأنا لست معها، أما ان كان قصدها أن تتخذ من هذا الدرس عظة وعبرة لتغير طريقة حياتك وتنتبه أكثر للمال الذي تحضره للمنزل كل مساء فأنا أوافقها تماماً، فطريقة حياتك يا خالد وإن لم تؤثر حتى الآن بشكل كبير على عائلتك ومستقبلك فلا تتأمل أن يستمر هذا الاستقرار طويلاً...

-خالد؟ خالد؟ هل سمعتني؟ أين سرحت؟!

-لا شيء، فقط كنت أفكر كيف سأصلح الأمور، وقررت أنني سأترك العمل عند
عبدالله وسأبدأ بالبحث عن عمل في أي مكان منذ الغد!

-بهذه السرعة؟! لست خالد الذي أعرفه؟! هل اقتنعت بكلامي؟ ولماذا لم تقتنع
بكلام أسماء التي سبقتني إلى الحديث معك بهذا الشأن؟!

-فقط كنت أريد صوتاً ثالثاً بالإضافة إلى صوت أسماء وصوت قلبي لأتحرك فعلياً
وها أنت جئت تؤكد كلامهما فلن يكون أمامي سوى أن أتصرف...

-حسناً ولكن أود أن أحيطك علماً بأن عبدالله طلق زوجته فلن يكون بمزاج
جيد لتلقي خبر كهذا...

-اذن هي فرصتي لأكون الصفعة الثانية على وجهه خلال أقل من أسبوع...

تبسم ابراهيم وهو يرى صديقه على وشك اتخاذ أهم قرار في حياته وأسعده أكثر أنه
كان سبباً في اقناعه باتخاذہ...

-المهم أن لا تخبره أنني صاحب النصيحة...

روح الغربة

-هل تسمح لي حبيبتي بالخروج لمقابلة صديقي ابراهيم؟!

-ولكنك كنت معه بالأمس؟! أليس لي من وقتك نصيب؟! ألم تتخلص من العمل مع عبدالله لتتفرغ لعائلتك؟! في أول يوم بلا عمل تريد أن تخرج لرؤية صديقك؟
؟

-أرجوك! أرجوك! لن أتأخر! فقط ساعة واحدة! أريد أن استشيريه في أمر ما

هي موافقة وستسمح له بالذهاب ولكنها تريد أن تسمعه يطلب منها ذلك وهي
تدلل عليه

-ولماذا لا تستشيرني أنا؟! أم أنني لست ذكية كفاية لأقدم المشورة؟! لقد غضبت!
لا تكلمني

-لو كانت الاستشارة تتعلق بالجمال والرقّة والنعومة والأنوثة وأنواع الأزهار
والعطور لكنت أنت أول من سألته عنها ولكنها أمور رجالية مملة لا تناسب
الجماليات أمثالك يا سيدي، فأنت لا يليق بك إلا الدلال والدلع... أن تجلسي
كالمملكات فوق عرشك وحولك الخادومات يعملن على زينتك وجمالك...

احمر وجه أسماء خجلاً من هذا الغزل الصريح وغطت وجهها بيديها

-حسناً اذهب لم أعد استطع النظر في وجهك، اخرج لقد أخرجتني أنا موافقة
اذهب ولكن عد قبل الغداء لأنني سأعد لك طبقك المفضل... ولكن الآن
أخرج

لم يطعها بل أزاح يديها عن وجهها وقبلها على جبينها : أحبك يا أجمل امرأة سارت
فوق كوكب الأرض كله، وكواكب المجموعة الشمسية، ومجرة درب التبانة...

-أخرج أيها المجنون

-هل تريد أن أصبح عاقلاً؟!

ردت بخجل : لا طبعاً

-مع أنني كنت أفكر جدياً بأن أصبح شخصاً عاقلاً ولكنني خشيت أن أتوقف عن
حبك لأن امرأة بجمالك تحتاج رجلاً مجنوناً ليحبها... العاقلون لا يقدرّون الجمال
ولا يجيدون التعامل معه...

عاودت تغطية وجهها مرة أخرى ولكن هذه المرة بالوسادة لأنها لم تحتمل هذا
الكّل من عبارات الدلال...

-هذه الوسادة ستمنعك من الحصول على قبلة الوداع، هل ستبقينها على وجهك؟!

-بالتأكيد، من قال أنني بحاجة إلى قبلتك؟! لو كنت تحبني فعلاً كما تقول لما سمحت لحاجز قماشى بمنعك من الوصول لحبيبتك!

-هكذا اذن؟! أزاح الوسادة بالقوة وعاود تقبيلها ونهض كمن انتصر في معركته الحاسمة ضد عدوه، ثم غادر الغرفة ووعدنا بأن يعود قبل موعد الغداء...

اتصل بإبراهيم وطلب منه أن ينتظره هذه المرة في أحد المقاهي التي اعتادوا أن يجلسوا فيها ولكن إبراهيم عانده مرة أخرى وذكره بأنه لم يعد يعمل لدى عبدالله فعليه أن يتغير بشكل جذري ويغير أسلوب حياته بما في ذلك فئة المقاهي التي يجلس فيها...

-التقيا في مقهى شعبي من اختيار إبراهيم الذي كان قد سبقه وطلب له فنجان قهوة كما يحبه بينما طلب لنفسه أرجيلة حيث تعتبر ادمانه الأول، تعلمها بعد أن ترك التدخين ولكنه أصبح يدخن بها أكثر من السجائر... كان لديه اثنتين في البيت واحدة لكل واحدة نكهتها الخاصة، وواحدة تتنقل معه في السيارة حيثما ذهب... يعاملها برقة وحنان ويعتبر المساس بها خط أحمر من قبل أي شخص... كان خالد لا يجد في إبراهيم عيباً سوى أنه يدخن الأرجيلة فيقول له دائماً بأنه إذا تركها سيترك خالد كل عاداته السيئة وذلك لتأكده بأن إبراهيم لن يترك الأرجيلة أبداً...

-إذا كنت بلا عمل فغيرك لا يزال على رأس عمله، هل تنوي القضاء عليّ
بتصرفاتك هذه؟!

-لن أكون أكثر ضرراً من السموم التي تدخلها إلى رئتيك وأنت تضحك!

-أليست أفضل من أن أدخل مالاً حراماً إلى معدتي؟!

-تباً لك ولمنطقك الأعوج! كيف تقارن هذه بتلك؟! لا أعرف من أين تأتي
بالإجابات الالتفافية هذه! كم تتملكني الرغبة للكمك الآن على أنفك حتى
تسقط أسنانك أمامك...

-إذا لكممني على أنفي سينزف دماً أما إذا كنت تريد اسقاط أسناني فعليك أن
تلكمني هنا، وسحب نفساً من الأرجيلة في حركة استفزازية لخالد...

-حسناً توقف عن محاولتك البائسة للظهور بمظهر خفيف الظل... لقد قررت
أن أهاجر بحثاً عن العمل في الخارج... شهاداتي قوية وخبراتي جيدة... ومظهري
لائق... هذه المؤهلات العلمية والعملية التي أمتلكها، أما بالنسبة للأسباب
الحقيقية فسأخبرك بها وحدك لأنك صديقي... اقترب قليلاً:

أنا خائف من عبد الله، نعم فقد كانت البارحة ردة فعله مجنونة، أنت تعرف أنه
يمتلك ضدي وثائق سرية تدينني وقد تدخلني السجن للأبد!

-كيف ذلك ولكنكما متورطان في كل هذا معاً، هل يعقل أن يكشف وثائق
تدينه وتدينك؟!

-أنت تعرف أنه أقوى مني بكثير وسأخسر أنا لوحدي... علي أن أهاجر بأسرع وقت ممكن...

-حسناً معك حق في أن تكون خائفاً ولكنني رغم هذا لا أراه مبرراً كافياً لترك البلاد فالغربة ليست سهلة كما تعتقد، سأخبرك عن تجربتي وبعدها سأترك لك القرار... دائماً ما كنت أكرر القول بأن درس الغربة الأهم هو أنك تتعرض لأقصى شيء في كل شيء! كيف ذلك؟ تتعامل مع أكثر أنواع الأنفس والشخصيات تطرفاً في فترة زمنية بسيطة فتتلقى كما هائلاً من الدروس يفوق قدرة عقلك على الاستيعاب وتكون مجبراً على التأقلم معهم بل ربما تجد نفسك تلقائياً تخضع لطريقتهم وأسلوبهم مما يجعلك تصاب بأحيان كثيرة بصداع شديد(حرفياً) لإلضطرارك أن تكون شخصاً آخر مختلف تماماً عن حقيقتك وبعد أن تكون مؤمناً تمام الإيمان بأن هذه الأنواع من الشخصيات لا يمكن أن تكون موجودة على الإطلاق تجد نفسك تتعامل معهم كأنهم الأغلبية والقاعدة وما دونهم من البشر العاديين هم الاستثناء...

-ابراهيم لا يمكنني تخيل البقاء هنا ليوم واحد آخر، لم يبق لي شيء أبقى من أجله... باتت فكرة الغربة حقيقة محتومة بالنسبة لي...

-يا خالد اسمعني ولا تتسرع فما أتحدث عنه يشبه الحصول على مجموعة كبيرة من الكتب المطبوعة بعدة لهجات معقدة غريبة متشابكة الأحرف والأفكار ثم التقدم

للإختبار بها خلال أسبوع من استلامها حيث ستكون علامة النجاح 99 من مئة....ويشترط عدم الحصول على مدرس خصوصي وعدم الاستعانة بكهل أتحنه جروح السنين والأزمان، وعدم الاستعانة بكتب التاريخ لمحاولة معرفة كيفية تعامل من عاشوا قبلنا مع أنواع مختلفة من الكائنات قد يشبه بعضها بعض الأنواع التي قد تجربك الغربة على التعايش معها في حيز ضيق وزمان ضيق!! الأمر يا أصدقائي يشبه إلى حد بعيد أن يصفحك أحدهم على وجهك في اليوم ثلاثين مرة على فترات متباعدة! لا شك أن الكدمات في نهاية اليوم ستكون واضحة بشكل أكبر من الآثار التي قد يتركها كم مماثل من الصفعات ان كانت الفترة الزمنية لتلقيها بالأشهر أو السنوات....

الغربة إن صح التعبير تقدم لك على طبق من حديد ساخن اسمه المال مجموعة من المأكولات العفنة النتنة ومنتهية الصلاحية إلى جانب مجموعة أخرى من الحلويات التي لم يسبق لك تذوقها والتي من فرط رقتها قد تذوب بين أصابعك قبل أن تصل فمك...والمطلوب منك حتى تحصل على هذا الطبق الحديدي الساخن (لم أقل فضة أو ذهباً) أن تأكل وبطيب خاطر جميع المحتويات الموجودة فوقه وأن تظهر المتعة وأنت تتناولها، وأن تتناولها بنهم الجائع التائه في الصحراء منذ أسبوع لم ترطب شفاته قطرة ماء، ثم أن تبتلعها حتى تدخل جوفك وأن تخفي الآلام التي أوجدها في معدتك وقلبك وكبدك وروحك ونفسك وبنكرياسك وأمعائك الدقيقة والغليظة وصدقك وحبك وأملك وأقدامك وأصابعك وشعرك

وشجاعتك وأحلامك، ، ، ثم بعد أن تقوم بهذا كله ان كنت لا تزال قادراً على المشي على قدميك وكان في العمر بقية فانحني وتناول طبقك الحديدي ثم اقفل عائدآ إلى وطنك محملاً بآلام نالت من جسدك وروحك ما نالت، وحقيبة فيها طبق حديدي لو جلست لسنوات تخبر الناس ما الذي كنت مضطراً لتناوله من أجل أن تحصل عليه لما صدقوك ولأجمعوا كلهم أنك تروي هذه الخرافات والأساطير لتبعد عن نفسك أعين الحاسدين المبغضين الكارهين لنجاحك....

-ولكن لم يبقى لي في الوطن لا طبق فضة ولا طبق حديد حتى فأنا ان بقيت هنا سأعاني كالحیوانات ولن أحصل سوى على الفتات...

-الفرق بين الطبق الحديدي والحصول عليه في الغربية وفي الوطن أنك أولاً في الوطن لست مقيداً بفترة زمنية عليك أن تحصل خلالها على الطبق ولست مضطراً للحصول عليه كاملاً وبالتالي لست مضطراً لتناول جميع المأكولات التي فوقه، وان كنت زاهداً ولا ترى في الحصول عليه كاملاً انجازاً عظيماً فاترك الجزء المغطى بالقذارات والمأكولات المنتهية الصلاحية كاملاً وتناول الجزء المغطى بالحلويات اللذيذة وهنا أقصد بالحلويات اللذيذة بعض الأشخاص الذين ستجمعك بهم الغربية وتفرقك عنهم وأنت لا تزال تحمل معك رأتهمم الزكية النقية وتظل تترنم بذكراهم ويعلمونك دروساً راقية في الأدب والأخلاق الرفيعة ويجعلونك تتمنى أن لو رزقك الله المئات منهم عندما تعود للوطن ولكن هي سنة

الحياة... الأشياء الجميلة مبعثرة هنا وهناك والأشياء القبيحة تغطي مساحات شاسعة تجعلها تتعثر بك أينما اتجهت...

إن الغربة اختبار حقيقي لمعادن الرجال ولطالما سمعنا أشخاصاً عادوا من الغربة يطلقون صفات معينة عن جنسيات معينة وكنا ننكر عليهم ذلك التعميم ولكن بعد أن تذوقنا مرارة الغربة اكتشفنا بأنفسنا أن الغربة تضعك على المحك وتختبر طبائعك وأخلاقك وتربيتك وتستفز أعماقك فتظهر أفضل ما لديك وأسوأ ما لديك، وتجبرك على الظهور على حقيقتك فلا تعود قادراً على التظاهر بأنك عكسها! فالغربة هي البيئة الأخصب على الإطلاق لتألق القناعات والمبادئ وبروز أمراض القلوب وما تخفي الصدور، فالتمثيل لا يجدي نفعاً في التظاهر، والأفئدة لا تجدي نفعاً في التظاهر، فالمنافق يظهر منافقاً صافياً لا يختلف اثنين على نفاقه، وابن الكرم والجود والنخوة والشهامة يظهر واضحاً كوضوح قرص الشمس في كبد السماء، وكل صاحب طبع أو صفة أو مرض أو مبدأ تتساقط عنه جميع الأوراق التي كانت تستر عورته فيتعرى حتى يصبح القادم من بعد مئات الأميال يشتم رائحته ويعرفه حق المعرفة بأنه فلان الفلاني صاحب الصفة الفلانية... وهنا تلعب الجغرافية دوراً كبيراً في كشف الأشخاص على حقيقتهم ومنحك درساً قاسياً لن تنساه في الحذر من الناس وعدم التسرع في منحهم الثقة فالمغتربون شاءوا أم أبو يعرفون بعضهم البعض ومضطرون للتعامل مع بعضهم البعض على الأقل لأنهم في غربة ومن المنطق أن يكونوا يداً واحدة ولأن من الغباء أن تعتقد

بأنه يمكنك أن تعيش وحيداً وسط بلاد غريبة لا تعرف عنها الكثير ولن تجد فيها أرفأً بحالك من ابن بلدك الذي تستشعر تلقائياً بالقرب منه وتتولد لديك لا شعورياً أحاسيس مريحة تجاهه وقبل ذلك كله تفترض بأنه لن يغدرك ولن يخونك وسيصدقك وستكونان جنباً إلى جنب أقوى وأكثر أماناً وأقل استهدافاً... وهكذا كان كل واحد منا يفترض عندما يحاول التقرب من ابن بلده ولكن وبعد بعض التجارب السيئة ثبت أن عليك الحذر منه أولاً وقبل البعيد الغريب! فسبحان الله كأن الذي نراه ونعاني منه في بلداننا من غدر وخيانة وطعن في الظهر ما هي إلا طباع متأصلة دواخلنا نحملها معنا أين رحلنا وارتحلنا... ففكرة اليد الواحدة التي بدأ البعض بالتحلل منها تدريجياً بعد أن تذوق منها الأمرين على يد ولسان أقرب الناس إليه هي التي كانت تجعل الجميع يعرف الجميع فبسببها تكون مضطراً للتواصل مع أبناء جاليتك والتعامل معهم عن قرب ودخول بيوتهم وتلبية دعواتهم ودعوتهم إلى منزلك والخروج معهم والوقوف إلى جانبهم في حال وقوع أحدهم في مشكلة وهكذا تزداد نسبة الاحتكاك والتواصل وتكتشف كم أن بعضهم بعيد جداً جداً عنك في نمط حياته وتصرفاته ونظراته للحياة، بل قد تلتقي شخصاً قادماً من قارة أخرى ويجمعكما أكثر مما يجمعك بهذا الذي يسكن بعيداً عنك عدة كيلومترات في الأردن!!

-مهما كانت الغربة القاسية فلن تكون أقسى من البقاء هنا وأنا لا أجد فرقاً كبيراً بين التقدم بالسن في الوطن والتقدم فيه في الغربة!

تمر سنوات الغربة يا خالد مجلوها ومرها وتترك آثاراً عميقة لا تزول يظل أكبرها ما تستطيع تركه في نفوس الآخرين من ذكرى عطرة تظل عابقة بأرواحهم أينما حطت بهم أشعة الحياة فيذكرونك بالخير والدعاء أينما ذهبوا فالغربة تجربة غنية وقصيرة تجمعك بأناس من كافة الأصول والمنابت والأعراق ثم يعود كل واحد من حيث أتى حاملاً معه المواقف والذكريات فما كان منها سيئاً تركه في المطار وما كان منها حسناً حمله معه يحدث به الناس في المجالس بفرح وسرور بأن الأقدار جمعتهم يوماً مع فلان أو علان الذي كان كذا وكذا من الصفات الأصيلة الأنيقة الراقية الرفيعة.... فهذا كل ما يطمح له الإنسان، السيرة العطرة، وإلا فكنوز الأرض كلها لن تنفع الإنسان لا في الدنيا ولا في الآخرة ان كان ظلم أحداً أو أكل ماله أو خانته أو غدر به من أجل مال أو نفوذ أو منصب....

الآن الأمر بين يديك افعل ما تراه مناسباً... دعني أطلب الآن طاولة الزهر لنلعب وننسى كل هذه الأحاديث وعندما تعود إلى بيتك في المساء تناقش أنت وأسماء في هذا القرار فالأمر لا يعينك لوحدك فعليكما أن تتخذاه معاً حتى تتحملا مسؤوليته معاً....

روح العودة

-لا أستطيع الإحتمال أكثر، أرجوك يا عم أن تسمح لي بالعودة إلى البيت ليوم واحد فقط، صدقي سأكون هنا قبل أن يحل الظلام، منذ علمت بطلاق أُمي وأنا أشعر بنار تشتعل بداخلي وتحرقني، منعني من الذهاب على الفور خوفاً من أرتكب عملاً خطيراً ولكن ها قد مضى يومان ولم تنطفئ النار في داخلي فأخبرني إلى متى ستمنعني من العودة إلى البيت للإطمئنان عن أُمي... ألم تصدق أنني تغيرت بعد أن أحرقت تلك الورقة قبل يومين؟! هذه فرصتي لأبرهن لك أنني تغيرت وأنني سأأتى قبل أن أفكر بالطريقة التي سأعالج بها ما فعله أبي بأسرتنا...

-يا بني تريث، ان أكثر القرارات الخاطئة التي نتخذها في حياتنا تكون بسبب ردود أفعالنا السريعة ومحاولتنا لمعالجة المشاكل فور حدوثها، ان العقل يتعطل خلال الدقائق الأولى للمصيبة فلا يعود بإمكانه التفكير بشكل صحيح... لا يمكن أن يكون أول تصرف يخطر ببالك بعد الحادثة بثواني صحيحاً... الأمر يشبه ردة فعل الإنسان عندما تخزه شوكة على مقدمة اصبعه، يتراجع إلى الخلف ويسحب اصبعه، هل تعلم أن عقله حينها لم يكن قد شعر بالألم بعد؟ ؟ ؟ يكون النخاع الشوكي هو الذي أصدر الأمر بذلك ودون أن يستشير الدماغ الذي من عادته يتأخر ليفكر بروية ماذا سيفعل... لو تركتك تذهب قبل يومين

لتصرفت كالنخاع الشوكي بلا تفكير، أما اليوم فسأدعك تذهب لأنك ستصرف بما يمليه عليك عقلك بعد تفكير عميق...

بعدما سمع أحمد هذه الكلمات قفز من الفرع أمام الشيخ وأخذ يقبل يده ويشكره مع أن الشيخ لم يفرض عليه البقاء بالقوة إلا أنه طلب منه ذلك خوفاً عليه من التسرع في تصرفاته ان هو ذهب ولا تزال أمه لم تهدأ بعد من أزمته، ، انطلق أحمد عائداً للمرة الأولى إلى بيته بعد غياب سبعة عشر يوماً لا يعرف ما حصل خلالها فيه...

-انتظر انتظر هل تعرف كيف ستصل إلى بيتك من هنا؟!

-لا أعرف ولكنني سأصل لا تخف، اعتني بنفسك جيداً وتأكد أن كلماتك ستكون حاضرة في رأسي في كل ما أفعل...

وصل أحمد البيت بعد ساعتين، دخله كمن كان غائباً عن وطنه وعاد إليه بعد غربة مريرة... أخذ يتأمل جدرانه كأنه يصافحها... أخذ يتحسسها بيده فقد كانت المرة الأولى التي يكتشف فيها قيمة الانتماء لوطن وبيت... أن تجد في آخر نهارك المتعب صدىً تلقي همومك فوقه... هي مجرد جدران ولكنها وطنه الواسع حيث يجد ما لم يكن يجد في حضن أمه وأبيه... استمر في جولته على كل غرفة.. صافح كل عامل وحارس للقصر كأنهم اخوته.. صعد إلى غرفته وأمسك بمقبض الباب وتردد لثواني قبل أن ينزله ببطء ليفتح الباب عن غرفة لا تزال كما تركها

تماماً حتى شك أن أحداً لم يطأها حتى أمه وأبوه... جال بناظره في أرجاءها... كل شيء مرتب في مكانه تماماً كما غادرها آخر مرة وهذا بالتأكيد عمل الخادمة فأمه لم يسبق لها أن غيرت مكان شيء في غرفته...

هل هكذا الأمهات كلهن أم هي أُمي فقط القاسية التي بلا قلب؟! لماذا لم يسبق لها أن جلست هنا على حافة السرير لتسألني ان كان هناك ما يزعجني؟! لماذا لم تقرأ لي يوماً قصة قبل النوم؟! متى احتضنتني آخر مرة؟! هل تعتقدني كبرت على هذه التصرفات الطفولية؟! ولكنني لا أعرف رأتحتها! أليست الأمهات لهن رائحة يعرفها الأطفال جيداً لأنهم دائماً مشدودون إلى صدورهن؟! رائحة أُمي غير واضحة بالنسبة لي فقد توقفت عن ارضاعي بعد أسبوع واحد فقط ومنذ ذلك الوقت وصورتها مشوشة في عقلي... لقد أخبرتني بذلك وهي تضحك، قالت بأنها كانت تخشى أن تشوه الرضاعة الطبيعية صدرها لذلك جعلتني أتناول الحليب الصناعي... قالت بأن تلك كانت رغبة أبي ولكنني أشك في صدقها... أشك في كل شيء كانت تخبرني إياه! تتشكل الصلة بين الإبن وأمه منذ أن يكون طفلاً فهي تملأه بالأمان من حضنها الدافئ! لهذا أنا أحتفظ حتى في سني هذه بدب قطني لا يفارق سريري! يا الهي! هل كنت متعلقاً بحلا لأنها كانت تمثل دور الأم بالنسبة لي؟! يا الهي! ماذا فعلت بي يا أُمي؟! ما الذنب الذي اقترفته بحقك لتعاقبيني بهذه القسوة...

ركض خارجاً من الغرفة فقد أثارت في عقله موجة من الأسئلة التي كان يتجنبها دائماً ، ، غادر القصر متجهاً للشركة فكانت مفاجأته أكبر بأن والده ليس موجوداً وأن خالد قدم استقالته من منصبه، بدأ عقل أحمد يربط الأحداث بطريقته البوليسية ليجد أن خالد هو من يخطط ليدمر عمل والده وأسرته فهو لم يثق به يوماً وكأن هذه الأحداث جاءت لتؤكد مخاوفه... غادر الشركة حانقاً على خالد وقرر أن يذهب إليه إلى منزله... لم يرتب كلمات يقولها له ولكنه فقط يرغب بمقابلته وعندها سيأتي التصرف الأنسب، يضربه، يقتله، يصرخ في وجهه، لا يعرف! هو فقط يريد مواجهته...

وصل أحمد بيت خالد وعندما رأى فخامته دارت الأفكار الشيطانية برأسه : أيها الفقير المعدم! لم تكن سوى حثالة قبل أن يلتقطك أبي من قرية المعدمة ويصنع منك انساناً! هل كنت تحلم بغرفة من هذا البيت لو أنك بقيت في بؤسك وشقاءك؟! لطالما أخبرت أبي بأن الجائعين يعضون اليد التي أطعمتهم إذا شبعوا... ولكنني لن أسمح لأحمق مثلك أن يدمر أسرتي! ليس لأنني أحبهم ولكن فقط لأعلمك ما عاقبة اللعب مع الكبار.. متى ستفهم أنك حشرة وستظل حشرة! لماذا يقاوم الفقراء هذه الحقيقة؟! لماذا يحاولون التمرد عليها؟! لماذا لا يلتزموا حدودهم ويؤمنوا بأنهم خلقوا لخدمتنا وأنا سندوسهم بأقدامنا لو حاولوا أن يثوروا على هذا الواقع....

بدأ أحمد طرق باب بيت خالد بعنف حتى أن زوجة خالد خافت وركضت للصالة حيث كان يجلس زوجها الذي وقف بمجرد أن سمع الصوت

-ما الأمر يا خالد من الذي يطرق باب بيتنا بهذا الشكل وقت الظهيرة؟ خالد أنا خائفة أن يكون عبدالله نفذ تهديده بالإبلاغ عنك؟! أو ربما يكون أرسل لك رجالاً يؤذوك؟! يا الهي أليس مقدراً لنا أن نعيش لحظة واحدة هادئة كبقية الناس؟!

أمسكها خالد مطمئناً وأجلسها على الكنبه وأخبرها بأن لا شيء مما تتخيله سيحدث وأنه سيخرج لإكتشاف الأمر....

استمرت الطرقات بقوة وبدأ يرافقها صراخ يدعو خالد للخروج، أمر خالد زوجته بالبقاء مكانها وعدم لحاقها مهما حصل... واتجه نحو الباب الذي كاد ينخلع من قوة الطرق...

ما أن فتح خالد الباب حتى أمسكه أحمد بحركة مباغتة من قميصه وشده بقوة حتى كاد يسقطه على الأرض، ولكن خالد وبعد أن عاد له اتزان له لكم أحمد على وجهه فتفجرت الدماء من أنفه وانتشرت بكل مكان، حاول أحمد أن يمسك خالد مرة أخرى ولكن خالد ثبتته من كتفيه وبسبب الفرق الواضح في الأجسام لم يعد بإمكان أحمد الوصول لوجه خالد فأصبح كالعصفور الجريح

-هل تنوي تدمير عائلتي بعد أن استوليت على ثروة أبي؟! لن يحدث هذا وأنا على قيد الحياة!

-أيها الأحمق عن ماذا تتكلم؟! لقد أخبرتك أن والدتك على علاقة سيئة بأبيك ولكنك لم تصدقني، وأخبرتك أيضاً بأن أبوك في طريقه لخسارة كل شيء...

-كف عن التصرف ببراءة، أفلتني! أفلتني!

ظهرت أسماء في هذه الأثناء من خلف خالد فترك أحمد على الفور وساد جو من الصمت فأسماء مصدومة من مشهد الدماء على وجه شاب لا تعرفه، وأحمد لا يعرف من هذه المرأة التي في بيت خالد، وخالد لا يريد أن يثير مخاوف أسماء أكثر...

-يا الله ماذا فعلت له يا خالد؟! يا المصيبتنا!

-اهدأي يا حبيبتي انه أحمد ابن عبد الله

-أهدأ؟ ألا ترى الدماء تسيل من أنفه؟! وهل ذكر هويته سيخفف من حجم المصيبة؟! ألم تنتهي علاقتنا بهذه الشركة وبكل ما يتعلق بها؟! هل ستظل لعنتها تلاحقنا؟!!

-يا حبيبتي أرجوك لقد جاء كصديق وأخ ليستفسر عن أمر شخصي لا علاقة له بالعمل...

أحمد يتابع الحوار بصدمة؟! أنا صديقه؟! هي حبيبته؟! ما الذي يجري؟! حتى أن غضبه هدأ ورأى أن تصرفه لم يكن لائقاً وبدأ بلوم نفسه على اختراق خصوصية عائلة في مثل هذا الوقت، لو كان يعرف أن خالد متزوج لما هاجمه بهذه الطريقة في بيته وأمام زوجته... لم يعد يلوم خالد على ردة فعله فلو كان مكانه لقام بنفس التصرف...

وجهت أسماء كلامها لأحمد: أرجو أن تتفهم أيها الشاب أن زوجي لم يعد له أية علاقة بأبيك وأعماله فهلا تكرمتم وتركتمونا وشأننا! نحن فقط نحاول أن نعيش حياة اعتيادية....

شعر أحمد بالحجل وأخذ يحدق بنظره بعيداً ولم يردّ عليها ولكن خالد فعل: أسماء! إذا سمحتي ادخلي الآن إلى غرفتك واتركينا لوحدهنا...
-لكنني فقط...

-قلت ادخلي وجهزي غرفة الضيوف سندخل أنا وأحمد إليها... هيا أرجوك أن تفعلي ما طلبته منك... دخلت ولحقها خالد يمسك بيد أحمد وسار معه إلى المغسلة وانتظره حتى نظف آثار الدماء وناولته منشفة ثم دله إلى طريق غرفة الضيوف وذهب هو إلى المطبخ ليحضر له وأحمد شيئاً يشربانه...

-حسناً يا أحمد أعرف أن لديك الكثير من الأسئلة لذلك دعني أبدأ أولاً بما لدي وبعدها ان كان لديك استفسارات سأجيبك عنها بالتفصيل... أنا أعرف كيف تنظر إلي أنت وأبوك، أعرف ما هي الصورة التي ترسمونها عني وأنا لا أحاول هنا أن أحسنها فلم تعد تربطني بك وبعائلتك أي رابطة، أعرف أنكم تنظرون إلي باستحقار ودونية وصدقوني أنني أبادلكم النظرة ذاتها! نعم لا تستغرب فمنذ اليوم الأول الذي عملت فيه مع والدك وأنا أعرف أنني طرقت باب المخاطر بيدي ولكن حينها لم أكن أفكر إلا بالمال ولا شيء سوى المال، قلت سأعمل لفترة بسيطة عند والدك ثم أصبح ثرياً وأتمكن من فتح شركتي الخاصة فهذا حلم يراودني منذ تخرجت ولم يكن بإمكانني تحقيقه إذا عملت في القطاع الحكومي... لست هنا لأطلعك على سيرتي الذاتية ولكن من حقك أن تعرف كل شيء فربما لن نلتقي مرة أخرى... كان المال هي الأول ولكنني كنت أجمعه من أجل عائلتي، لا أريد أن يعيشوا بذل كما عشت أنا، ما ذنب هذه الإنسانية اللطيفة التي تحبني وتدلني وتحملني على أكف الراحة في أن تعيش حياة أقل من حياة أملك التي لا تطيق زوجها ولا يطيقها زوجها! الأمر يتعلق بالأولويات يا صديقي... عائلتي دفعتني لأن أضحي من أجلها بكل شيء، أعرف أنني لم أسلك الطريق المستقيمة ولكنني لم أفكر كثيراً بالوسيلة عندما قارنتها بنبل غايتي...

أعجب أحمد بكلام خالد بل أعجب بخالد نفسه، ألم يسرق من نقود والده التي حصل عليها بطرق ملتوية؟! هذه شجاعة بنظره، عبدالله يستحق فالله يرسل

للأشرار أشباههم إلا أن شر خالد لم يطل الأبرياء، كان يسرق لسبب نبيل، خالد هو وجه العدالة المشوه في الأرض...

-لو كانت عائلتك تعامل بحب لما ترددت للحظة واحدة بالوقوف إلى جانبهم ولكنك لم تتذوق طعم العائلة ولم تعيش يوماً تحت ظلها... مهما حاولت أن أقرب لك الصورة فالحقيقة أشد تأثيراً، انظر إلى نفسك كيف تقاتل من أجل استقرار عائلتك رغم أنها لم تقدم لك يوماً شيئاً سوى المأوى والمأكل والمشرب، انتفضت عندما شعرت بأن هذه الخيمة رغم أجواءها الكئيبة ستنقض! فما بالك بأسرة تحتضنك وتشعرك بالأمان والدفء؟! ألا تستحق القتال من أجلها... نحن يا أحمد إذا وجدنا قضية سامية نستमित بالدفاع عنها لأنها تصبح جوهر وجودنا.. هذا كان حالي قبل أن تموت أمل بسبب غباي! أصبحت أمام شيء قد يهدد استقرار عائلي فاخترتها على الفور وتركت كل المكاسب في سبيل الحفاظ على زوجتي التي لم يبق لي سواها!

-أمل؟! من تكون أمل؟!

عندما بدأ خالد يشرح لأحمد ما حدث لزوجته بدأ أحمد يكتشف أنه لم يكن يعرف خالد من قبل! لم يواجه من قبل شخصيته القوية الحنونة في نفس الوقت... ازداد إعجاب أحمد به بل تضاعف... خالد يشرح وأحمد سارح في ملاحظه المليئة بالعنفوان والشغف وهو يتحدث بكل ألفة عن زوجته، بطريقة لم يشاهد أحمد والده يمارسها من قبل في الحديث عن زوجته... رجل شهم شجاع

يجب زوجته ولا يخجل من الإعتراف بأنها سنده في الحياة وأنه يبكي فوق صدرها عندما يكون منهكاً من العمل...

ياله من يوم عصيب علي! أين كنت أعيش أنا قبل اليوم ومع من! في الصباح عرفت أنني تقربت من حلا لتعوضني عن حنان الأم والآن أكتشف اعجابي بخالد لأنه يعوضني عن قوة الأب! كل علاقتي ليست نابعة من عاطفة سليمة! انها فقط نتيجة نقص كنت أعانيه منذ طفولتي... لماذا لم يكن أبي شهماً كخالد ليحافظ على أسرتنا؟! لماذا لم يخن خالد زوجته رغم توفر جميع الإمكانيات؟! لماذا لم يكن رجلاً مرة واحدة فقط في حياته؟! يا إلهي إنني أتمنى أن لي أباً كخالد حتى في ملامحه الجسدية المليئة بالقوة! أسمر الجبهة من الكد تحت أشعة الشمس! عيان خضراوان صافيتان وعضلات مفتولة... ثقة بالنفس تكاد تلامس الغرور! عزة نفس وكبرياء! وطموح وشجاعة! وأخلاق رفيعة مع زوجته وأصدقاءه... كلها أشياء لا تشتري بالمال ولكنها تورث بالجينات لذلك فشل أبي بالتخلي بها...

-أحمد؟! هل أنت معي؟ أين سرحت؟

-خالد، ألا تساعدني بالإنتقام من أبي؟! لقد ترك بقلبي جرحاً غائراً لا يزال ينزف...

-لم يعد بيني وبين والدك أية علاقة وذهب كل منا في سبيله فأرجوك أن لا تذكر اسمه أمامي فأنا غادرت باب الشركة وتركت كل شيء خلفي في تلك

اللحظة...أنوي أن أبدأ حياة جديدة نظيفة بعيدة عن الماضي كله، ، لقد سامحت والدك من كل قلبي وقطعت وعداً لزوجتي بأن أقطع هذا الخيط للأبد...

-ولكنك لن تؤذيه، اعتبرها مكافأة لك فأنت لا تستحق هذه النهاية، ألم تخبرني بأنك تحلم بأن تكون لك شركتك الخاصة؟! حسناً سأشاركك في تأسيسها، مني المال ومنك الخبرة، لقد اكتسبت خبرة كبيرة في عقد الصفقات وأنت تعمل في شركة أبي والآن فرصتك أن تستخدم هذه الخبرات ولكن في شركة نظيفة وبأموال نظيفة... ها ماذا قلت؟!

-اسمع يا أحمد ما سأقوله لك جيداً، قد ترى أنني شاب مكافح وطموح ولكنني لم أنسى يوماً أنني فقير، الفقر لا يغادرنا بمجرد أن نصبح أغنياء! هل تعرف كيف نحلم نحن الفقراء؟ أن نحلم في عالمنا نحن الفقراء ليس بالشيء السهل إطلاقاً فمجرد إطلاق مفردة الحلم على شيء يمكن أن يتحقق يضعنا في مأزق المواجهة مع أنفسنا، هل نحن نستحق أن نحلم؟ وهل نحن على قدر الحالين في الوعي والادراك والشعور والوعي والاحساس..

...قلت إطلاق مفردة الحلم على شيء يمكن أن يتحقق! إذن فالبعض يضيق الخناق على هذا المصطلح فلا يضعه إلا في حيز الأشياء التي لا يمكن تحقيقها ثم

ينطلق بعقله الباطن ليقنع نفسه بأنه سوف يحققه.....على الأغلب فئة الحالمين تضم المستضعفين والسذج والأبرياء -بنظر البعض- لأن الانسان المتمكن لا يقف أمام حاجز أو عائق فينطلق بقوة نحو تحقيق كل شيء دون اعتبار لظروف أو امكانيات، وعلى هذا تكون كل أحلام هذا الشخص محض واقع وان تأخر حدوثها أو الاحساس بها.....

أعرف أن الحلم بوابة كبيرة يدخلها الانسان متى ضاقت به الظروف المحيطة ولكنني أيضاً أعرف أنه ليست كل الأحلام جائزة، خاصة ان كان فيها شيء يخالف الأعراف والشرائع أو كانت غير مناسبة للزمان والمكان، وهنا تكمن الخدعة التي يقع فيها الكثيرون فهم يدافعون عن أحلامهم بضراوة مع أن جلسة لوقت قليل مع الذات ستجعلهم يكتشفون حجم خطأهم بأن حلمهم لا يمكن أن يتحقق لأن القدر لن يضع شخصاً شرساً في القمة ولن يضع شخصاً ضعيفاً في موقع القيادة.....

التناقض يكمن في ظننا أن تشذيب الأحلام بما يناسب الواقع هو نوع من الضعف، هذا ليس صحيحاً فالأحلام لا تعود أحلاماً ان كانت غير قابلة للتطبيق بل تصبح أسطورة أو خرافة، فالحلم هدف أقرب من كونه أمنية، والحلم طريق واضح أقرب منه دهاليز ومتاهات، ، ، ، أضف الى ذلك أن بعض الأحلام بل ربما بعض الحالمين- لا أخجل من قول ذلك-وقحين! لأنه وباختصار فإن الحالم هو

شخص يحلم بالأجمل والأفضل والأكمل فلا يجوز أن يحلم الانسان بتدمير البشرية أو بالسيطرة على العالم لحسابه الخاص وتجويع وتركيع الملايين تحت حجة أنه (صاحب مشروع)،،،،

أحياناً تختلط الأمور فتصبح أحلامنا مرتبكة أو ضبابية لأننا فقط نحلم بالخروج من الواقع ولو الى الأسوأ! سأضرب مثلاً بسيطاً من واقعنا، فئة كبيرة من الشباب تحلم بأن تكون له الحرية الكاملة في الحب العلني والسير مع المحبوبة تحت حبات المطر دون خوف من شرطي أو أهل أو حكومة أو مجتمع، أين الخطأ في ذلك؟ الخطأ في هذا الموقف خطأ مركب وليس خطأ واحداً ولكن أولها بل وأعظمها هو الخطأ في فطرتك قصيرة النظر اللامبالية بأحلام الانسان الذي يعيش معك بنفس الكوكب ولا يجد قوت يومه، تخيل أن حلمك أصبح واقعاً في واقعنا المعاش وسرت أنت وحببتك تحت المطر وأمسكت بيدها بحنان وعاطفة وقلت لها أحبك، وكان أمامكما طفل يلتحف السماء الماطرة بجانب حاوية القمامة لا يجد ما يقيه برد الشتاء ولا حر الصيف! ألا يجدر بك أن تحلم بمستقبل أفضل له؟ ألا يجدر بك أن تحلم بأن ملك العالم وتوزع الأموال على الفقراء والضعفاء وتؤويهم وتحميهم من وحوش البشر والغابات؟ ان الحلم المسيطر على عالمنا الآن هو عالم خال من الحروب، عالم يشبع فيه كل أفراد، وبعدها عندما نشبع بالتأكيد سيكون الحب نتيجة تلقائية وسلسلة....

الخطأ الثاني في هذا الحلم الأتاني القاصر هو أن كلمة أحبك لا يجب أن تكون حلمًا بقدر ما يجب أن تكون نتيجة لخطوات عملية قمتما بها معاً نحو أنفسكما وعائلتكما ومجتمعكما فأصبح جميع أفراد المجتمع يحبون بعضهم بعضاً وعندها لن يكون عليك أن تقول لحبيبتك أحبك تحت المطر لأنك قلتها لها في تصرفاتك وأفعالك...

أما الحديث عن الاحساس والمشاعر والرومانسية فانه حديث سخي في عالم يسكنه الخوف من المجهول والهلع من الواقع واليأس من المستقبل.....اسرقوا ما شئتم من لحظات الفرح فلا بد يوماً أن ترجعون عقارب الزمان الخائفة.....الحلم وان كان محط سخرية من البعض الا أنه منارة تحرك التائهين نحو عالم أجمل، أفضل، أسمى، بشرط أن يكون مشفوعاً بخطوات عملية ترسم الطريق بوضوح وتأتي ودراسة عميقة لما نعيشه ولما تشير الأحداث بأنه سيحصل.....

أعترف بأنني أحياناً أضطر لاختفاء أحلامي عن البعض لأنهم قد لا يفهمونها ولكن جمال الحلم يكمن في صعوبته وعجز الآخرين عن تخيله بل ظنهم أنك مجنون أو غائب عن الوعي، ولكن جماله الأكثر تألقاً هو في تحقيقه وتحويله الى واقع يروونه بأعينهم وعندها ستندوق لذة الانتصار على نفسك أولاً وأخيراً ثم على كل المنتقصين من قدراتك وامكانياتك وشجاعتك وصبرك وإصرارك وعزيمتك.....

لك أن تحلم بأن تكون فراشة ولكن عليك أن تفكر أولاً بالزهرة التي تنقل تلك الفراشة منها واليها حبوب اللقاح....لك أن تحلم بالحب ولكن عليك أن تفكر أولاً بعالم خال من الفقراء.....لا تخبر أحداً بحلمك فهم سيرونه بابتسامة انتصارك...هكذا أعتقد أنني وضحت لك فكري بأن الفقراء لا يستسيغون اللقمة السهلة! هكذا يخبرهم كبريائهم! يفضلون أن يحفروا الأرض بأصابعهم على أن يكون لأحد عليهم منة أو فضل...

كان هذا الدرس أقوى من أن يستوعبه أحمد فهو لم يجرب الفقر يوماً ولم يجرب ذل مد يده للآخرين فإزداد اصراراً على عرضه ولكن بمغريات أكبر دون أن يفهم أن أسباب رفض خالد أعمق من ذلك بكثير...

-أنت لا تفهمني يا أحمد! أنا أحترم طموحك ورغبتك بالاستقلال عن أهلك، وأعترف بأنني لم أرك بهذا النضج من قبل، ولأكن أكثر انصافاً قبل أن تقابل ذلك الشيخ، يبدو أن الحياة القاسية أنضجتك بسرعة، ولكن لأنهي هذا النقاش أريد أن أخبرك بسبب عملي حقيقي يجعلني أرغب بمغادرة البلاد وهو أن والدك قد هددني بوثائق تدينني وتدخلني السجن وعليه فإنني لا أستطيع البقاء هنا فترة أطول فضلاً عن أن أدير شركة وأنافس فيها والدك! !

-هل تخاف أن أورطك معي في صفقات مشبوهة؟!

-قلت لك لا أخشاك وأحترم أفكارك ومشاريعك ولكن هذه الوثائق السرية ستقضي على مستقبلي ومستقبل عائلتي فأرجوك أن ننهي هذا النقاش الآن!

-صدقني أن قراري هذا ليس بدافع الغضب والانتقام ولكنه القرار الأنسب لأصلح حياتي، أنت تعتقد أنني لا أزال ناقماً على أبي بشأن ما فعله لحلا ولكن الحقيقة أنني اكتشفت أن ما فعله لحلا أقل اساءة ارتكبها بحقي، فحلا ذقت الموت بسببه مرة واحدة ولكنني أندوقه في الموت عدة مرات ومع هذا صدقني أنني تحررت من كل هذه المشاعر وباتت قراراتي مبنية على نظرتي للمستقبل بعيداً عنه وعن آثاره...

-أعرف أنك لا تفعل ذلك ثأراً من والدك ولكنني بكل لطف أرفض عرضك واستأذنك الآن لأنني تأخرت كثيراً عن زوجتي وهي بحاجة الآن أكثر من أي وقت مضى.

نهض خالد معلناً انتهاء الجلسة بحزم لكن أحمد الذي لا يزال جالساً وجه له سؤالاً أخيراً: إذا وجدت الوثائق وأحرقها أمامك، هل ستعمل معي؟!

أدار خالد ظهره ورد على أحمد: وهل ستقدم والدك لمكافحة الفساد ليلقي مصيره الذي يستحقه؟؟؟!

روح الخيال

-لقد مضت ستة أشهر على زواجنا ولا تزالين ترفضين فكرة الحمل، هل يمكن أن تفسري لي ذلك يا ربي؟!

-هل يمكنك أن تفسر لي عدم احضارك للإفطار إلى سريري حتى الآن؟!

-ربي إياكي أن تتجاوزي حدودك!

-هههههه... أحب إغضابك يا نبض قلبي، ولكنني قلت لك الحمل والولادة لا يناسباني ولا أستطيع تحملهما، أريد أن أحافظ على جسدي بصحة جيدة! يا إلهي لا أتخيل أن يبرز بطني إلى الأمام لمدة تسعة أشهر! ياللقرف! ولا أعود قادرة على المشي وأضع يدي خلف ظهري هههه، لا يا حبيبي لا أعتقد أن هذا سيحصل عما قريب

-ولكن هذا حقي بأن أصبح أباً

-ألست أباً لأحمد؟! شاب طويل جميل ذكي لا يعيبه شيء

-أنا ليس لي أبناء! أحمد ليس ابني ولا أعرفه، أريد طفلاً أعوض فيه عقوق أحمد، ابناً أورثه ما أملك، ابناً يغضب وجدان ويحطمها ويخبرها بأنني أعيش حياة جديدة بعدها!

-اذن تريد أن تستغل جسدي لتنفيذ انتقامك؟!

-ليس الأمر كما تتصورين ولكنني لم أشعر مع أحمد بأني أب، أرجوك لا تحرميني هذا الشعور

-قلت لك لن أنجب...

-اذن أطلقك!

-افعلها ان استطعت، والله لأودعك السجن حتى تتعفن...

-هل تهددينني يا ربي؟!

-لا يا حبيبي فقط أذكرك بما أمتلك ضدك من أدلة... هل تعتقد أنني لست مستعدة للحظة التي ستركني فيها؟! لقد خططت لكل شيء! ما يخطر ببالك وما لا يخطر...

-ستندمين على تصرفاتك هذه...

خرج غاضباً وأغلق الباب خلفه بقوة بينما ألقت ربي نفسها فوق الكنبه الطويلة وهي تضحك وتقول: أحرق غبي لا يعرف مع من تورط...

اتجه عبدالله نحو الشركة وصعد إلى مكتبه وطلب من السكرتيرة أن تحضر له الأوراق التي تحتاج إلى توقيع، دخلت حاملة رزمة كبيرة من الأوراق وضعتها

أمامه ولم تخرج... انها امرأة قديرة تقوم بعملها بإتقان، هي الموظفة الوحيدة التي أوصت أم عبدالله بأن تبقى على رأس عملها إن قرر عبدالله أن يجري أي تغيير على كادر الشركة...

-اطلبي لي فنجان قهوة من غير سكر

-استاذ عبدالله هناك أمر يجب أن تعرفه...

-ما هو

ارتبكت السكرتيرة فلاحظ هذا عبدالله في وجهها

-ما الأمر؟! تكلمي

-لقد حضر مجموعة من رجال الشرطة وسألوا عنك

-ألم يقولوا لماذا أرادوا مقابليتي؟

-لقد كانوا غاضبين جداً وذكروا شيئاً عن صفقة الإسمنت

-حسناً أحضري القهوة وعودي إلى عملك...

رفع سماعة أحد الهواتف التي أمامه وطلب رقماً واتصل به ولم يجبه أحد... توتر قليلاً ثم اتصل من جواله بصديقه الذي لم يرد على الهاتف الأرضي

-مرحبا فراس كيف حالك لماذا لم تجبني على هاتف الشركة هل أنت في الخارج؟!

-أنا في الشركة ماذا تريد؟!

-لماذا تتحدث معي بهذه الطريقة؟!

-ألا تعرف؟!

-لا، أخبرني!

-لا تتظاهر بأنك لا تعرف أرجو أن تمسح رقمي من عندك وألا تعاود الإتصال بي مرة أخرى.. لا أريد بعد هذا العمر أن أتورط في مشاكل مع أطفال...

-فراس، عن ماذا تتحدث بالضبط؟ من هم الأطفال؟!

-ابنك أحمد وصديقك السابق رفعا دعوى قضائية ضدك وستقف أمام ابنك في المحكمة تدافع عن نفسك! عليك الآن أن تذهب لمقابلته وطلب صفحه عنك وإلا ستدخل السجن للأبد... إلى اللقاء...

-انتظر انتظر ولكنك صديقي هل ستتخلي عني بهذه السهولة؟!

-صديقك؟! يا عزيزي في عالم المال لا يوجد صديق وفي سوى المال، إذا طلب أحمد شهادتي سيكون من دواعي سروري أن أضعك في السجن... انه الوقت لتصحوا يا عزيزي

-فراس! فراس! انتظر!

أغلق فراس الهاتف وترك عبدالله وحده يفكر بطريقة يخرج بها من هذه المصيبة هل يعقل أن يضعني أحمد في السجن؟! هل يفعلها ابن بآبيه؟! ما على هذا أنشأته؟! ولكن لحظة! ربما استحق ما يحدث لي، ليس لي أصدقاء! وأنا لم أكن يوماً أباً صالحاً ولكن هل يحق للإبن أن يحاسب أباه على تصرفاته؟! لقد جمعت هذه الثروة من أجله! لقد كنت أمزح في حديثي مع ربي فأنا أحبه فهو ابني الوحيد! وخالد! لماذا يفعل هذا بي بعد كل المساعدات التي قدمتها له! يا إلهي! ألا يوجد أصدقاء حقيقيون! كل هذه العلاقات التي عشتها كانت وهماً! إنني أشعر بأنني وحيد! أين أذهب؟ ولمن ألجأ؟ هل كل حياتي كانت وهماً؟ هل كانت حلماً وعلي الآن أن استيقظ منه على الحقيقة المرة؟! لا يمكن أن يحصل لي كل هذا في يوم واحد؟! ليس أمامي سوى أن أذهب لأحمد وأرجوه أن يتراجع عن دعواه! ولكن ماذا سيقول عني الناس؟! لا لن أذهب! لن أذل نفسي له... يجب أن أواجهه كالرجال نعم فهو لم يعد طفلاً وسأعلمه أن من يقف في وجه عبدالله سيهزم مهما خيل إليه أنه قوي! سأحضر كل الأدلة التي تدين خالد وسأضعهما في مأزق!

نهض من مكتبه واتجه إلى لوحة معلقة على الحائط وأزالها فظهرت من خلفها قاصة مثبتة في الحائط، ضغط على أزرار الرقم السري وفتحها وكانت الصدمة! القاصة خالية تماماً! جن جنونه وخرج إلى مكتب السكرتيرة صارخاً: هل دخل أحد مكنتي؟! أجيبيني هل سمحت لأحد بالدخول إلى مكنتي في غيابي؟!!

- أقسم لك يا سيدي بأن أحداً لم يدخل مكتبك، أنت أخبرتي أن لا أسمح لأحد بالدخول فكيف سيدخل أحد في غيابك؟! لا أحد يمتلك مفاتيح مكتبك سوى أنا وأنت

- اذن أنت التي سرقتي! كيف فتحتي القاصة أخبريني!

بدأت السكرتيرة بالبكاء خوفاً من غضب عبدالله

- أقسم بحياة أبنائي أنني لم أدخل مكتبك! أرجوك أن تصدقي! أنا امرأة أنفق على أبنائي من هذا العمل منذ عشر سنوات منذ أن كانت أمك تدير هذه الشركة ولم ألطخ سمعتي بأي خطأ ولم أمد يدي إلى قرش ليس من حق! أقسم لك أن اتهاملك لي أشد على روعي من قطع رقبتني! لماذا لا تصدقي؟! لقد كنت مخلصه لهذه الشركة كأنها لابني وكنت أعاملك دائماً كإبني فأرجوك أن لا تشوه سيرتي وسمعتي الحسنة بعد هذا العمر

- كفي عن البكاء كالأطفال! أقسم بالله إذا لم تعترفي بسرقتك للقاصة أو تتذكري لمن سمحتي بالدخول لمكتبي لأتهمك بالتقصير وستقضين بقية عمرك في السجن!!

زاد نحيبها ولم تعرف كيف تتصرف ولكنها تذكرت فجأة أنها سمحت لأحمد بالدخول اليوم إلى مكتب والده حيث أخبرها أنه أرسله لإحضار بعض الأوراق ورغم أنها لم تشك بأنه هو من سرق القاصة إلا أنها كي تكون صادقة قررت أن تخبره

-أقسم بالله العظيم أن أحداً لم يتجاوز عتبة هذا المكتب سواي أنا وابنك أحمد فقد جاء اليوم وطلب الدخول إلى مكتبك وأخبرني أنك أرسلته لإحضار بعض الأوراق، هل أمنعه من دخول مكتب أبيه... أرجوك أن تسامحني إن أخطأت ولكن لماذا أمنعه؟! هي أمور عائلية لا شأن لي بها، أرجوك أن لا تطردني يا سيدي، أنا امرأة كبيرة في السن وليس لي ولأبنائي اليتامى مصدر رزق سوى هذا العمل، ،، لقد كانت أمك تثق بي فأنا لم أخطئ يوماً ولم أسرق ولم...

تركها عبدالله وهي تبكي وترجوه أن لا يطردها : عجوز خرقاء... تباً لك

لم يبقى أمام عبدالله سوى الذهاب إلى شركة أحمد لعله يتراجع عن دعواه، وللصدفة وجد أحمد وخالد يخرجان من باب الشركة ومجموعة من السيارات تستعد لمرافقته... كان منظره مهيباً أمام موظفيه... لم يعد ذلك الشاب المراهق! كأنه نضج عشرين عاماً خلال الستة أشهر الماضية التي غادر فيها المنزل... كان يرتدي بدلة سوداء ونظارة شمسية وحوله ثلاثة حراس وعلى يمينه يقف خالد... شعر عبدالله للمرة الأولى بضالة حجمه أمام ابنه الذي أصبح الآن مديراً عاماً لشركة تنافسه بشكل مباشر، وهي الآن تخوض قضية كبرى ضد شركة عبدالله التي لم تكن يوماً بحال أسوأ مما هي عليه اليوم...

وقف عبدالله بعيداً عن أحمد لأن الحراس منعه من الإقتراب ولكن أحمد أشار لهم بأن يسمحوا له بالإقتراب

-أحمد يا بني! كم اشتقت إليك! هل يمكنني أن أحادثك في أمر طارئ في مكتبك؟!

-لدي لقاء مع محامي الشركة قل ما عندك!

استغل أحمد هذا الموقف الذي كان ينتظره منذ زمن بعيد

-هل ستترك والدك في الشارع؟! ألن تستقبله في مكتبك؟!

-أنت لست أبي أنت منافسي في السوق، ان كنت جئت من أجل القضية فقد أصبحت بيد المحامي وان كنت تريد نصيحتي فغادر البلاد بسرعة قبل أن يصدر حكم المحكمة وتنسخ سمعتك بالطين

اقرب خالد من أحمد وهمس في اذنه : أحمد، مهما فعل معك هذا الرجل فهو في النهاية أبوك، لا يجوز أن تعاقبه بهذه القسوة وأمام الموظفين، إذا أردت أدخله إلى مكتبك وتحدث معه على انفراد وأنا سأنتظرك في السيارة

-أرجوك يا خالد أن تتخلى عن قلبك الأبيض هذا اليوم فقط، هل تصدق أنه لو كان يمتلك الوثائق السرية التي تدينك سيقف هناك ذليلاً يرجو أن نصفح عنه؟؟
؟! لو يمتلك وثيقة واحدة منها لكنا نحن الإثنين مكانه تماماً وعندها لن يرحمنا

اقرب عبدالله من أحمد : هل تريد أن أرجوك يا أحمد أمام الموظفين بأن تعفو عني؟! حسناً أنا أرجوك بأن تعفو عني وتساخني وتتنازل عن الدعوة،،،

انحنى عبدالله أمام أحمد الذي كان منتشياً بهذا الموقف، أما خالد فأدار وجهه إلى الناحية الأخرى كي لا يشهد هذا المشهد... توقع عبدالله أن يؤثر هذا التصرف على ابنه ولكن ظنه خاب عندما ابتسم أحمد ابتسامة المنتصر، لقد كان جليلاً أنه لا يحمل أي عاطفة تجاه والده...

-ارفع رأسك! ارفعه! لقد حان الوقت لتواجه ما اقترفته يداك؟! أين عبدالله الذي تهتز الأرض من تحته؟! أين الذي كان زعيم أكبر شبكة فاسدين في البلاد؟! أين جبروتك؟! أين سلطانك؟! ألم تكن تعتقد أنك ستصل إلى هذه الحالة؟! هل كنت تعتمد على الوثائق التي تمتلكها ضد شركائك لتحتفظ بولاءهم؟! أين هذه الوثائق الآن؟! ستودعك السجن للأبد؟! هل تعرف أنني حتى هذا الصباح كنت أتأمل أن في داخلك بذرة صالحة ولكنني كنت غيباً... عندما وقفت أمام القاصة وفكرت يا ترى ماذا سيكون الرقم السري؟! جربت أولاً تاريخ ميلادي، قلت في نفسي بأنك دائماً تخبرني بأنك جمعت هذه الثروة لي فمن المؤكد أنك وضعت تاريخ ميلادي ولكنها لم تفتح فأنت لم تفكر يوماً بشعوري أو تكثرث له، لم أكن يوماً بالنسبة لك سوى ابن عاق... ثم جربت تاريخ زواجك أنت وأمي فقط لأتأكد بأنك لا تحبها هي الأخرى وقد كان توقعي صحيحاً فلم تفتح القاصة...

حاول خالد أن يقنع أحمد بأن يتوقف عن هذا الكلام الآن أمام الجميع فقد نال والده ما يستحقه ولكن أحمد أخبره بأنه لم يشفي غليله بعد...

-فقلت في نفسي هذا الرجل لا ينتمي لأسرته وانتماءه فقط لأمه، هي التي علمته أن يعيش بلا قلب، بلا مشاعر، أن يدوس على كل شيء يحول بينه وبين الثروة، لولا أنها تعرف أنه أقسى أبنائها لما اتفقت معه على استغلال وجود اخوته خارج البلاد لتسجيل الميراث كله بإسمه...

تفاجأ خالد من هذه الحقائق التي لم يكن يدركها عن مديره السابق فهو يعرف أنه طماع وجشع ولكن ليس لهذه الدرجة

-وفعلاً كان الرقم السري للقاصة هو تاريخ ميلادها... وياجمال ما وجدت؟!

-أرجوك أن تتوقف، لم أعد أحتمل المزيد، لم أتخيل يوماً أن تكون نهايتي بهذه البشاعة! سأذهب الآن فمهما فعلت بي فلن يكون أقسى علي من أن يذلني ابني بهذه الطريقة...

أدار عبدالله ظهره وهو منهك القوى وهو يشعر بدوار شديد وكاد أن يسقط على الأرض ولكن أحمد أسنده : انتظر! ألا تريد أن تلقي التحية على حلا وأمها سلمى؟؟!

صعق عبدالله من هذه الكلمات فخر على الأرض وجلس على ركبتيه ونظر خلفه فوجد حلا وبجانبيها امرأة شابة تبدو في منتصف الثلاثينات... كانتا شاحبتين

وتحدقان في عبدالله الذي لم يعد يدرك ما الذي يحصل أمامه... كان الشيخ ووجدان واقفين أيضاً إلى جانب حلا وأمها سلمى... جحظت عينا عبدالله وهو يحرق بهم جميعاً ولا أحد منهم يرغب في إنزال عينيه عن عيني عبدالله...

بدأت حلا بالحديث : لماذا قتلتي يا أبي؟! لأنني ابنة لحظة شهوة؟! لماذا لم تخبر أحمد بأنك قتلتي لأنني أخته وليس لأنه صغير على الزواج؟! هل خشيت من الزواج من أمي لك لا ترث شيئاً من أملاكك؟! أنا ابنتك سواء جئت من طريق الحلال أو من طريق الحرام... لماذا لم تحرص وأنت تغتصب أمي الفقيرة بأن لا يحدث حمل... لماذا لم تجهضني؟! لماذا سمحت لي بأن أعيش أربع عشرة عام من القهر والذل قبل أن تقتلني... لو لم يحبني أحمد كنت ستركني أقضي حياتي مخفضة رأسي إلى الأرض لأنه مكتوب على جبيني ابنة الرذيلة... ليتك قتلت أمي معي كي ترتاح هي أيضاً من رؤية ابنتها التي تذكرها بالرجل الذي اغتصبها بالقوة في لحظة شهوة حيوانية ثم ألقاها على قارعة الطريق مهدداً إياها بأنها إن تفوهت بحرف واحد فسيشوه وجهها الجميل بماء النار؟! هل يستحق وجهها الجميل أن يتشوه؟! أجبني فقط وبرد نار قبيري...

وسط ذهول الحاضرين بدأت سلمى بالحديث : سؤال واحد تحيرني اجابته للآن، لماذا اخترتني دون النساء؟! حولك الكثير من النساء الجميلات الثريات فلماذا اخترت فتاة فقيرة لا حيلة لها... كنت متزوجاً منذ فترة قصيرة فلماذا تخون زوجتك وتختارني أنا الفتاة القذرة لتنتهك عذريتي وتشبع شهوتك الحيوانية ثم

تضربني بقدمك وتأمرني بأن أرتدي ملابسني وأخرج من عندك في منتصف الليل؟! لقد أخبرتك بحملي فأجبتني بكل قسوة أنني قد أكون حاملاً من أي رجل من رجال المدينة... قضيت تسعة أشهر من العذاب لم تكن تحضر لي خلالها حتى الأدوية التي كنت أحتاجها من أجل حلا... لماذا تبدو متفاجئاً؟ هل يغضبك أنني جريئة في البوح أمام وجدان والجميع؟! صدقني بعد خسارة حلا لم أعد أخشى شيئاً ولم أعد أكثرث كيف ستكون نهايتي! ولكننا اليوم مجتمعون لعذاب روحك، لنحرقها كما أحرقت أرواحنا وأجسادنا بلا أي أدنى انسانية....

لم يعد لعبدالله طاقة حتى للبقاء على ركبتيه فجلس على الأرض مشدوهاً مما يحدث أمامه وبكل برود أدار وجهه تجاه وجدان فما ستقوله لن يكون بالتأكيد أقسى مما سمعه حتى الآن

-هل تعرف ما هو شعوري تجاهك يا عبدالله؟! انه شعور الشفقة... لطالما كان هذا شعوري تجاهك منذ أن تزوجتك، بل أشك أنك كنت منذ اليوم الأول لولادتك تستحق الشفقة، لم تعرف يوماً ماذا تريد؟ ولم تهدأ نفسك يوماً، كنت دوماً تطمع بالمزيد ولا تقنع بما لديك.. لم تشعر يوماً بالراحة، كنت دائماً تعيش في رعب، كنت ترتجف وتحفل عندما ينكسر إناء في المطبخ، كنت تعرف أن أعداءك يتربصون بك، كنت تحيط نفسك دوماً بالحراسات المشددة ظناً منك أنها ستشعرك بالأمان ولكن لم يخطر ببالك يوماً أن عدوك الوحيد هو أنت! عدوك هو

عبدالله الذي كان يحرمك النوم ويطلب منك أن تكون حياتك دوماً صاحبة كي لا تجلس وتحاورها حول أخطاءك... لا أشعر بالأسف لما آلت إليه أحوالك فأنت تستحق هذا وأكثر لعلك تعي أن الحياة ليست فقط بجمع الأموال واشباع الشهوات... تحملتك وتحملت تصرفاتك الطفولية الرعناء وصبرت على طيشك لعلك تتعظ يوماً أو تعتبر بما يحدث من حولك إلا أنك لم تكن تزداد إلا حماقة...

بدأ الشيخ بالحديث مباشرة بعد أن انتهت وجدان : أما أنا فقد جئت لأصلح ما أفسدته ولأخبرك بأن بإمكانك استعادة عائلتك وحياتك والأمر الأول الذي يجب عليك فعله هو أن تعيد وجدان فهي الوحيدة التي وقفت إلى جانبك في جميع أزمالك.. ومن ثم..

ولكن عبدالله لم يكن باستطاعته أن يستمع إلى المزيد فبدأ يضرب الشارع بيديه ويصرخ : أرجوكم توقفوا! توقفوا! أرجوكم فقط اسكتوا كلكم! أرجوكم

هزه أحمد ليوقطه : أبي! أبي! توقف عن الصراخ! أبي استيقظ هذا أنا ابنك أحمد ومعني الشيخ فلاح! من هم الذين تطلب منهم أن يسكتوا؟! يبدو أنك كنت تحلم، منذ فترة ونحن نحاول ايقاظك وعندما رأينا أنك مستغرق في النوم ذهبنا في جولة

قصيرة في القصر ثم عدنا وأنت لا تزال نائماً فقررنا ايقاظك، نريد أن نتحدث
معك في موضوع....

روح الاستسلام

كان أحمد والشيخ يجلسان عن يمين ويسار عبدالله الذي كان قد أسند ظهره قليلاً على السرير، فرح لرؤية الشيخ في منزله ولكنه لم يفهم بعد سبب زيارته، عرض عليهم أن يجلسوا في الصالة أو في الحديقة لكن الشيخ أخبره بأنهم لا ينوون الإطالة وأنهم سيغادرون بعد قول ما لديهم بإختصار...

نظر أحمد إلى الشيخ وقال : ما رأيك أن تبدأ أنت؟

-حسناً، يا بني يا عبدالله لن أطيل الحديث ولن أزعجك بالنصح والموعظة فلقد تعلمت في الأيام الماضية مع ابنك أحمد أشياء كثيرة جعلتني أكتشف أنه لا يوجد شخص مؤهل لأن ينصح أحداً مهما كانت تجربته بل أنك قد تتعلم ممن هم أصغر منك سنّاً وتستفيد منه رغم قلة تجاربه، وعليه فأنا لا أطلب منك سوى أن تكون مثل أحمد ولو للحظات وتتخذ القرار الصحيح وتذهب لإعادة وجدان

كانت ملامح الفخر بادية على وجه أحمد والشيخ يتحدث عنه...

-ولكن يا عم...

-أرجوك أن لا تقاطعني، في النهاية أنا ليس لي سلطة عليك ولا يحق لي التدخل في شؤونكم الخاصة ولكن لو سمعت أحمد وهو يتحدث عنكما وعن حاجته لبقاءكما معاً لفكرت كثيراً في قرارك الأخير....

أحمد يتابع مصدوماً كلام الشيخ ويردد في نفسه : أنا أريد بقاءهما معاً؟! لم تخبرني بأنك تنوي استغلالني لإعادة لم شمل أسرتي؟! حسناً سأعتبر أنني ما سمعت شيئاً!

-دعني أخبرك شيئاً قد لا يعينك، عندما توفيت زوجتي بجادث سيارة لم أشعر سوى بالندم على الأيام التي قضيتها معها ونحن متشاجرون! يا عبدالله : أحب من حولك فأنت لا تعرف متى سيفرق الموت بينكم! هذه الخلافات تحدث بين أي زوجين مهما كانا متفاهمين ومهما كانا مثقفين ومتعلمين، هذه الشجارات هي ملح الزواج الذي يضي عليه نكهة خاصة... تخيل لو كنت أنت وزوجتك على وفاق دائم! يا إلهي لن يعود للحياة أي معنى! إذا لم تتشاجرا وترتفع أصواتكما ويأتي الجيران للإصلاح بينكما فلن تكون علاقة صحية! أتعرف لماذا؟ لأن هذا يدل على أن كل منكما يحب الآخر ويريده أن يكون الأفضل أما ان لم تتشاجرا فهذا يعني أن لا أحد منكما يحب الآخر لذلك فهو يتظاهر بأنه راضي به كما هو ولا يخبره بعيوبه ويوافق دائماً على ما يطلبه، هذا ليس حباً! ولا حتى زواجا! هذا موت في الحياة... إذا لم نختلف لن نعرف بالفروق بيننا وسنمارس علاقتنا ببرود وجفاء قاتل... لا يمكن أن تقول نعم دائماً! ثم أخبرني بالله عليك يا عبدالله كيف يمكنك أن تنسى كل الماضي الذي كان بينكما والعشرة مجلوها ومرها وتطلق

زوجتك؟! عبدالله، للمرة الثانية أقول لك أنت لست مجبراً على الأخذ بكلامي ولكن عليك أن تأخذ بكلام نفسك وتسألها ان كانت مقتنعة بهذا القرار؟ هل الأسباب التي دفعتك لطلاق وجدان مهما كانت مقنعة وكافية... هل سمعت ما قلت؟! هل هي كافية؟ هل هي مقنعة؟ ما النتائج التي ستترتب على طلاقك لوجدان؟ هل فكرت بمصير أحمد؟ هل عقدت مقارنة بين إيجابيات وسلبيات قرارك؟! إياك يا عبدالله أن تعتقد للحظة واحدة بأنك قد تجد فتاة تسعدك أكثر من وجدان! أنا لا أعرفها ولكن الرجال دائماً ولسبب أجهله يعتقدون أنهم يعيشون في الجحيم مع زوجاتهم وأنهم سيتذوقون طعم الحياة في اللحظة التي يتخلصون فيها من هذا القيد... فلا تجعل هذه الأفكار تسيطر عليك فمن صبرت معك كل هذه الفترة ستصبر معك العمر كله... فلا تضيعها في لحظة طيش... هيا انهض أعد زوجتك إلى البيت دعها ترى ابنها، لا بد أنها اشتاقت إليه...

بدت على ملامح وجه عبدالله علامات التأثر بكلام الشيخ وكأنه فقط كان يريد أن يشجعه أحد على هذا القرار دون أن ينال تطبيقه من كبرياءه...

-حسناً يا عم، فقط لتعرف مقدار مكانتك عندي وكم أقدر مجيئك إلي وتحمل عناء السفر سأذهب لإحضارها

-عبدالله!! ليس من أجلي! هل تريد أن تصلح الأمور أم تزيدنا تعقيداً؟! اذهب إلى زوجتك وأخبرها بأنك لا تستطيع أن تعيش يوماً واحداً دونها وأنت لم تحتمل أن تنام يوماً واحداً في غير بيتها... هيا...

-حسناً يا عم، أرجو أن تبقوا هنا حتى أعود، سأمر أولاً على مكتبي لإنجاز بضع أمور ضرورية ثم سأحضر وجدان ونعود إليكم...
-لا تتأخر...

غادر عبدالله البيت بينما أخذ أحمد الشيخ إلى الحديقة ومن هناك إلى اسطبل الخيول العربية التي يمتلكها والده وعرض عليه أن يمتطي أي واحدة يختارها ليذهباً معاً في جولة قصيرة إلا أن الشيخ قال له : أنت معتاد على ركوبها لذلك كان من السهل عليك أن تركب على الحمار لكن مثلي من اعتاد على ركوب الحمير يصعب عليه فجأة أن يصبح فارساً يمتطي حيوانات مستواها أعلى مما اعتاد عليه! تذكر أحمد عبارته تلك عن ركوب الحمير مع أنه لم يكن يقصد فيها أي إساءة ولكن يبدو أن الشيخ لم ينساها...

-هل أغضبتك يا عم عندما تحدثنا عن هذا الأمر؟ لقد كنت أمزح وحسب،

-فقط تذكر يا أحمد أن تزن كلماتك وأنت تتحدث، لا تعرف كيف سيكون وقع كلماتك على شخص ترتبط هذه الكلمات بذكرى مؤلمة مرت عليه في الماضي...

ليس الجميع يستطيعون أن يعبروا عن غضبهم واعتراضهم على كلمات تمزقهم من الداخل...

-أنا آسف، لقد آمني أنك لا تزال تذكر الكلمات كما هي... هذا يعني أنها لا تزال محفورة في ذهنك منذ ذلك الحين...

-إذا أردت أن تصل النصيحة بأفضل طريقة فإتركها لحظة حدوثها ثم ذكر الشخص الذي تريد نصحه بها في وقت آخر قريب... سترسخ في عقله للأبد...

سارا معاً حول القصر وقد لاحظ أحمد أن الشيخ ينظر بإعجاب إلى كل تفاصيل البناء ويردد : ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فلم يتردد من مصارحته بما يدور في خلدته : هل تسمح لي بسؤال يا عم وأرجو أن تشعر بالخرج من اجابته ولكنك عودتي أن أكون صريحاً وجريئاً في طرح الأسئلة، ألم تخبرني بأنك ذهبت إلى الجامعة في وقت لم يكن أحد من أبناء جيلك يحلم بدخولها؟ وكانت أمك تسعى بكل جهدها لتأمين رسومك الجامعية حيث لم يكن يدخلها سوى الأثرياء لإرتفاع رسومها؟! إذن لقد عشت فترة ليست بسيطة من عمرك مع هذا الجيل من أبناء الذوات والشخصيات ولا بد أنك عاشرتهم وصادقتهم واحتككت بهم، إذن لماذا أراك تنظر إلى بيوت المدينة وليس فقط بيتنا بإعجاب وكأنك ترى هذه البيوت الفخمة لأول مرة في حياتك... منذ أن وصلنا المدينة وأنت تنظر إلى المحلات التجارية والبنائيات العالية كأنها المرة الأولى التي تدخل فيها المدينة؟! ان لم ترغب في الإجابة فلن أضغط عليك...

-أنت لا تضغط علي، يعجبني تساؤلك فهو منطقي بالنسبة لك، إذا غدت الأسئلة منطقية بحسب معاييرنا فالأولى بها أن تطرح، ذاك أفضل من تأويل اجابات قد توازي الحقيقة ولكنها لا تتقاطع معها... أولاً في زماننا لم تكون البيوت بهذا الجمال فهي برغم أنها على حسب الذائقة المنتشرة في ذلك الزمان جميلة إلا أنها لم تكن مميزة كما هي الآن إذن فهذا الجانب الأول من اجابتي وهو أنني أحب ثالث القيم السامية، الحق والخير والجمال، أينما وجدت وجدتني ألاحقها بشغف، تأسرتي بتفاصيلها، أما الجانب الآخر للإجابة فهو متعلق بمشاعري كفقير حينها... أنني لست مثلهم حتى لو درسنا في نفس الجامعة... الأمر لا يتعلق بأني كنت أشعر بأنهم أفضل مني أو أنني دونهم... وليس انعدام ثقة بنفسي، هو اختلاف طباع وأسلوب حياة، تعرفت وقابلت أصدقاء كثر في تلك المرحلة وأكاد أجزم أنني كنت محبوباً ومقبولاً من قبل شريحة كبيرة منهم ولكن ظل شعور الفقر يطفو على تعاملاتنا فأنا لم أكن استطع مثلاً حضور جميع جلساتهم لأنني لا أستطيع تحمل تكاليفها خاصة تلك التي تجري في المقاهي والمطاعم، لم تكن امكانياتي المادية تسمح لي بتناول الطعام في الخارج فكنت أضع جدول محاضراتي لتنتهي قبل موعد الغداء حتى أتمكن من تناوله في المنزل... كنت أرفض كثيراً من دعواتهم ان لم تكن كلها لأنني لا أستطيع ردها لهم، الأمر يتعلق بالكبرياء، لم يكن يغريني شيء في معيشتهم ولكن طموحي كان يحركني دائماً أنني استحق أفضل مما أنا فيه، لا أعرف ان كانت حياتهم هي الأفضل ولكنني كنت أفكر دائماً أنني لست في أفضل حال... ومع التقدم في السن أيقنت أن الأفضل هو ما نقنع نحن أنفسنا فيه

بأي مرحلة نحن فيها وفي أي زمان ومكان، القناعة أحد المفاهيم البسيطة التي انتزعتها العصر من حياتنا وقد كانت هي المعنى الحقيقي للحياة.....لذلك ترى تجاعيد الوجه التي تغزو وجوه آبائنا وأمهاتنا فيها نوع من الإطمئنان والسكينة بالمقابل فتاة في الثلاثين ترى في عينيها الموت والرعب.....الزمن لم يتغير ولكن خياراتنا هي فقط التي تغيرت...هل سمعت سابقاً في قصة : كم نحتاج من الأرض؟ هي قصة تتحدث عن أمير يعرض على الناس ما شاؤوا من الأرض لتصبح ملكاً لهم ولكنهم يضع لهم شرطاً بسيطاً وهو أن يمسكو حبلاً ويحيطوا المساحة التي يريدون امتلاكها ويرسلهم في الصباح ويطلب منهم أن يعودوا قبل المساء وعندها ستكون الأرض التي أحاطوها ملك لهم، هل تعرف ماذا كان يحدث؟! لشدة طمعهم يذهبوا في الصباح ويماطلوا في العودة لعلهم يحيطوا مساحة أكبر وفجأة يكتشفوا أنه لم يتبقى لديهم وقت كاف للعودة قبل المساء فيحاولوا العودة راكضين ولكنهم لا يتمكنوا من العودة قبل المساء، خسروا كل شيء من اللحظة التي تخلوا فيها عن مبدأ القناعة في الإكتفاء من الحد الأدنى الذي يساعدهم على البقاء أحياء في هذه الحياة الزائلة...

-يالها من قصة رائعة ومليئة بالعبير! يبدو أن الإنسان يحتاج من الأرض ما يكفي لمواصلة جسده بطريقة تليق بإنسانيته وحسب...

في هذه الأثناء نادى أحد الحراس على أحمد طالباً منه أن يأتي بسرعة، اتجه أحمد والشيخ إلى الحارس الذي لم يكن يستطع التقاط أنفاسه

- ما الأمر؟!

- انه... انه يا سيدي... عبدالله

- ما به أي تكلم!

- لقد اتصلت السكرتيرة وقالت أن عليك أن تلحقه فوراً إلى الشركة فقد حصل أمر خطير

- ما هو الأمر الخطير؟! ألم تخبرك؟!

- لا ولكنها كانت تبكي وأغلقت الهاتف وهي في حالة عدم استقرار فقد كانت تهلوس وتقول : يا لحظي! لماذا كان علي أن أشاهد هذا؟! لماذا جئت إلى العمل اليوم؟! ليتني مت قبل أن أرى هذا المنظر!!

- حسناً جهز إحدى السيارات على الفور سنذهب أنا والعم فلاح للشركة، هيا انطلق

ركبا السيارة التي كان يقودها أحد الحراس وما أن وصلوا الشركة حتى اتجها إلى المصعد، ضغط أحمد على زر الطابق الذي فيه مكتب أبيه وأخذ يسأل الشيخ ان كان يتوقع ما الذي حصل فأخبره الشيخ يطمئنه بأن لا شيء خطير حدث فربما

بأسوأ الحالات حدث شجار بين عبدالله وأحد موظفيه وأن الأمور ستكون بخير.... مرت اللحظات القليلة في المصعد كأنها سنوات على أحمد حتى أنه بدأ يضغط بتوتر على زر فتح باب المصعد قبل أن يصل إلى الطابق المطلوب...

كان الطابق شبه خالي فإتجه نحو مكتب عبدالله وبدأت الأصوات تتعالى، كان التجمع يعيق وصول أحمد لباب المكتب فأخذ يصرخ بهم : أنا ابنه! ابتعدوا، ابتعدوا.... ويدفعهم بعنف من أكتافهم حتى صنع له ما يشبه الممر وسطهم...

ما أن دخل المكتب والشيخ خلفه حتى كاد يسقط على الأرض ولكنه أمسك بإطار الباب وأخذ يحدق بجثة والده فوق الكرسي وقد أطلق النار على رأسه من جهة اليمين وقد خرجت الرصاصة من الجانب الآخر الذي كان لا يزال الدم يقطر منه... كان من الواضح أنه رتب لكل شيء بهدوء فقد كان إلى جانبه كم كبير من الأوراق الممزقة بعناية عبر آلة تمزيق الورق بحيث لم يبقى أي أثر لما كان مكتوب فوقها... كانت القاصة مفتوحة وخالية تماماً... وصورة وجدان مقلوبة على المكتب أمامه.

بدأ أحمد بالصراخ كالمجنون : أبي! أبي! وهجم بإتجاهه لكن الشيخ أمسكه بكل ما أوتي من قوة وشده من كتفيه وأدار وجهه إليه وقال له بعينين جازمتين : ماذا تفعل؟! هذا مسرح جريمة! لا تستطيع لمس الجثة قبل أن تأتي الشرطة وتحقق في الأمر،،،

اتجه الشيخ بهدوء نحو الجثة واضعاً أصابعه بحذر فوق رقبة عبدالله ليتحسس نبضه وعندما تأكد بأنه مات أغمض عينيه والتفت بإتجاه أحمد وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد مات!

عاد أحمد إلى حالته المستيرية وبدأ بالصراخ : ولكن لماذا ؟ لا يمكن أن يفعلها أبي! أبي ليس جباناً لا يمكن أن يهرب من المواجهة بهذه الطريقة! لا بد أن أحداً نفذ هذه الجريمة لتبدو على شكل انتحار!

-أحمد! تماسك يا بني! علينا أن نعرف كيف نتصرف الآن، ليس وقت البكاء والعويل، إذا كان هناك شيء مريب فستكتشفه الشرطة عندما تفتش المكان، لا بد أنهم في طريقهم إلى هنا! عليك أن تهدأ

-كيف أهدأ وأبي يجلس أمامي جثة هامدة ورصاصة قد دخلت في رأسه وخرجت من الجانب الآخر؟! هل هذا شيء يجب علي استيعابه بسهولة؟! لا يمكن أن يمر هذا الحدث بهذه البساطة! أريد أن أفهم كل شيء! لماذا يقتل أبي نفسه؟!!

وصلت الشرطة وأخذوا الجثة وقاموا بجمع الأدلة ورفع البصمات وطرحوا بعض الأسئلة ثم غادروا، اقترح الشيخ على أحمد أن لا يخرج الآن قبل أن يهدأ كي لا تحاصره وسائل الإعلام وتبدأ بطرح الأسئلة عليه وربما يتخذوها حجة لنشر أخبار ملفقة عن موت والده... وافق أحمد على مضمض وأخبره الشيخ بأن سيرافقهم

ليستفسر عن الإجراءات اللازمة وسيحضر له مهدئاً في طريق عودته كي يرتاح ويصبح قادراً على مواجهة الإعلام واتخاذ القرارات المناسبة للمرحلة القادمة...

ألقي أحمد بنفسه فوق الكنبه منهكاً لا يعرف ماذا سيفعل ولا كيف سيتصرف،،، ما هذه المصيبة التي سقطت من السماء على رأسه، أخذ ينظر حوله في المكتب عله يجد إشارة من أبيه أو علامة أو أي شيء قد يجيب على استفساراته... نهض بإجتهاد كبير وأخذ يدور ويفتح الخزائن والجواريير ويرفع السجاد ويدور حول المكتب ومكان جلوس أبيه فلم يجد شيئاً... استمر بالبحث كأنه متأكد من وجود شيء ما، أعاد البحث فوق المكتب وانتبه إلى جهاز الحاسوب وإذا فوق شاشته الرئيسية ملف مكتوب عليه : أحمد

أحضر كرسيّاً وقربه من المكتب وفتح الملف

عزيزي أحمد، لم أعد أستطيع احتمال مطاردة الروح البشرية التي قتلتها... انها تجثم على صدري وتمزق روحي،، هذا الكابوس يقتلني ولهذا قررت أن أقتل نفسي لترتاح ولعل روح حلا ترتاح أيضاً...

بني الغالي كم أرغب بإحتضانك! ربما لأنني سأكون صادقاً في مشاعري للمرة الأولى والأخيرة في حياتي، فكما قال الشيخ أخبروا الآخرين عن مشاعرهم نحوهم فأنتم لا تعرفون متى سيفرق الموت بينكم...

يا أحمد أنا ان لم أخبرك يوماً أنني أحبك فهذا لا يعني أنه لم تكن لدي مشاعر قوية تجاهك، مشاعر أب تجاه ابنه... ولكنني منذ ولدت علمتني أمي سامحها الله أن التعبير عن المشاعر ضعف وأنا يجب أن لا أضعف وهكذا اعتدت على اخفاء مشاعري فقد كان يجب علي أن أظهر دائماً بمظهر القوي الذي لا يهزم، خاصة أمامك فأنت وريث هذه المملكة التي ولدت لتستمر....

أحبك جداً يا بني ولكن لم يعد بإمكانني أن أحتمل العيش مع نفسي لمدة أطول، لقد تراكم اليأس والإحباط من حولي حتى أصبحت كالشبكة، لم يعد بإمكانني أن أنفَس، حرفياً كنت أختنق يوماً بعد يوم، واليوم قررت أن أضع حداً لكل هذا الألم الذي كان يأكل روحي من الداخل...

أخبر أمك أنني أحبها جداً وأني أعتذر لها عن كل ما سببته لها من ألم، أعرف أنها ستسامحني فلطالما فعلت، لا أعرف كم ستكون حصتها من الميراث وأعرف أنه أمر لا تهتم له ولكن إن أجحف بحقها القانون فأنت ستنتصفها بالتأكيد....

إنه الآن وقت الاعتذار لك، يحق لك أن تسامحني بعد ما سأقوله لك ولكنني أعتقد أن الرصاصة المحشوة الآن في مسدسي ستكفر عن كل أخطائي، ستجد شيكاً مالياً

بقيمة مليون دينار في الجارور الأخير من الخزانة الموجودة في غرفتي بإسم سلمى،
سلمى هي أم حلا...

بدأت الدموع تترقرق في عيني أحمد

-حلا كانت أختك يا أحمد، لقد ارتكبت خطأ فادحاً مع هذه السيدة المدعوة سلمى وحملت بجلا، تركتها لأنها كانت غلطة بنظري ولكن وعندما ظهرت حلا في طريقك كان يجب علي أن أصحح خطأي ولم يكن لدي الجرأة للاعتراف بذلك أمامك وأمام أمك

كان أحمد يعض على شفتيه ويقول : غلطة أيها المختل؟! أتسميها غلطة؟! ليتك تعود للحياة لأنزع روحك منك بيدي هاتين

-والآن أوصيك بأن تعطيها هذا الشيك كنوع من التعويض المعنوي وأن تطلب منها أن تغفر لي... وأرجوك يا أحمد ان كان لي رغبة أخيرة قبل أن أموت فهي أن لا تخبر وجدان بهذا الأمر...

القصاصات التي ستجدها إلى جانبي هي الوثائق التي تدين خالد، مزقتها كلها لكِ
يتمكن من البدء في حياة جديدة وربما تساعد على ذلك فهو رجل حقيقي

ومخلص ووفي بالرغم من كل السرقات التي كان يقوم بها دون علمي بحسب اعتقاده...

لم أشعر يوماً براحة وسكينة كما أشعر الآن، أحس بأن روحي تحلق في السماء، لم أشعر بأنني خفيف كما أشعر الآن... كأني تحررت من كل القيود التي كانت جاثمة على أنفاسي... على فكرة هذا المسدس مرخص ومسجل بإسمي لن يتعرض أي أحد للمساءلة فكل شيء مرتب بعناية وستكتب عني وسائل الإعلام بأنني انتحرت بسبب الخوف من اكتشاف صفقاتي المشبوهة... هذا سيريح روحي لأنه أفضل من أن يعرف الجميع السبب الحقيقي....

أوصيك بالشيخ خيراً فقد زرع فيك ما عجزت أنا عن زرعه خلال ست عشرة سنة... اعرض عليه أن يسكن معك وحاول أن تؤمن له حياة كريمة في ما تبقى له من أيام...

أما وصيتي الأخيرة لك فهي : إياك أن تكون مثلي... إياك أن تشبهني في شيء... بعد أن تضع جسدي في القبر أغلق هذه الصفحة للأبد وابدأ حياتك الخاصة...

أبوك المحب...



روح الأمل

انتشر خبر انتحار عبدالله كالنار في الهشيم وبدأت ردود الأفعال تتوالى من وقع الخبر... نزل الخبر كالصاعقة على رأس ربي التي شاهدته عبر التلفاز وهي جالسة مع زوجها الذي استغرب تغير وجهها....

تباً له! عرفت أنه جبان نذل! ذهب دون أن آخذ منه شيئاً، يا حماقتي! كان يجب علي أن أسرع في الالتفاف عليه وأخذ كل ما يملك

- حبيبتي؟! ما بك؟ هل تعرفين هذا الرجل المنتحر؟!

أجابت ربي ودون ارتباك وبملامح حزن مرسومة بإتقان : نعم انه زوج صديقتي وجدان، المسكينة كيف ستتلقى الخبر الآن؟! أعتقد أنها ستقتل نفسها حزناً عليه... ربما لن يخفف عنها سوى الثروة الهائلة التي سترثها من بعده

- ربي؟! كيف تفكرين بهذه الطريقة؟! أظهرى بعض الإحترام لمشاعرها؟!

- لقد كنت أمزح وحسب (لم يقضي علينا سوى سذاجتك تلك)

يا إلهي! يالها من مصيبة! لقد تذكرت! لقد كان عبدالله يحتفظ بصور فاضحة تخصني وكان يهددني فيها دائماً! في المرة الأخيرة وعدني أن يتخلص منها! ولكن الآن أين هي؟! إلى من ذهبت؟!

أما سلمى فقد كانت عند الكوافيرة تحاول صبغ شعرها الذي شاب قبل وقته بسبب عبدالله، سمعت الخبر عبر الشاشة المعلقة في الصالون فطلبت من الكوافيرة أن تتوقف للحظات... حدقت بالشاشة وسمعت كافة التفاصيل حول إنتحار أكثر شخص آلمها وأذاها في حياتها... بقيت محدقة في الشاشة بعينين مضمومتين دون أن ترمش حتى انتبهت لها الكوافيرة فسألتها ان كان هناك خطب ما فأخبرتها أن لا ثم طلبت منها أن تكمل....

أما وجدان فقد كانت في حالة يرثى لها، تلطم وتمزق بشعرها وتندب حظها، عندما شاهدها أحمد في هذه الحالة انكب عليها واحتضنها وبقياً على الأرض يبكيان معاً دون توقف إلا أن أحمد أعاد جمع شمله وبدأ بتهدئتها ومواساتها ولكن دون فائدة تذكر، كانت محاولته الأخيرة أنه أخبرها بذكر أبيه لها في رسالته الأخيرة وأنه يحبها ويطلب منها أن تسامحه وأنه لم يجب سواها، لكن هذه المحاولة فشلت فشلاً ذريعاً فزاد بكاءها وارتفع عويلها فلم يبق أمامه سوى أن يتركها لأن وجوده أمامها يزيد حالتها سوءاً...

كان آخر المعزين على وشك مغادرة خيمة العزاء التي أقيمت في حديقة قصر عبدالله، ، كان التعب ظاهراً على أحمد بعد اضطراره للوقوف لتقبل التعازي على

مدار اليوم من أشخاص لم يلتقي بمعظمهم مسبقاً... أما الشيخ فقد كان يذهب ليستريح ثم يعود للوقوف إلى جانب أحمد...

-يا إلهي كم شعرت بالقرف وأنا أتحمل المجاملات الكاذبة من الحاضرين! كلهم يدعون أنهم أصدقاء ويتباكون عليه بكل خسة ونفاق، ربما يظنون أنني سأكمل ما بدأ به أبي وقد أحتفظ بهم إلى جانبي..

وضع الشيخ يده على كتف أحمد : لا تفكر بهذا الآن، لديك أمور أخرى عليك أن تفكر بها...

-صدقت، هناك أفكار كثيرة تدور برأسي ولكنني سأبدأ بتنفيذها أولاً بأول، سأبيع القصر وأسكن مع أمي في شقة صغيرة... أريد أن أبتعد عن كل هذا، كل ما يذكرني بالماضي... ثم سأنفذ وصية أبي أو ما استطعت منها... سأقسم الميراث بعد أن أوصل الشيك لأم حلا... سأبدأ عملاً صغيراً بحصتي... ربما أشارك أنا وخالد بإنشاء شركة وأسلمه إدارتها، سأبقى في الفترة القادمة إلى جانب أمي فحالتها سيئة جداً وعلي أن أساعدها على تجاوزها بكل إمكانياتي، وهناك أمر آخر بشأن الوصية أردت أن استشيرك به

-ما هو؟! ألم تطلعني على كل ما جاء فيها؟!

-لقد كتب أبي ملاحظة صغيرة في آخر رسالته تتعلق بصور فاضحة لفتاة متزوجة كان قد اعتاد الذهاب إليها بين الحين والآخر، لقد أخبرني عن مكان الصور وعنوان الفتاة وترك القرار لي!

-وأنت ماذا ستفعل؟!

-لو أنني كنت أعرف لأخبرتك! لهذا سألتك! أنت أكثر شخص أثق به على وجه الأرض! هل تعرف أنني لم أطلع أحداً على الوصية سواك؟! ولا أنوي...

-أعرف ولكن قبل أن أخبرك برأيي أريد أن أسمع رأيك تخيل أنني لست موجوداً لتستشيرني! ماذا كنت ستفعل؟؟

-لو كنت أنا أحمد القديم الذي كنت عليه قبل أن أقابلك لأرسلتها إلى زوجها على الفور انتقاماً لأمي ولكن الآن الوضع مختلف فأنا أفكر بعقلانية أكثر، وعليه فإنني أميل لتسليمها لها لتتخلص منها بعد أن أؤكد لها أنني لم أحفظ بنسخ منها...

-الحمد لله أنك اخترت هذه الإجابة فهذا يجعلني أغادر وأنا مطمئن بأنك ستكون بخير...

-تغادر؟!!

-أعتقد أن مهمتي انتهت بوفاة عبدالله، عليك الآن أن تعتمد على نفسك وتبدأ حياتك الخاصة بكل ثقة وحزم...

-يا عم! هل إحساسي خاطئ أم أن ربط انتهاء مهمتك بوفاة أبي له دلالة ما؟! هل كان استقبالك لي خدمة تردها لأبي مقابل شيء قدمه لك؟! الحقيقة أن كلامك أربكني! بإمكانك أن تجلس معنا لعدة أيام على الأقل أو ربما تنتقل للعيش معنا إلا أنك تصر على المغادرة في نفس اليوم الذي مات فيه أبي!!

-حسناً سأوضح لك كل شيء من البداية... أرجو أن يتسع صدرك لما سأخبرك به الآن ولكنني لن أذهب قبل أن أقوله فقد لا نلتقي مرة أخرى وأنا لا أحتمل ثقل هذه الأسرار فوق صدري خاصة ذلك الجزء الذي ربما سيحسن من صورة أبيك في نظرك بعد أن تشوهت تماماً...

والدك يا أحمد لم يراني في أحلامه، ربما شاهد شخصاً آخر بسبب هلوساته وقلقه عليك، ولكنه لم يراني أنا بالتحديد...لقد التقينا أنا وأبيك قبل أن يراني في القرية وهو يبحث عن الشيخ الذي شاهده في الحلم... عندما شاهدني لم يتذكر لقاءنا ولكنني أنا تذكرته جيداً، أنا لا أنسى من أحسنوا إلي يوماً... عندما تحدثنا قليلاً تذكرني وأقنعتني أنني لست الشيخ الذي كان يراه في الحلم، اقتنع بهذا الجزء إلا أنه طلب مني ما كان سيطلبه من الشيخ الحقيقي لو وجده...وهكذا بدأت رحلتي أنا وأنت لأرد المعروف لأبيك الذي أنقذني قبل أربع عشرة سنة من مأزق كبير....

كان أحمد يسمع مندهشاً لكلام الشيخ حتى أنه أبعد كرسيه إلى الخلف قليلاً حتى يستطيع رؤية الشيخ بكامل ملامحه...

بدأت القصة عندما اكتشف أبوك أن ثروة أمك مشبوهة وأصر على أن تخبره أمه عن مصدرها إلا أنها كانت دائماً ترفض ذلك، ذات يوم احتدم الشجار بينهما فترك عبدالله منزله وأمّه وزوجته وقال لجذتك أنه سيذهب ليعمل بيده ليكسب رزقاً حلالاً... وأثناء بحثه عن عمل التقى بأبي سلمى الذي كان يمتلك محل تصليح سيارات وقد صادف حينها أن أحد عماله هرب ولم يعد وهو بحاجة لعامل مؤقت إلى أن يجد حلاً.. ناسب هذا والدك الذي أصر على تعلم المهنة رغم قدومه من بيئة منعمة...

مع كل كلمة كان أحمد يحمق بعينه بالشيخ حتى أنه لم يعلق بأي ملاحظة كي لا يتوقف الشيخ عن كلامه...

في تلك الفترة تعرف والدك على سلمى التي كانت تحضر الشاي إلى والدها في بعض الأحيان، سلبت عقله ووقع في حبها لشدة حياؤها وبساطتها ورقتها وجمالها وأدبها... لم يتحدث سوى بضع دقائق خلال الفترة التي قضاها أبوك عند أبيها...عندما تأكد أبوك من حبه لها عاد لجذتك وطرح عليها الفكرة فجئن جنونها وهددته أنها ستحرمه من كامل حصته من الميراث إن لم يترك العمل فوراً عند أبي سلمى...وعندما عاد للمرة الأخيرة ليعتذر عن إكمال العمل لدى أبي

سلمى، أصر أبوها أن يعطيه أجرته وفوقها غداء ذلك اليوم لذلك طلب منه أن يمر على المنزل ويأخذ حصته ففي هذا الوقت تكون سلمى قد جهزته....وعندما ذهب إلى سلمى وطلبت منه أن ينتظر عند الباب انتظر حتى تدخل ولحقها وأغلق الباب خلفه وثم...

هنا وجد أحمد نفسه مضطراً لمقاطعة الشيخ

-أرجوك أن لا تكمل... ولكنني لا أفهم كيف تعرف كل هذا؟ كيف التقيتما؟! وكيف تظن أن هذه الأحداث ستحسن من صورة أبي في نظري؟!

-لم أكمل بعد....بعد تلك الحادثة بثلاثة أشهر أو أكثر كانت جدتك تخضع لفحوصات في المستشفى وكنت أنا مع زوجتي التي كانوا يحاولون انقاذها من الموت بعد حادث السيارة، قاموا بإسعافها وحاولوا انقاذها لكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل وتوفيت، كنت واقفاً مع محاسب المستشفى أتجادل معه بشأن تكاليف العلاج المرتفعة وأحاول اقناعه بأنني لا أمتلك هذا المبلغ وهو يخبرني بأنني لن أتمكن من دفن زوجتي إن لم أدفع كامل المبلغ... عندها تدخل والدك ودفع المبلغ كاملاً علماً بأنه لم يكن يعرفني ولم نتقابل قبلها

اتجه والدك بعدها إلى الكافيتيريا ليشرب القهوة كأنه لم يفعل شيئاً يستحق الشكر... لحقته وبعد أن شكرته أصررت على معرفة مصدر المال ولماذا دفعه بهذه السهولة لو كان فعلاً تعب في تحصيله فأقسم لي بأنها الأموال الوحيدة الحلال

المتأكد من مصدرها... وأثناء شرحه لي عن مصدرها صمت قليلاً وقال لي بأن في قلبه ناراً تحرقه وأنها لن تنطفأ إلا إذا باح بما في صدره وبما أنني غريب سيخبرني بكل شيء... حتى الأموال التي أخذها من عمله قرر أن ينفقها في عمل صالح ولم يجد شيئاً يستحق ذلك أكثر من أن يساعد فيها رجلاً محتاجاً مثلي...

أحمد، لا أعرف أن كان هذا سيغير من رأيك بأبيك ولكنه كان يخبرني بما حدث معه وهو يبكي، لقد كان منهاراً تماماً، كان يشعر بالعار والغضب من نفسه، لقد كان ضميره يؤنبه على الطريق النذلة التي كفاً بها والد سلمى على كل ما قدمه له... كان يبكي ويقسم أنه لم يكن بكامل قواه العقلية عندما فعل ما فعله مع سلمى! هي حبيبته فكيف تجرأ على هذا؟! قال لي بأنه وعندما شعر أن سلمى ستذهب لغيره وأنه لن يراها للأبد جاءت أفكار شيطانية بأن ينال منها ما ينال الزوج من زوجته قبل أن تذهب لغيره..

لن تصدق مهما وصفت لك مدى ندمه، كان يحدق بيديه ويقول : لقد أمسكتها بيدي هاتين وهي تقاومني وترجوني أن أتركها، ولكنني كنت كالوحش! لا لا لا بل لم أكن أنا... كان شخص آخر دخل جسدي وبدأ يحركه! كانت ترجوني بأن والدها رجل مسكين وأنا أزداد قسوة... لقد دمرت حبي الوحيد في حياتي بلحظة طيش جامحة!

- وهل صدقته يا عم؟؟؟ هل تصدق بأن قوة على وجه الأرض تستطيع أن تدفعك للدخول من الباب وإغلاق الباب خلفك واغتصاب فتاة ضعيفة من المفترض أنك تحبها وتريدها زوجة لك؟؟ في أي شريعة قد يكون هذا مقبولاً؟! لقد أعمت الثروة بصيرة أبي وبصره فلم يعد له قلب يحس به وتحول إلى وحش كاسر ليس في جوفه ذرة انسانية!

- وأنت بعدم رفقك به الآن بعد موته ألسنت مثله؟؟ يا أحمد جدتك كانت تسيطر على والدك واخوته! كانت جبارة! هي من أجبرتهم على أن يتحولوا لوحوش! لقد كانت سبباً رئيسياً في كل ما حدث بعد ذلك في عوائلكم! لقد داست بذرة الخير في قلوبكم... هل تعرف ماذا قال أبوك لي عندما نهض ليغادر؟! لقد دعوت الله أن يكفر عمل الخير هذا عن خطأي ويعوضني الله شيئاً جميلاً في حياتي... عندما قابلته في القرية وذكر هذه العبارة وأتبعها بأنه يتمنى أن أكون أنا الخير الذي عوضه الله به لم استطع إلا أن أوافق على طلبه...

- فعلاً يا عم لقد تضاعف الخير البسيط الذي قدمه لأنه كان بصدق فجئت أنت... ما رأيك أن نصعد لنرتاح؟ لقد كان يوماً ثقيلاً جداً جداً جداً...

الخاتمة

- مرحبا خالده، هل انتهيت من جميع الترتيبات من أجل حفل الافتتاح؟
- بالتأكيد، كل شيء جاهز، عدت قبل قليل من هناك وكان في الأجهزة الصوتية يضع آخر لمساته.. هل أنت جاهز؟ لم يتبقى سوى ساعتين، يجب أن نكون موجودين هناك قبل أن يبدأ المدعوون بالتوافد..
- هل الشيخ هناك؟ أنت تعرف أن كل هذا من أجله! يجب أن نجعله يوماً لا ينسى له ولأهل قريته... كما قلت لك سنعلن أن جميع كادر موظفي هذا الفرع سيكونوا من أهل القرية...
- أعرف يا أحمد لقد كررت هذا التذكير عشرة مرات منذ الأمس! لماذا أنت متحمس إلى هذه الدرجة؟ انه ليس فرعنا الأول ولن يكون الأخير!
- أعرف ولكنني منذ المرة الأخيرة التي قابلت فيها الشيخ قبل عامين وأنا أنتظر هذه اللحظة لأرد له معروفه الذي قدمه لي...
- تأكد أنك سترده له اليوم فهذا الفرع سيوظف مئة وخمسين عاملاً من أقاربه، هذا سوى الإداريين... ستنتعش المنطقة كلها ان شاء الله...

-حسناً، وهل رحمة ستأتي معك؟ اشتقت إليها كثيراً، إياك أن تأتي دون أن تحضرها معك، اجعلها ترتدي ذلك الفستان الأحمر الذي تسقط كلما حاولت أن تمشي وهي ترتديه، ، أخبرني هل بدأت بنطق الأسماء جيداً أم أنها لا تزال تناديك : أدالله!

-هههههه ليس بعد يا صديقي، بالكاد تقول بابا وماما، لم تكمل عامها الثاني بعد -حفظها الله لك يا صديقي، بقي أمر مهم واحد هل أنت متأكد من نجاح خطة أسماء لإقناع سلمى بالحضور؟!

-لا تخف فهي تعمل على هذا الأمر منذ عدة شهور، ستأتي ان شاء الله، خصصنا لها طاولة بجانب المنصة التي ستلقي من فوقها كلمتك معلناً إفتتاح الفرع، كل ما عليك عندما تراها أتت أن تتجه إلى طاولتها فوراً، لن تترك الإحتفال وسط الحشود الحاضرة، ستظطر للبقاء وعندها ستكون هذه فرصتك الأخيرة للحديث معها وانهاء موضوع الشيك

-فعلاً أنا محتاج للنجاح هذه المرة فكل المرات السابقة التي التقيت بسلمى فيها كانت نهايتها كارثية، في المرة الأخيرة غيرت مكان سكنها ومنذ ستة أشهر وأنا أبحث عنها ولم أتمكن من العثور عليها! أنت تعرف يا خالد أن هذا الشيك يحرمني النوم، لن أشعر بالراحة قبل أن تأخذه مني، حتى لو قامت بتزيقه! انه الشيء الوحيد المتبقي من وصية أبي، بتسليمه سأتمكن من التنفس براحة للمرة الأولى منذ وفاة أبي...

-اطمئن، ان شاء الله ستكون فرحتنا اليوم فرحتان، افتتاح الفرع، وتسليم الشيك
لسلمى...

كان خالد يدرك أهمية هذا الحفل بالنسبة لأحمد فأولاه عناية شديدة، وصل إلى مكان الحفل الذي تم اختياره قريباً من قرية الشيخ قبل وصول أحمد، تأكد من جميع الترتيبات، بدأ بتفقد الحاضرين الذين كانوا يتوزعون على طاولات موزعة حسب أهمية الضيف... الشيخ ووجدان كانا معا على نفس الطاولة وسينضم إليهم أحمد بعد القاء كلمة الافتتاح... ابراهيم وأصدقاء خالد على طاولة... خالد وزوجته أسماء وابنتهما رحمة على طاولة... أصدقاء أحمد، مجد وبهاء والبقية كانوا يتوزعون على طاولتين... النقيب محمد الذي أصبح فيما بعد صديقاً لأحمد وخالد حضر هو ومجموعة من أصدقاءته باللباس المدني... أصحاب شركات منافسة قام أحمد بدعوتهم ليعرفوا مدى قوته وتوسع شركاته خاصة أنهم كانوا يراهنون على فشل هذا الفرع لأنه أقيم في منطقة نائية... حشود من الإعلاميين والصحفيين تعمد خالد دعوتهم من أجل التغطية الإعلامية لهذا الافتتاح... وطاولة ليس عليها أحد استغرب الجميع دنوها من المنصة وعدم وجود أحد يجلس عليها حتى الآن... امتلأت الساحة بالحضور ولم يأت أحد للجلوس فوق هذه الطاولة ولم يأت أحمد...

لم تمضي سوى بضع دقائق حتى وصل أحمد بكامل أناقته واعتلى المنصة والجميع يصفقون لهذا الشاب الذي شق طريقه بنفسه حتى كاد ينافس أعتى الشركات خلال عامين فقط، ، أعماله الخيرية وصلت لأبعد بقعة فوق أرض الوطن... أغلب شركاته تعتمد على اليد العاملة المحلية، ، هذا الفرع بالتحديد سيكون مركزياً وسيخدم أبناء الجنوب بكافة محافظات... قرر أن يقوم ببناءه عرفاناً للشيخ الذي رفض أن يترك القرية وينتقل ليعيش في المدينة مع أحمد الذي كان يزوره في القرية بشكل دوري بعد وفاة عبدالله...

وجدان خرجت من أزمته وهي الآن تدعم أحمد بكل امكانياتها، أصدقاء أقلعوا عن تعاطي المخدرات وذلك بمساعدته والحاحه عليهم، مجد وافق على عرض أحمد بالعمل معه في شركته أما بهاء فقال بأنه يفضل أن يكمل دراسته...

رجا أحمد الجميع بأن يعودوا إلى مقاعدهم وأخرج ورقة قد كان كتب عليها ما سيقوله... لم تكن سلمى وصلت بعد ورغم هذا بدأ بإلقاء كلمته...

أيها الحفل الكريم... يسرني مشاركتكم لنا اليوم بإفتتاح فرعنا الجديد الذي نعدكم بأن يكون عند حسن ظنكم... لم يكن هذا النجاح ليبدأ أو يستمر ويزيد لولا فضل رجل واحد كان هو الداعم الرئيسي لشركتنا وكان له فضل

ومعروف شخصي علي أنا... انه الرجل الذي يجلس أمامي الآن، انه الشيخ الوقور
الرائع العم فلاح... أرجو أن تحيوه....

ما أن أشار إليه أحمد حتى بدأت العيون تتجه إلى طاولة الشيخ وهم يصفقون
بحرارة...

لن أنسى فضل هذا الشيخ علي للأبد فقد دخل حياتي في مرحلة حساسة جداً
كدت أغرق خلالها في بحور الضياع... ولأنه أول من علمني أن أرد الفضل لأهله
فإنني أعلن ومن منبري هذا أن جميع موظفي هذا الفرع سيكونوا من أهل القرية
التي يسكنها الشيخ والتي لا تبعد عن مكان احتفالنا اليوم عدة أمتار... أما
بالنسبة لأرباح الشركة فستوزع على شكل أسهم تذهب لأهل القرية... وهذا
العمل هو باكورة مشاريع ستنتقل بإذن الله قريباً لخدمة المنطقة...

علا صوت التصفيق في الساحة بينما المراسلون الصحفيون يلتقطون الصور
للشيخ من جميع الزوايا ليضعوها في الصفحات الأولى في صحف الغد..

في هذه الأثناء أطلت سلمى بخطوات متثاقلة محاولة البحث عن طاولة تجلس
إليها، كانت أسماء ساعدت أحمد في البحث عنها بعد أن غادرت منزلها قبل ستة
أشهر، وبعد أن وجدها تعرفت عليها وصادقتها دون أن تكشف لها عن
شخصيتها، كان أحمد بحاجة لأن يسمع أخبارها دائماً وهذا ما كانت تفعله أسماء،
واليوم وجهت لها دعوة إلى حفل الافتتاح لك يحاول أحمد للمرة الأخيرة أن يعطيها

الشيخ ويصلح العلاقة بينهما، سألها أحد الحراس عن اسمها وعندما أجابته أشار لها بأن تتجه إلى طاولتها التي كانت أمام المنصة مباشرة ففتاجأت وسألته إن كان متأكداً فلما أجابها بأن اسمها مكتوب هناك ذهبت ومشت وسط الحشود ووصلت إلى طاولتها وفعلاً كان اسمها فوق الطاولة وعندما أرجعت الكرسي لتجلس رفعت رأسها فوجدت أحمد يتكلم من على المنصة، فهمت أن كل هذا مدبر فاستدارت بغضب وبدأت بدفع الناس وركضت مبتعدة عن المكان، عندما شاهدها أحمد ولك لا يلفت الإنتباه أنهى كلمته فوراً وطلب من الجميع أن لا يعتبروا أنفسهم ضيوفاً وأن يتناولوا التحلية فيما ستستمر الفقرات بعد استراحة صغيرة... نادى خالد وقال له بأنه لا يريد أن تحدث أي فوضى وأنه سيلاحقها مشياً على الأقدام....

تأخر أحمد بسبب الأشخاص الذين كانوا يحاولون السلام عليه، تملص منهم أخيراً وكانت سلمى ابتعدت ولكنها لحقها وهي تطلب منه أن يبتعد ويتركها لوحدها...

-أرجوك يا خالتي أن تنتظري أريد أن أقول لك كلمتين فقط

-اتركني، فقط أتركني

-توقفي أرجوكي، استحلفتك بروح حلا!

وقع اسم حلا على سمع أمها كالرصاصة فلم تعد قادرة على الهروب، توقفت واستدارت نحو أحمد

-استحلفك بالله أن تتركني وشأني! ان كنت تؤمن بالله مع أنني أشك في أن أي شخص له صلة بعبداً لله أن يؤمن به

-يا خالتي! أنا لست مذنّباً في ما جرى بينك وبين أبي ولست هنا لأدافع عنه فلا تربطي الأمور ببعضها بطريقة ظالمة... أنا هنا فقط لأنفذ وصية أبي لك يرتاح ضميري، ما تفعلينه لن يعيد لك حقك من أبي، لا تجعلني حقدك يدفعك لقرارات خاطئة... أنا مثل ابنك فلا تقسي علي بسبب ذنب لم أقترفه...

انهارت سلمى بالبكاء وهي ترى أحمد يكاد يقبل قدميها لتقبل الشيك

-صدقتي يا بني أنني أعرف أنك لست مذنّباً ولكن ما تطلبه مني يفوق طاقتي، أنت لا تعرف ماذا فعل والدك بي، لقد دمر حياتي كلها، دمر علاقتي بأبي الذي قام بطردني من المنزل ظناً مني أنني بعت عرضه وشرفه، عشت بقية حياتي منبوذة، لم أعرف ما يجب علي فعله! مررت بلحظات عصبية كثيرة في حياتي ولكن مثل شعوري بعد أن طردني أبي من البيت لم أجرب أبداً، فقدت ثقتي بالجميع، فكرت كثيراً بالانتحار خاصة بعد أن عرفت بأني حامل، ذهبت إلى الطبيب فأخبرني أن لدي آثار تمزقات وقروح في الرحم، وأني محظوظة أن هذا الجرح لم يتعفن وإلا لتعرض رحي للإلتهاب قد يؤدي إلى استئصاله، ماذا أخبرها؟! أن رجلاً اغتصبني وتسبب لي بهذه الجروح؟! هذا كله لم يكن يؤذيني، ولكن الضغط النفسي هو

الذي كان يقتلني كل يوم! كنت بحاجة للأدوية بشكل دائم وليس لدي مال، اضطررت للعمل أجيرة في بيوت الناس الذين كان أبنائهم يضايقوني، ولكن بعد أن ظهرت آثار الحمل لم يعد لدي قدرة على إخفاءه أو الاستمرار في العمل، ضعف شهية، نوبات هلع، صداع شديد، انهيارات عصبية متكررة، ، ، ،

زاد بكاءها وهي تتذكر تلك الأيام المريرة : أرجوك أن تعفيني من الاستمرار، أنا فقط وصفت لك ما فعله والدك بي وبإبنتي لك تتخيل استحالة قبولي لثمن مادي عوضاً عن هذه اللحظات...

-لا أعرف ماذا أقول لك، ولكنني أرجو أن تخبريني ان احتجت شيئاً، فأنا بمثابة ابنك، ، ، دعك من كوني ابن عبدالله واعتبريني ابنك ولا تتردد في طلب أي مساعدة تحتاجينها... أما بالنسبة للشيك فأنا أعرف ماذا يجب أن أفعل به....

أخرج أحمد الشيك من جيبه ومزقه أمام سلمى وركض إليها واحتضنها وهي تبكي وقال لها : لقد ساعدت الجميع في أن يتخلصوا من آثار الجراح التي تسبب لهم فيها أبي إلا أنت... فروحك من زجاج وانكسرت والأرواح الزجاجية ان كسرت تهشمت ولم يعد باستطاعة أحد جمع شظاياها من جديد...

فهرس المحتويات

5	الإهداء
6	المقدمة
17	على مائدة الطعام
19	اتخاذ القرار
23	الحلم
29	رحلة البحث عن الشيخ
37	اقناع أحمد
49	روح اللقاء
63	روح المواجهة
75	روح الحوار
93	روح الذكريات
115	روح الخنوع
123	روح الموت
149	روح الشباب
167	روح الحنان

179	روح الخيانة
189	روح الانتقام
199	روح الخذلان
207	روح الحب
217	روح النقاء
227	روح الظلم
237	روح التغيير
247	روح الحقيقة
257	روح الغربة
267	روح العودة
283	روح الخيال
297	روح الاستسلام
312	روح الأمل
321	الخاتمة
329	فهرس المحتويات



حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع



ببلومانيا
للنشر والتوزيع

